

1 Shot 2 Kills .. أسئلة العدالة

أيمن الصياد



"نفرتاري وأخوتها"

في معرض حلمي التونسي

من يدا فح ثمن قهوتك / تيم هارثورد

السادسة الأمريكية الرسومية / أنطوني لورنس

الصبح أرخص لك



سافر على رحلاتنا الداخلية
من 0 صباحا الى 5 صباحا بأسعار أرخص

شرم الشيخ والغردقة بأسعار تبدأ من ٢٩٨ جنيه إلى ٦٤٨ جنيه

*هذه الأسعار للذهاب والعودة ولا تشمل الرسوم والضرائب.
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١٧١٧ من أى موبايل أو ٠٩٠٠٧٠٠٠٠ من أى خط أرضى.



EGYPTAIR

A STAR ALLIANCE MEMBER

استمتع بالسماء

egyptair.com



رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير

سلامة أحمد سلامة



كتب العدد :

- أحمد بهاء شعيان.. كاتب سياسي مصري.
أحمد علي الجارم.. أستاذ الطب بجامعة القاهرة وعضو مجمع اللغة العربية.
أنطوني لويس.. كاتب بجريدة النيويورك تايمز.
أيهن الصبياح.. صحفية.
تيم هارفورد.. القاصدي وصحفي إنجليزي.
ستيفن لاندسبيرج.. أستاذ الاقتصاد بجامعة روتشستر.
ماتين النجار.. باحث وأكاديمي فلسطيني.
مايكل ماسينج.. كاتب في النيويورك ريفيو أوف بوكس.
مثال الجبري.. صحفية.
ناصر الرياض.. أستاذ الأغاني لتاريخ العبارة الإسلامية M.I.T.
يوسف الشاروني.. ناقد أدبي.
يوسف الشريف.. صحفية.

رسوم العدد للفنانين

محمد حمس

لوحة الفلاف، لفنان حلمي التوتني

زيت على قماش من معرض «فقرتاري وأخواتها»



يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعائم ورقية
أو غير الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء
منها، بغض عن كتابي مسبق من المنشائر.



المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

٢ ميدان طلعت حرب، القاهرة، جمهورية مصر العربية

ت : ٢٣٩٢-٤٩٠ / ٢٣٩٢-٤٩٢ / ٢٣٩٢-٤٩٦ فاكس ٢٣٩٢-٤٩٨ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني (التحرير): info@alkotob.com e-mail:

الاشتراكات :

السنة الواحدة (أثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر : ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد
بريد عربي : ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا : ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا : ٨٠
دولاراً أمريكياً . باقي دول العالم : ١٠٠ دولار أمريكي .

إدارة الاشتراكات : ٨ شارع سيدي القصر، ص. ب. ٣٢ ألبانوراما - مدينة نصر
هاتف : ٣٣٣٩٩ - ٢٤ فاكس ٤٨٥٤٦ - ٢٤ subscription@weghamazar.com

نسخة :

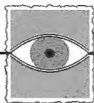
في مصر : ١٠ جنيهات مصرية - السعودية : ١٥ ريالاً - الكويت : ١٠٥ ديناراً - الإمارات : ١٥
درهماً - مملكة البحرين : ١٠٥ ديناراً - قطر : ١٥ ريالاً - سلطنة عُمان : ١٠٥ ريالاً - لبنان : ٥٠٠٠
ليرة - سوريا : ١٥٠ ليرة - الأردن : ديناران نصف - ليبيا : ديناران - الجزائر : ٣٠٠ ديناراً - المغرب :
٣٠ درهماً - تونس : ٤ دينارين - اليمن : ٣٠٠ ريالاً - فلسطين : ٣ دولارات.

Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA \$ 5.

طبع بمطابع الشرق بالقاهرة

محتويات العدد :

- أيمن الصبياح ٤
1 SHOT 2 KILLS .. أسئلة العدالة
• منال الجبري ٦
حدث في الفلوجة،
• مايكل ماسينج ٩
على مسافة رصاصة واحدة،
• أنطوني لويس ١٤
السادية الأمريكية الرسمية،
• تيم هارفورد ١٨
من يدفع ثمن قهقهتك؟،
• أحمد بهاء شعيان ٢٨
عندما تبني الشركات إمبراطوريات، كيف هيمن الغرب على العالم؟،
• حلمي التوتني ٣٤
حلمي التوتني.. مع «فقرتاري وأخواتها»
• ناصر الرياض ٤٠
«بيتى فلتنى» هؤلاء المدافعون عن منازلهم،
• يوسف الشاروني ٤٥
«إيديوا» سلموا
• مازن النجار ٥٠
«الشرق العثماني» زمن أوليا جليلى.. ١٦٩٩ - ١٦٨٣،
• أحمد علي الجارم ٥٨
«هؤلاء تأمروا على أبي»،
• يوسف الشريف ٦٢
بروفيل «الترايب».. ماذا بعد؟،
• ستيفن لاندسبيرج ٦٥
ترجمات «الاقتصاد والحياة اليومية»
• إصدارات جديدة ٦٦



1 SHOT 2 KILLS

أسئلة العدالة

أيمن الصياد



لماذا لم تتم
محاسبة الإسرائيليين؟
علينا أن نوجه السؤال لأنفسنا
قبل أن نوجهه
للعالم



دولة وهو في الحكم، وكان أن أوّل من صندّر بحقه مثل هذا القرار رئيس عربي، لصيحا لنا «السبق»، كما كان لنا في هذا اليوم البعيد «صبيحة الأضحية»، حين شاهدنا مع العالم كله، رئيسا عربيا يماق إلى المشتقة.

كان لافتا يومها ملاحظتان: الأولى أن المشهد كاملا تم بثه «أولا»، على موقع YouTube قبل أن تنتقله محطات التلفاز.

والثانية أن التصوير تم بكاميرا هاتف نقال، وكان في الملاحظتين، فضلا عن الواقعة ذاتها، إشارة كافية أننا أمام عصر جديد... واليات جديدة.

والحاصل أن مبادئ تقصيري وتباطؤا في التعامل الجاد مع أزمة دارفور منذ يومها الأول يقول بأن هناك من لم يدرك بعد أننا أمام عصر جديد واليات جديدة، بل كان مثيرا أن ٩٠٪ (ولا أياها) ممن هلقوا على قرار المحكمة باعتقال البشير في الصحف أو في الفضائيات (مسؤولين أو إعلاميين) بدوا وكأنهم لم يتكفروا فهم صبة الراء بنود «ظلم روما الأساسي» الذي يتصرف في إطاره سلطة المحكمة الجنائية الدولية، فتحدثنا مثلا عن «حصانة مفترضة لرؤساء الدول والحكومات» تحميهم من الملاحقة القانونية... رغم أن المحاكم TV منذ يومها والتي عنوانها لصا «عدم الاعتداء بالصفة الرسمية»، تنص صراحة على مايلي:

١- يطبق هذا النظام الأساسي على جميع الأشخاص بصورة متساوية دون أي تمييز يسبب الصفة الرسمية، ووجه خاص فإن الصفة الرسمية للشخص، سواء كان رئيسا لدولة أو حكومة أو عضوا في حكومة أو برلمان أو ممثلا منتخبا أو موظفا حكوميا، لا تعفيه بأي حال من الأحوال من المسؤولية الجنائية بموجب هذا النظام الأساسي، كما أنها لا تشكل في حد ذاتها، سببا لتخفيف العقوبة.

٢- لا تحول الحصانات أو الوعاود الإجرائية الخاصة التي قد ترتبها بالصفة الرسمية للشخص سواء كانت في إطار القانون الوطني أو الدولي، دون ممارسة المحكمة اختصاصها على هذا الشخص.

كما تنص المادة ٢٨ بند ٢ أن يومه الأسر، وهم في الأغلب كثير عندما، على: بالإضافة إلى ما هو منصوص عليه في هذا النظام الأساسي من أسباب أخرى للمسؤولية الجنائية من الجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة، يسأل الرئيس جنائيا عن الجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة والمركبة من جانب مؤسسين يخضعون

«المأمرين الغربيين» لم يكونوا هم الذين اقتعدوا أزمة دارفور أصلا قبل ست سنوات، ثم عملوا على تنسيقها كدرعية لاستبدادهم السودان، ربما هناك من استعمرها لغرس «بنور قلق» تنطليه مصالحه في هذه المنطقة، أو «رهبنا» ورضائتها على الأقل. ولكن هذه هي السياسة، فبقا «هل» رجائنا، على الجانب الآخر؟ كان من المفترض أن يكون هناك من بين الأموريين زائنا، مبركا في أي زمن نعيش، فيعمل على الحيلولة دون نشوب حريق بدأ شرده في الأفق. ولكن الذي جرى أن النظام المؤسسي استهان باستهان بالسلطة كلها، وأن النظام الرسمي العربي، الذي اجتمعت قمته على تخومها في الخرطوم (٢٠٠٦)، شغل عنها، ربما بحرائق أخرى كانت قد اشتعلت فعلا هنا وهناك، أو بانقراض كل «متشغل ببقائه»، على ذاته متزوا في ركن يظنه بعيدا عن العاصفة.

وكان أن وقعت الواقعة، وصدر قرار قضائي، غير مسبق، باعتقال رئيس

مستهدف... لأننا عرب، ولأننا مسلمون، يلح علينا بالفكرة ذاتها يوميا أصحاب هذا القول. ومنهم لآسف مثقفون وسياسيون ورجال حكم، حريصون دائما ويصرون أن يتباكون - على أن يشيروا بأصبع المساية بعيدا، حتى لا يرى الجمهور خطرا أو يأبه له إلا إذا جاء من الخارج، غافلا عن حقيقة أن لواء الداخل متمثلة في غياب الديمقراطية والعدل، والحكم الرشيد، يمكن أن تكون أشد خطرا، فضلا من أنها غالبا هي التي تستدعي الخطر الذي يأتي من الخارج. متذبرا - بالحق أو بالباطل - بدعوى إصلاح بات ملحا، أو بحقوق إنسان بنت مهردة.

هل كان علينا انتظار ست سنوات كاملة، منذ أن اندلعت الأزمة في دارفور حتى نصل الأمر إلى أوصل إليه، فيهرع الجميع لإنقاذ مافات وقت إنقاده؟ ألم يكن قرار مجلس الأمن رقم ١٥٥٦ في ٢٠٠٤، قبل سنوات أربع كاملة كافيا لتوبيخ إلى واقع عالمي جديد؟ بداية، لا بد من الاتفاق على أن

أربعة أخبار في أسبوع واحد: في الشرق المصرية؛ (التي يحسب لها أنها سبقت بالخبر، نيبا الغارة التي قامت بها طائرات (أمريكية أو إسرائيلية) لا فرق) على قاذبة سيارات داخل أراضي دولة مستقلة ذات سيادة، وعضو في الأمم المتحدة.

في هارتس الإسرائيلية؛ خير صادم عن قمصان T-Shirts انتشرت بين الجنود الإسرائيليين الذين شاركوا في اجتياح غزة الوحشي الأخير، مطبوع عليها شعارات صادمة. من بينها رسم لأم فلسطينية حامل وتحت الرسم عبارة تقول: «القتل اثنين برصاص واحدة، 1 SHOT 2 KILLS (ربما لم يكن أحد من لينتبه للأمر لولا أن تحدث عنه الأستاذ هيكل في الجزيرة).

على ملكينات التيكز، أو كما هو، المدعى العام للمحكمة الجنائية الدولية يطالب المجتمع الدولي بالتضامن من أجل تنفيذ أمر المحكمة باعتقال (الرئيس) عمر البشير. خلاصا بالذكر «الجنائين» مصر وليبيا. معتبرا أن هذه القضية تستل «اجتهارا حقيقيا للعدالة الدولية».

في نيويورك، وجهت منظمة هيومان رايتس ووتش، اتهامات لإسرائيل بارتكاب جرائم حرب في غزة. وذلك في بيان عرض أدلة مؤلفة، على قيام الجيش الإسرائيلي بإطلاق قذائف الفوسفور الأبيض بصورة غير مشروعة على مناطق ذات كثافة سكانية عالية في قطاع غزة.



هل تبو الأخبار الأربعة ذات صلة؟ ربما - مصاطفة / أو مصادفة... لا فرق. لا أحد يجادل في أن هناك ازدواج في المعايير جعل البعض يكفر بالترعية الدولية. وربما كان هذا جوهر أزمة المصادفة، في النظام العالمي الذي صاغه المتصورون في الحرب الكونية قبل ستين عاما محتكرين الفتوة والعصوية الناعمة في المجلس الذي يقترض أنه يقوم على الأمن والسلام الدوليين. في وقت استعدت فيه دماء ملايين الضحايا، الحاجة إلى الأمن والسلام لتتصدر كل الأولويات قبل قيمة العدل والإنصاف المساواة.

قد يكون ذلك صحيحا، وهو كذلك. ولكنه لا يبرر ذلك التفسير سابق التجهيز، الذي يجري استدعاؤه دائما - بمناسبة أو بدونها، والذي يلخصونه في عبارة واحدة ملتبسا سماعها: نحن

الذين علقوا على قرار المحكمة. بدأ أنهم لم يقرعوا أبداً قوانينها



© Yanai Yechiel

إسرائيل .. والمحكمة

على الذين مالوا يذكرهم النوايا الإسرائيلية المعلنة نحو إبعاد فلسطيني ١٩٤٨ (الترانسفير) أن يقرعوا جيدا نص الخطاب الرسمي الذي أرسلته تل أبيب إلى الأمم المتحدة في ٣٠ يونيو ٢٠٠٢ تعلن فيه أنها «لن تصدق» على ميثاق روما للمحكمة الجنائية الدولية. مستخدمة نفس العبارات التي استخدمتها إدارة بوش في رسائلها المشابهة. وجاء في نص الخطاب نقلا عن الموقع الرسمي للخارجية الإسرائيلية:

Israel states that it has "deep sympathy" with the goals of the court. However, it has concerns that political pressure on the court would lead it to reinterpret international law or to "invent new crimes". It cites the inclusion of "the transfer of parts of the civilian population of an occupying power into occupied territory" as a war crime as an example of this, whilst at the same time disagrees with the exclusion of terrorism and drug trafficking. Israel sees the powers given to the prosecutor as excessive and the geographical appointment of judges as disadvantaging Israel which is prevented from joining any of the UN Regional Groups.

الخطوات اللازمة لذلك. وما إذا كانت ممكنة أم غير ذلك. وكان الأكثر مدعاة للسخيرية أن أولئك «العرب» الذين صدعوا رؤوسنا بأنهم سيلجأون إلى المحكمة الجنائية الدولية. تناسوا أن جلهم كانوا قد رفضوا ابتداء ولأية تلك المحكمة بعدم التصديق على معاهدتها. (ثلاث دول عربية فقط انضمت لتلك الهيئة القانونية الدولية، بينها جيبوتي وجزر القمر) كما كان لافتاً أيضاً أن الذين قاموا بهجدهم «حقيقي» في إعداد ملفات إدانة المنظمات الإسرائيلية بجرم حرب، هي المنظمات الحقوقية الدولية نفسها، التي توجه له الاتهامات صباحاً ومساءً بأنها منظمات «صهيونية» إذا تطاولت ذات مرة وتحدثت عن الحريات وانتهاك حقوق الإنسان في بلادنا «العدالة».....

لا شيء، «بمقتضى في الأرض، إذن. وإنما «زبد» وكلام مكرن عن المؤامرة «الدولية»، على العرب والمسلمين. وعن الأمريكيين «الجرميين» ثم: «لا حظ لنا في هذا العالم التواطؤ...» هكذا قال أحدهم على شاشة فضائية شهيرة (١) «لا حظ لنا...» هكذا تخمنا المسألة... ثم استندنا إلى الطاولة «تألمب التردد»...

كما أننا لم نفعل أي شيء «التفعل»، قرار محكمة العدل الدولية بعدم شرعية «جدار العزل» العنصري الذي لم يتوقف الإسرائيليون، رغم القرار الدولي عن القضي في نيالته. من يتناقض عن المطالبة بحقه، لا يحق له أن يشكو. اليس كذلك؟ جري ماجري في غزة، ليل ثلاثة أشهر كاملة، ولم يكن هناك خلاف أبداً حول أن ماجري كان جريمة حرب بكل المقاييس. قال بذلك الجميع، حتى من الإسرائيليين أنفسهم (أرجوكم أرجوهم إلى مانتيتة أفي شلايم وجيمس كارتر ووثائق منظمة «بيتسليم» الإسرائيلية - «وجهات نظر» فبراير ٢٠٠٩).

لا خلاف إذن... ماذا بعد؟ لا شيء... لماذا؟ لأن الحق لا يأتي لمنصاه. والقاعدة، هكذا على طبق من ذهب، يومها سمعنا كلاماً كثيراً من سياسيين ومثقفين، ورجال حكم عن ضرورة تقديم الإسرائيليين للمطخة أيديهم بالدماء إلى «المحكمة الجنائية الدولية» ثم... لا شيء. وبدا المشهد كله هزلياً. الصارخون... والجانبسون أمام الكاميرات... والمطمئنون لضمومهم، المثقفون، بنوا كأن لم يقرأ أحدهم يوماً قانون المحكمة، ليعرفوا كيف لهم أصلاً اتخاذ هذه الخطوة. وما هي

لم تتم محاسبة الإسرائيليين على ما اقترفوه من جرائم حرب؟ ورغم أن السؤال جوهري ومهم ومطلوب، إلا أنني أخشى أن أقول أولاً أنه لا يمكن «القانونية» المطع به. لأن القاعدة القانونية - كما يعرف أهل الاختصاص - أنه «لا تروا وزارة وزير آخر» بمعنى أن جريمة في دارفور (إن كانت قد حدثت) ولنا هنا في موضع تحقيق أو إدانة لا يبررها قانوناً جريمة في غزة أو أي مكان آخر. كما أنني أخشى ثانية أن أقول أن علينا أن توجه السؤال لأفئدة كما توجهه لنا: لماذا لم تتم محاسبة الإسرائيليين؟ الإجابة شديدة البساطة: لأن أحد منا «جدياً» حاول تقديمهم للعدالة (١).

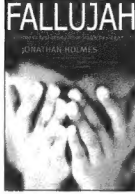
لم نفعل ذلك يوم اكتشف العالم كله بالآلة المؤقتة. ماجري في قانا (أسألو بطرس غالي). ولم نفعل ذلك يوم اعترفوا بأنفسهم بما فعلوه بالأمير المصريين في سيناء (أرجعوا إلى التصريحات الرسمية للخارجية المصري). ولم نفعل ذلك يوم أن شهد العالم كله على الهواء مباشرة قذائف الفوسفور تضيء سماء غزة، والطائرات تقصف المستشفيات وسيرات الإسعاف ومدارس «الأوروا» التابعة للأمم المتحدة.

لسلطته وسيطرته الفعليتين نتيجة لعدم ممارسة سيطرته على هؤلاء المروسين ممارسة سليمة. عن وعي أي معلومات تبين بوضوح أن مروسيه يرتكبون أو على وشك أن يرتكبوا هذه الجرائم. (ب) إذا تعلقت الجرائم بأنشطة

تندرج في إطار المسؤولية والسيطرة الفعليتين للرميل. (ج) إذا لم يتخذ الرئيس جميع التدابير اللازمة والمحمولة في حدود سلطته لمنع أو قمع ارتكاب هذه الجرائم أو لعرض المسألة على السلطات المختصة للتحقيق والمقاضاة.



أيما مكانات تفاصيل المواد القانونية، وأيما مكانات الأمر بشأن «حقيقة ماجري» في دارفور وحقيقة الذين يتحملون المسؤولية عن وصول الأمور إلى ماوصلت إليه، فإن سؤال «ازواجية المعايير» كان مطروحاً دائماً في خطاب رد الفضل العربي، تساوت في ذلك تصريحات رسمية، مع مظاهرات الشارع. وكان السؤال (لدى رفضه الجميع لأية يصرخون حولها، مكتفين بها، هو: «ماذا



عيان عاشوا هذه الحرب ومستعدون لتقديم شهاداتهم بدون خوف. من أبرز هؤلاء الشهود جندي المارينز السابق جيف ايكهارت، في فيلم فتاة راي، يسأل ايكهارت عما سيخبر أولاده عن حرب الفلوجة التي شارك فيها، فيجيب: «إنها تمثل القتل الجماعي للعرب».

في العام الماضي، ظهر كتابان جديدان عن حرب الفلوجة. الكتابان يتخذان من شهادات شهد العيان أساسا لهما. الأول هو فلوجة - شهادات من مدينة العراق المحاصرة، وقام بكتابته الكاتب والمخرج والأكاديمي البريطاني جوناثان هولز. أما الكتاب الثاني فهو معركة الفلوجة - هزيمة أمريكا في العراق، من تأليف مديح فتاة الجيزة أحمد منصور. بينما قام هولز بجمع شهادات عن معركة الفلوجة وتحويلها إلى مسرحية واقعية في الجزء الثاني من كتابه، قام منصور بسرد تجربته الشخصية على رأس الطاقم التلفزيوني الوحيد المتواجد داخل الفلوجة خلال حصارها الأول في أبريل ٢٠٠٤.

لماذا الفلوجة؟

يجيب الكتابان في مقدمتهما عن السؤال الأهم: لماذا الفلوجة؟ كل من شهد هذه الحرب لا يستطيع وصف ما حدث بها سوى أنه عقاب جماعي لأهل الفلوجة. يكتب منصور: «وقد اعترف جنرال ناتونسكي قائد قوات المارينز بأنه حصل على الضوء الأخضر من بوش ورامسفيلد لتدمير الفلوجة على رؤوس من فيها»، وقال في تصريحات نشرت في ١٦ نوفمبر، أي بعد أسبوع من بداية عملية تدمير وحرق المدينة: «حصلنا على الضوء الأخضر للمرة الأولى لنقوم بعمل حتى النهاية بأكثر قدر ممكن من النيران وفي أسرع وقت ممكن بعيدا عن أنظار العالم».

إذن قامت معركة نوفمبر ٢٠٠٤ للانتقام من أهل الفلوجة بعد هزيمة معركة أبريل، حينما فشلت القوات الأمريكية في السيطرة على المدينة بالرغم من قتلها لثلاث المئتين وتدميرها للبنى التحتية والمستشفيات. أما معركة أبريل فقد شنت للانتقام من أهل الفلوجة بعد أن قتلت المقاومة بالمدينة أربعة افراد من المرتزقة العاملين بشركة بلاك ووتر ويعد تدمير أطفال المدينة

يجيب الكتابان في مقدمتهما عن السؤال الأهم: لماذا الفلوجة؟

حدث في الفلوجة

من قال الجسري

قبل خمسة أعوام كاملة، وبالتحديد في مثل هذا الشهر (أبريل / نيسان) فاجأت «الفلوجة» العراقية العالم كله، والعسكرية الأمريكية خصوصا، بمعركتها الأولى حينما فشلت القوات الأمريكية عالية المستوى في السيطرة على المدينة الصغيرة، التي أبدت مقاومة لأبد أن يذكروها التاريخ. بعد أشهر من المعركة الأمريكية الخاسرة، وبالتحديد في نوفمبر من العام نفسه، ذهبت قوات المارينز للانتقام. وكانت مذبحه مروعة. اليوم، والعالم كله، بمناسبة دارفور يتحدث عن القانون الدولي الإنساني، نتذكر «الفلوجة» ونعزف هنا لكثب وتقارير وشهادات ووثائق. وننشر مقالا لانتوني لويس (الكاتب الأمريكي) يذكرنا فيه أيضا بما جرى في «جوانتاتامو» معتبرا أنه «تبرئة للضمير الأمريكي» ينبغي تقديم بوش، ورامسفيلد للعدالة.

المصدر

■ في يناير الماضي، استطاع الصحفي بيتر كوكبرن، مراسل جريدة الاندبندنت البريطانية، أن يقوم بزيارة أخيرة لمدينة الفلوجة. وفي مقاله الذي نشر بتاريخ ٢٨ يناير كتب: «إن دخول مدينة الفلوجة أصعب من دخول أي مدينة أخرى في العالم».

الهدف من وراء الصعوبات ليس منع الناس من دخول المدينة فحسب، ولكن أيضا منع حقيقة الانتهاكات التي قام بها الجيش الأمريكي خلال معركتي الفلوجة (أبريل ونوفمبر ٢٠٠٤) من الوصول إلى العالم الخارجي.

ليس أدل على ذلك مما قالتها الصحفية الإيطالية جوليانا سجانا، «لا يمكن أن يكون هناك شهود على هذه الحرب لأنها حرب مبنية على الأكاذيب». سجانا كانت أحد الشهود الذين استعان بهم المخرجان سيجفريدو والتوتشي وموريتزيو توريالتا في فيلمهما: فلوجة - المدينة المخفية، والذي عرض على قناة راي في نوفمبر ٢٠٠٥.

وتضيف سجانا، التي منعتها خافقون من نشر ما رآته في الفلوجة: «لقد سمح الأمريكيون للصحفيين المرزوعين فقط بتغطية هذه الحرب». ولكن بالرغم من أن العالم الغربي لم ير حرب الفلوجة سوى من خلال فتحة صغيرة في جانب الدبابات الأمريكية، يظهر مع مرور الوقت شهود

Fallujah
Eyewitness Testimony from Iraq's
Besieged city

فلوجة
شهادات شهود عيان من مدينة العراق
المحاصرة

جوناثان هولز (مع مقال موسع لسببلا
الووري المرشحة لجائزة نوبل للسلام)
Constable, 2007, 218 pp. (English
pound) 7.99

معركة الفلوجة
هزيمة أمريكا في العراق
الكاتب: أحمد منصور
الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ١١٥ صفحة

Fallujah: The Hidden Massacre
Duration: 27 minutes
Directed by Sigfrido Ranucci and
Mauizio Torcalta
Produced by the Rai Channel
Aired Nov. 8, 2005

كل من شهد هذه الحرب لا يستطيع وصف ما حدث بها سوى أنه عقاب جماعي لأهل القلوجة



كما حكى له أحد الأطباء عما حدث لعائلة من اثني عشر فرداً صفت ما به العدو الأمريكي من ضرورة إخلاء المدينة، وأن كل من سيتوجه للمعبر حاملًا الأعلام البيضاء سيسمح له بالرحيل، وعندما وصلت العائلة للمعبر، سمعوا من يصيح NOW وعندما بدأ إطلاق النار، كان كل أفراد العائلة ممسكين بالأعلام البيضاء، أحد أصفر أفراده، والذي عاش ليحكي ما حدث، شاهد الرصاصات تخترق جسد أبيه وأمه، ثم سمعته، ثم أخيه، عندما سقط الشاب، حاول أن يرفع جسده ليطلب النجدة، فأطلقت عليه البرناب مصيبة جنية، عندما حاول أن يرفع ذراعه، أطلقوا النار عليها، عندما حاول أن يرفع يده أطلقوا النار على يده، كان هناك طفل في السادسة من عمره يبكي نازلاً لجنتي والديه، فأطلقوا النار عليه أيضاً، كانوا يعلقون النار على كل ما كان يتحرك.

منع السكان من الرحيل، كما قطعت جميع الإمدادات، كان الضحايا من أبرز سمات المعركة، مما منع الأهالي من الخروج لطلب موثاقهم، يحكى جميل عن القطط والكلاب التي كانت تتدفق على جثث سكان القلوجة.

كان لا بد لقوات أمريكية من الجو إلى عمليات التدمير بعد نهاية المعركة لتحسين الوضع في بلاد العالم، يتذكر جميل ما حكا له صديقه عما حدث مع قناة CNN التي وجهتها القوات لتصوير الكناسين وهم ينشطون ويجعلون شوارع القلوجة الهائلة، بينما يقوم الجنود الأمريكيون بتوزيع الحلوى على الأطفال.

ولكن ما أبعد هذه المناظر عن الحقيقة، في ٢٨ أبريل ٢٠٠٥، يكتب جميل لـ Democracy Now: إن مدينتي القلوجة التي كانت رمزاً في العراق في الشرق الأوسط المقاومة الاحتلال الأمريكي أصبح ٧٠ بالمائة منها مدمراً، المدينة تحيا بلا ماء ولا كهرباء، السكان الذين يودون العودة يجب أن يخضعوا لمسح شبكية العين، وتقديم بصمات أصابعهم الممتدة، بعد التأكد من صحتها، يتسلمون بطاقات هوية، السكان الذين يعيشون داخل المدينة يطلقون عليها اسم السجن الكبير، إنه وضع شنيع، ترتب عليه مئات الآلاف من اللاجئين، كان الهدف من حصار القلوجة القبض على الزرقاوي وإعادة الاستقرار

المحاولة قائلة: «أخذونا لأننا اجانب ولأننا كنا نتصرف بشكل غريب في وسط حريمهم، ولكن عندما علموا بما فعله أطلقوا سراحنا. في طريق العودة استطعنا أن نفتح الحواجز وتمكن البعض من الخروج من القلوجة، لو كان هذا كل ما فعلناه فهو أمر جيد، ولكنني في لحظات الهذو، أهملنا الشكر للملكة الأنثى الذين يمتنون بالمجربين ومتعلمي الإسعاف».

شاهد جميل شاهد آخر من شهود عيان القلوجة، ولكنه شاهد رسمي، فهو صحفي كندي مستقل، في كتابه يجمع هولز بعض ما كتبه جميل على موقعه www.dahrjanaliraq.com مستمراً كتابات جميل مبنية على شهادات مباشرة أسريها أهالي القلوجة للصحة، فهو يكتب في يوم ١٤ مايو: عندما علم أحد الجنان أنني صحفي، خرج ليحكي لي حكاية قطعة أخرى، كان له أخ اسمه حسين محمد جرجي في الثالثة والأربعين من عمره ومصاب بإعاقة عقلية، خرج حسين من بيته في نفس اليوم الذي قبله الهزقة، أصيب حكاية ومصاباً بملتين بالدموع، أصيب أخى بقلعة وهرع إلى داخل المنزل، لحوا به إلى الداخل، وقطعوا قدميه سيكين كبير، ثم أودوه برصاصات في رأسه، بعد أن مروا إلى خارج وتجزوا في الزنار البت، رحلوا، هذه هي الطريقة التي تصرفوا بها في كل أنحاء القلوجة، لقد فدنا فدس أخى مع جثمانه».

من أهم ما يرويه جميل أخبار عمليات التفجئة على أحداث المعركة الثانية، فيشرح كيف قامت القوات الأمريكية بإزالة أطنان من حطام المنازل المدمرة، يحكى أحد مصادر جميل أنه في بعض المواقع التي تعرضت للقتل بأرض غربية مشعة قامت القوات الأمريكية برفع التربة عن مساحات شاسعة تصل إلى ٢٠٠ متر مربع في كل مرة.

تحكى مصادره أيضاً عن سيارات رش غسالت المدينة لحو آثار الخلفيات الكيميائية، يقول أبو صباح لجسم: «استخدم الأمريكيون قنابل غربية مشعة دخلنا فيها نعيش عيش الغرباء، ترسل قطعاً صغيرة في الهواء لها ليويل قوتلنا من بعيد»، وصف أبو صباح أن قوتلنا من هذه القنابل كانت تضيح حرارة جلد البشر حتى عندما حاولوا إطفاءها بالياه، يعقب جميل أن هذا هو تأثير الفوسفور الأبيض والتألم.

مدونتيه الإلكترونيين www.wildfirejo.blogspot.com كانت وايلدينج متواجدة في العراق أثناء معركة القلوجة الأولى كجزء من مشروع سيرك - الذي أسس لإيصال (Circus2Iraq) الذي أسس لإيصال القوات الإنسانية إلى المناطق الثانية من العراق، تكتب وايلدينج في مدونتها بتاريخ ١٣ أبريل: «أنا في الباص لأن أحد الصحفيين قد بابي الأس في الساعة الحادية عشرة مساء ليخبرني أن الأحوال بالقلوجة في غاية السوء. كان (الصحفي) يساعد في حمل أطفال فقدا أطرارهم. كان الجنود يخبرون الناس أن عليهم ترك المدينة قبل الغدما حتى لا يتعرضوا للقتل، ولكن عندما حاول الناس الهرب بمناظيرهم القليل كانت القوات تمنعهم من الرحيل».

في صفحة أخرى من مدونتها تناول وايلدينج أن نشر لانا قررت الذهاب إلى القلوجة: «سأعطيكم من معرفة كل تفاصيل عملية اتخاذ القرار، وكل الأسئلة التي تسألها أنفسنا ولبعيننا البعض، أنا أتمن فاعلموني عن اتهامات الجنود، في نهاية الأمر السؤال التالي هو: لو لم أذهب أنا فمن سيذهب؟»

ذهبت وايلدينج إلى القلوجة خلال الأيام الأخيرة من الحاسمة من المعركة الأولى، وكانت من أهم مهامها ملازمة سيارات الإسعاف، تطلق الناشطة على نفسها لقب الباسيون فشرها الأشقر وملاحها الأوروبية كانا بمثابة جواز سفر لسيارة الإسعاف التي كانت تراقها عبر الحواجز الأمريكية، بالرغم من ذلك كانت سياراتهم تعرض لإطلاق إطلاقات النار. تقول وايلدينج بعد إحدى هذه المحاولات، «أشعر بالغبطة الشديد، نحن نحاول الوصول لقلبنا نحاول الآم الخواص بمقرها ويدون رعاية طبية، بدون كهرباء، في مدينة تحت الحصار وفي عربة إسعاف وأنتم تطلقون علينا النيران. كيف تجرون على ذلك؟ كيف تجرون؟»

وجود أفراد مثل هذه الناشطة في وسط الحروب يثبت أن الخير أو الشر ليس جزءاً من منطقة جغرافية بعينها. وحتى المقاومة في القلوجة استطاعت أن تميز بين الأصلاء والأعداء، بعكس القوات الأمريكية التي تقتل بدون تمييز. في خلال تواجدها في القلوجة، تعرضت الناشطة وأصدقائها لاختلافات عديدة في أفراد من المقاومة، تصف وايلدينج هذه

بجث هؤلاء المرتزقة أمام شاشات التليفزيون، يكتب منصور قنلا عن مسئول أمريكي، «نحتاج للحصول على نتائج، إذا سمح لهذا الحادث أن يمر دون عقاب أو بدون تحقيق فيه، وإذا تم قبوله نعمنا للتعامل مع القلوجة، فإن هذا سيكون علامة سيئة».

كان الالتحاق في المركبتين وحشياً، في الفيلم الوثائقي ترى صوراً بالآفصار الصناعية للعديد بعد معركة نوفمبر، الصور تبين مدينة محروقة بالكامل، المدينة المقاومة كانت لا بد أن تضحى من الوجود، وكان لا بد كذلك أن يضحى أي أثر لما حدث فيها، تحدث الصحفية بالوا جاسبارولي مع دكتور للصحة النفسية مارك مانغ، الذي استطاع أن يمسح بعض أحداث القلوجة قبل سفره إلى الولايات المتحدة - خلال إقامته بأحد الضاد عاد مانغ إلى غرفته ليجد أن شرائط القلوجة قد سرفت، أما باقي أشياءه (وحتى تسجيلاته في مناطق أخرى من العراق) فكانت لا تزال موجودة.

لم يكن من المفترض أن تصل للغرب أية معلومات عن حرق المدنيين بالفوسفور الأبيض، ولا عن استخدام النابالم الجديد (مارك ٧٧)، ولا عن قتل المرضى والمصابين والجنود المحتجزين بالمساجد، ولكن لا بد للتحقيق أن تظهر، وها هي سيللا الوريث المرشحة لجائزة نوبل للسلام تكتب: «في تقريره إلى سكرتير عام الأمم المتحدة، سجل مركز دراسات حقوق الإنسان والديمقراطية (Schrd) أن القوات (الأمريكية) قامت بتكبد إلقاءهم وضربهم بالأكاديمية، لقد تم القبض على المرضى ومنع العلاج عنهم، إحدى سياسات القلوجة الوحيدة التي قد قصفت، وتم تدمير كل ما فيها من أدوية ومعدات».

شهود العيان

من أكثر الشهادات حيوية في كتاب هولز هي شهادة البريطانية جو وايلدينج، إحدى ناشطات حقوق الإنسان والمحاميات الكاتبة في العراق، في عام ٢٠٠١ قامت وايلدينج بكسر الحصار المفروض على العراق كي تقدم للمحاكمة وتمكن من تسلط الضوء على ممارسات بلدها العراقية للعراق، تكتب وايلدينج عن مشاهدتها في

الانحياز إلى دينه وثقافته فليأتوا ليتحدثوا معنا من هنا، هؤلاء أيضا يكتبون عن التفاسير والانزواجية الأمريكية، وهو أيضا لا يهتم إن وصف بعدم الموضوعية، استطاع الكاتب أن يثبت من خلال الشهادات التي جمعها أن الحصار الأمريكي للفلوجة خرق سبعين مادة منفصلة من مواد اتفاقيات جنيف، من أولى هذه المواد الخاصة بالتعامل مع المصابين، حيث يدرج هؤلاء شهادات لجنود مارينز يتحدثون عن طريقة double tapping مسافة قريبة أو كما يسمونها point blank، يخلص هولز إلى أن ممارسات أمريكا في العراق، وبالأخص في الفلوجة، تستدعي تقديم جنرالاتها ورئيسها لحكمة مجرمي الحرب.

من قطع الممارسات التي يلقيها الكتاب الضوء عليها هي استخدام الأسلحة الكيميائية وتحديدًا الفوسفور الأبيض والنايالم، كتب الصحفي المنقول بين كتابين عن الاستراتيجيات الأمريكية في حجب معلومات عن استخدام الأسلحة الكيميائية، فأشار إلى أن الباحثون لم يجد يستخدم النايالم رسميًا، ولكنه يستخدم مادة أخرى شبيهة - مادة لزرع قنبلة للاستطلاع وموجودة في قنابل مارك ١٣٠ - منعت الأمم المتحدة استخدام النايالم عام ١٩٨٠ ولكن الولايات المتحدة لم توقع هذه المعاهدة، أما جورج مونيوه الأمريكي بجمهورية الجارديان البريطانية فيصف به خلال عمله الصحفي أن اكتشافه عن تأثير الفوسفور الأبيض على الضحايا، «الحرق عادة ما تكون متعمدة، عميقة، ومختلفة الأبعاد، لو أصابت العين تكون النتيجة بالغة السوء، تستمر الجرزات في الغزى التي يمنع عنها الأوكسجين»، في الفيلم الوثائقي الإيطالي عن الفلوجة، نرى صورة لجثث محترقة بالكامل، الوجوه تبدو مندابة ولكن لا توجد أي آثار للحريق على ملابس القتلى، الجثث متفحكة بشكل غريب، ففي بعض الحالات انفصل الجلد عن اللحم، أحد أشهر صور هذا الفيلم تلك الصورة لجنّة متفحكة لامرأة ما زالت ممسكة بسبعيتها، الصور صادمة ومؤلمة، وكذلك التقرير المسجل في العالم بصيغة الغزى والشرقي لما حدث في الفلوجة ١٣٣

في ذلك اليوم، بثت الجزيرة خبرا عاجلا من الصباح الباكر مفاده أن الإدارة الأمريكية طالبت بخروج فريق الجزيرة من مدينة الفلوجة كشرط أساسي لقرار وقف إطلاق النار الذي أعلنه الحاكم الأمريكي بول بريمر. كانت الجزيرة ثابتة طوال ذلك اليوم صبورًا للشاحات التي تحمل الامدادات للقوات الأمريكية وهي احترق على طول طريق أبو غريب. احتلوا.

يكتب منصور عن إحدى مكالمة في تلك الأثناء مع رئيس غرفة الأخبار أحمد الشيخ الذي قال له: «إن ظهورك على شاشة الجزيرة أصبح مستعزًا للقوات الأمريكية يا أحمد بشكل كبير، وأنت المستهدف من وراء كل الضغوط التي يقومون بها، وقد تحدث كيمييت عنك تحديدًا، لذا أرجو أن تتوقف قليلًا من عمل التقارير والمشاركة في نشرات الأخبار».

في حوار مع محمد كريشان، كان القائل كيمييت قد اتهم منصور بنشر أكاذيب، يصف منصور هذه المواجهات بأنها حرب كانت دائرة بينه وبين كيمييت دون أن يعلم، «معرفة كل السلاح ولكن على شاشات التلفاز هو يدعى ما يريد وأنا أخرج بالصور والحقائق الداعمة المنافية لكل تصريحاته»، أحس منصور بأنه قد أصبح جزءًا من المقاومة عن طريق عمله الصحفي، لأنه فهو لا يهتم كثيرًا عندما يوصف بذلك فهو غير محايد، فالحياد كما يصفه منصور وهم كبير، «أنا متحاذ دائما إلى يميني وعرويتي وثقافتي وموطني، لن أتخطئ عنها في أي موقف مهما كانت الاتهامات التي توجه لي، ونحننا يتخطى الصحفي الأمريكي أو البريطاني أو الألماني أو الياباني أو الروسي عن

شعنا هجومًا شديداً على القوات الأمريكية التي تغلق طرق التعمية، ويعد معركة طاحنة مع القوات الأمريكية نجح رجال المقاومة في تدمير الموقع وأصيب عدد كبير من الجنود وقد جاءت الطائرات المروحية فأجلبت القتلى والجرحى وهرب باقي الجنود وأصبح الموقع خالياً والشران تشتعل فيه. ويضيف: «أثارت الصور حينما فلما يبتها ردود فعل واسعة، فقد كانت تأكيداً على أن وضع القوات الأمريكية يسوء حول المدينة رغم إحصاءها، وقد جن جنون الأمريكيين فأصبحوا يقصفون بشكل عشوائي في كل اتجاه، بعد هذه الواقعة قامت طائرة أمريكية تقصف بيت في حي الجولان بالفلوجة، مما أدى إلى مقتل أكثر من عشرين مدنياً معظمهم من النساء والأطفال».

سرعان ما تحول طاقم الجزيرة إلى هدف للقنصاء، فقد أصبح أفراد الطاقم شخصيات غير مرغوب فيها من قبل قوات الاحتلال، في يوم السابع من أبريل تمركزت القوات الأمريكية في المبني المقابل لقرطام الجزيرة، ولكن في يوم التاسع من أبريل أصغر منصور على ذلك الحصار كي يشارك في التغطية الحية بمناسبة الذكرى الأولى لاحتلال العراق. في ذلك اليوم توجه إلى التعمية، «ما إن وصلنا للتعمية حتى بدا المنظر وكأنه يوم الحشر، آلاف مؤلفة من الناس في موجة تزوج جماعي من المدينة هربا من الموت وجحيم الحصار، ويضيف منصور: «لقد كان يوم الجحيم، أسمع أحد الداعين من أكثر الأيام مصوية وأنا في حياة أطفال الفلوجة، لقد كنت أبكي من هول ما رأيته، وما كنت أريد أن أسمع أحد مصوتي، لم أحتمل المشهد الذي كان مؤلماً، لا سيما الأطفال وأضلاعهم الممزقة».

لليلاذ استعدادا للانتخابات، ولكن النتيجة الحقيقية هي أن المدينة أصبحت مرفقة، أما المقاومة فقد انتشرت في جميع أنحاء البلاد، ما حدث لا يمكن أن يوصف بكلمات أقل من تلك التي استل بها هولز كتابه، مأخوذة عن لسان أحد وجهاء الفلوجة، الفلوجة أصبحت العراق، والعراق هو الآن الفلوجة.

تجربة قنّة الجزيرة

في المعركة الأولى

ينذب بعض المحللين إلى أن تواجد طاقم فريق الجزيرة وعلى رأسهم المنيع أحمد منصور داخل الفلوجة أثناء المعركة الأولى (أبريل ٢٠٠٤) كان من أحد عناصر فشل القوات الأمريكية في إخضاع المدينة. فقد أرادت القوات الأمريكية أن تظهر جانباً واحداً من هذه الحرب من خلال صحفيتها المزروعة مع الجنود، ولكن وجود ممثلي قناة ذات اتجاهات عربية قوية داخل المدينة ضرب بهذا الهدف عرض الحائط. تحدث قناة الجزيرة أثناء المعركة الأولى إلى المصدر المرئي الوحيد للجرائم التي كانت ترتكب داخل المدينة المحاصرة. في كتابه معركة الفلوجة - هزيمة أمريكا في العراق، يكتب منصور عن هذه التجربة التي جعلت منه هدفاً للقوات الأمريكية، والتي أدت فيما بعد إلى إغلاق مكتب الجزيرة في بغداد على يد حكومة إباد علاوي.

توجه منصور وطاقم الجزيرة إلى الفلوجة يوم الخامس من أبريل ليحصدوا مداخل المدينة مفلقة، ولكنهم تمكنوا من دخول المدينة بمساعدة أحد السكان بسلك طريق قديم كان يستخدم للتهرب في الماضي. سرعان ما أعلنت القنّة هذا الخبر، يقول منصور: «وقد علمت بعد ذلك أن هذا الإعلان عن قدرتنا على اختراق الحصار ودخول المدينة كان ضربة قاصمة للقوات الأمريكية».

من أبرز ما استطاع منصور بثه للعالم هو وحشية القوات الأمريكية في ضرب المدنيين وتدمير القدرات الطبية للمدنيين، كما استطاع كذلك أن يوصل للعالم أخبار الانتصارات التي كانت تحققها المقاومة. يكتب منصور: «أخبرنا بعض أهل الفلوجة أن رجال المقاومة

استطاع الكاتب أن يثبت
من خلال الشهادات التي
جمعها أن الحصار الأمريكي للفلوجة خرق
سبعين مادة منفصلة من مواد
اتفاقيات جنيف

لا يراف القاتل بقراهه وهو يصف خلفيات أفراد مشاة البحرية. إنه موضوع حساس ولكنه مهم،



[٢]

ومهارات لغوية معدومة. بحق بهم اناس يضمون أكثرهم في الكراهية ويعيشون في خيف يومي من التجهيزات، لذا يسقطون إحتباطهم على السكان المحليين من أن لا آخر. إن القارئ يتمكن من خلال هذه الروايات المباشرة أن يجد تصويراً قاسياً لضريبة حرب دفعتها كل من القوات الأمريكية والشعب العراقي.

لم تبدأ تلك الضريبة بأعمال العنف الرحيمية التي اندلعت بعد سقوط بغداد لكن خلال الغزو نفسه. ثمة كتابان يصفان تلك العملية بجلالة ما بعده جلاء، وعلى مسافة رصاصة واحدة، صنع ضابط رصاصة البحرية الأمريكية، بقلم ناثنان فيك وباتل جيل، بقلم إيمان رايت. وكما أوردت وسائل الإعلام وفهم أغلبية الأمريكيين، جرت عملية تحرير العراق بسلامة مقبولة، لا شك في وقوع بعض الصوتيات والعقبات لكن في آخر الأمر كان الدمار محدوداً وتجنب الجنود تفشي الإصابات المحلية. إلا أن هذين الكتابين يسمران قصة مختلفة كل الاختلاف.

التحق ناثنان فيك بقوات مشاة البحرية في فترة من المثالية. كان فيك طالباً بمدرسة كاثوليكية بصواحي مدينة بالتيمور. كان يدرس الآداب الكلاسيكية في دارتوت حين عقد الرافع على الالتحاق بـ مشاة البحرية. ساقته رغبة في خدمة بلاده وإشبات كيانته، انضم أغلب من التائبين نفس تلك المشاعر من الطلبة إلى فريق السلام أو منظمة درس من أجل أمريكا، بيد أن قراءاته حول ألتا وإسبرطة أشعلت في نفسه الإلهام فرام تحدياً أعظم - تحدياً - يقبله أو يخلفه أفضل وأقوى على حد تعبيره.

سمع في إحدى الليالي حديثاً لتوماس ريكس Thomas Ricks الذي كان وقتئذ مراسلاً لحرية في دال ولوس أنجلوس. كان ريكس قد نشر لثو كتاب صنع مشاة البحرية، وهو تصوير لا يخلو من تائق لثاة البحرية الأمريكية، وفي حديثه وصف قوات المشاة باعتبارها حارساً من معال الشرف في أمريكا. أوقع الكلام في نفس فيك اندهاراً. ويوجد أن انضم إلى قوات البحرية، ورغب في أن يقدم في سلاح المشاة، سلاح، لا تزال الشجاعة فيه لها قيمتها. وعندما بدأ ملاماً، تم إرساله إلى أفغانستان حيث خدم خطوط العدو ثم تم تعيينه في فرقة الاستطلاع. الحاصل البحري لتقوات الأمريكية والقوى وحدة هي



بصراحة عن الجوانب الحساسة من الحياة العسكرية كالغلة الوضعية التي يطبق بها الجنود. يتشكك ذلك على الصحفيين الإحاطة بما يدور في عقول الجنود. لقد حاز المراسلون من خلال تعيينهم مرافقة الوحدات العسكرية حرية الوصول الفوري إلى القوات بيد أن الإلزام بمشاعر الجنود الضميلة أكثر مشقة بكثير، علاوة على أن من يتكلم بحرية زائدة من الملاحم من الجنود يقع تحت وطأة القوانين الموحدة للعدالة العسكرية.

في النهاية يضع المناخ السياسي عدة حدود لعمل وسائل الإعلام في إطارها. فاقصور الضميلة الواقعية أو تلك الزمجة قد تسبب احتياجاً بين الجماهير. فحينما مثلاً، نشرت جريدة ذا نيويورك تايمز في يناير ٢٠٠٧ صورة جندي أمريكي يرفقه على الأرض جريحاً جرحاً مميتاً، أتهم الضاحضون الجريدة بعدم احترام القوات، ووجهوا أصم، يظل سلوك الجنود الأمريكيين في الميدان موضوعاً في منتشي الحساسية. إن الحياة الإخبارية التي تظهر الجنود في الصورة تخلق تآخراً بأن لتتسبب بها تهم معاداة أمريكا وعدم الوطنية أو - وهو الأسوأ - معادية القوات العامة، ففي يوليو على سبيل المثال حين نشرت مجلة ذا نيوز ريبابليك صورة جندي أمريكي في عدة حوادث تكشف النقاب عن سلوك الجنود الأمريكيين السيئ، لم يفتأ المدونون المحافظون يهاجمون الجنود الأمريكيين والجملة بضراوة. لا رغبة لعظم الأمريكيين في الوقوف على الكثير من تصرفات يقوم بها الجنود وهم يحملون أسامعهم، الأمر الذي يروع الحريين والمختلجين دوماً.

أما الكتب فأقل عرضة لنقد تلك الضغوط، وعليه يسهل أن تسد مزيداً من الانتقادات. لا تنسم صورها بالكأبة الشاملة. لا تصور العديد من المشاهد المؤثرة، يندو بعض الجنود وهم يحاولون فعل الخير كتقديم الإسعافات الأولية وتوزيع الأطعمة وترتيب التخلص من النفايات. وفي الألبم يلوح الجنود باعتبارهم أمريكيين طيبين يجنبون أنفسهم في بيئة غريبة بتدريب يقدم الكفاية وأقل القليل من الاعتماد الذاتي

على المأزق في صيف ٢٠٠٣. إذ كان رجاله يكسرون الأبواب ويقتيدون كل رجل تقع أعينهم عليه. يلقبون الحجارات رأساً على عقب بحثاً عن أسلحة قلما وجدها. يكتب ريكوف ليقول: «كانت تلك الغارات عملية قذرة، وكل من استمع بها فهو مريض. أحياناً ما ران علي إحساس بأنني عضو في قوات «القصص البنية، بالألمانيا النازية». وكما اكتشف ريكوف بعدها، ذاب بعض رجاله على سرقة ما يجودونه من نقد. خلال تلك الغارات - عادة لم تكن بالنادرة حسبما ذكرت روايات أخرى.

وفي كتاب أحب بنديتي أكثر منك، ثابة وأثني في جيش الولايات المتحدة، تروي كيبلا ويليامز - سايض في الاستخبارات العسكرية - تحدثت اللغة العربية - أضافت جلسة استجواب بالوصول في خريف ٢٠٠٣. ميثم تزعم الجنود الأمريكيون ملابس سجين في قصص ثم رموه بسخريراتهم. «خزوا من رجولته، خزوا من قوته الجنسية، خزوا من حجم أعضائه التناسلية، نفخ الجنود رمد سجالر مشتملة على السجين وسفهموه على وجهه. ندى إلى علم ويليامز بعبدل أن سجيناً طارق الحياة في نفس القصص الذي زارته.

من الممكن أن تتصاف تلك الحكايات عدة مرات. فقد صدرت من كتب متعددة كتبها جنود أدوا الخدمة العسكرية في حرب العراق. لم يحدث من قبل أن ظهر مثل ذلك العدد من الكتب بقلم جنود فيما لا يزال القتال مستمراً - روايت لم يكتف الجنود من أمثال توماس فيرانكس يسرد بها بل أيضاً ملازمون ورفاء وضباط احتياط وجنود. تجاهلت وسائل الإعلام أغلب تلك الكتابات ما يدعو إلى الأسف، فهي تزود القارئ بوجهة نظر جنود يحتلون الرتب المتدنية: وجهة نظر تكون في الغالب براء وصنع يقيق ما هو متاح في صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون.

وبرغم ما يبذله مراسلو العراق من سبر وتقص عتيف تخضع أخبارهم لكثير من التصفية، ثمة، على سبيل المثال، ما عير المشاهدات العائلية التي تجعل من العسيري على الصحفيين الحديث

■ يسرد رفيق أول يفيد بيلافيا - مؤيد متحمس لحرب العراق - في كتابه من منزل إلى منزل: مذكرات سلمجية من الحرب أن ضميمته كانت تقوم بمهامها أثناء دوريتها الثانية في العراق عام ٢٠٠٤ عندما حاولت شاحنة مدنية تحمل حبوب، الانضمام إلى طابور عربياتنا المصححة إلا أن العربيات استطعت بها ونهستها. هزمت العربات الركاب بلا سبيل إلى التعرف عليهم. أبصرنا أول مشاهد الموت في صورة رجل وزوجته تسرقت أوصالهما وتعلمت فيما تناثر أعضاؤهما على صناديق متفرقة من علب الحلوى. وجونا أكثر فأكثر، سرقت في النهاية بضغض من واحدة من قطع الحلوى المضطربة. مسح آخرون الدماء المتخشرة والوقود عن اللقطة الحلوى وشاكوتي الأكل.

ليس ثمة ما بلغت النظر إلى تلك الحادثة غير توقف الضميلة. فقد بلغني من روايات عديدة كنانة في من حرب العراق أن أية قافلة أمريكية تنهض سيارة، لا يند عنها في المعتاد سوى مواصله المسير. وفي كتاب مطاردة الأشباح يصف بول ريكوف، خريج من خريجي كلية أميرست قاد ضميلة من قوات الحرس القومي في العراق، كيف كانوا يشنون غارات روتينية

على مسافة رصاصة واحدة؛ صنع ضابط مشاة البحرية الأمريكية One Bullet Away: The Making of a Marine Officer

بقلم ناثنان فيك
Nathaniel Fick
Mariner, 372 pp., \$14.95

قتل جبل: كلاب شياطين وقاتل ماجور وكابتن أمريكا والوجه الجديد للحرب الأمريكية

Generation Kill: Devil Dogs, Iceman, Captain America, and the New Face of American War

بقلم: إيمان رايت

Evan Wright
Berkley Caliber, 354 pp., \$14.00

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

مايكسلاستينج

على مسافة رصاصة واحدة!

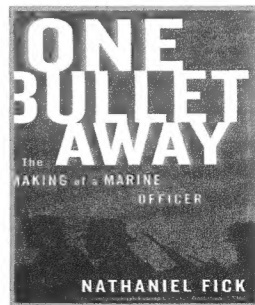
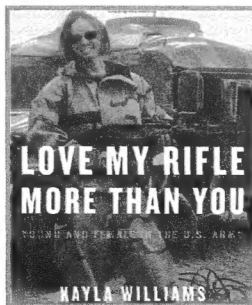
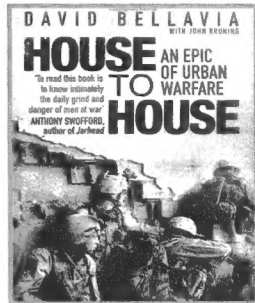
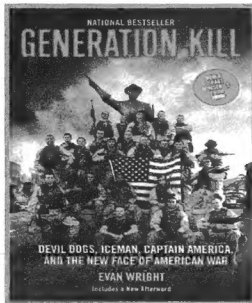
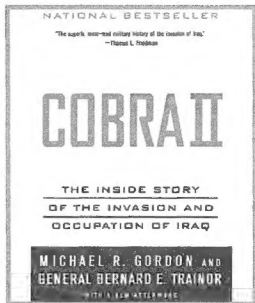
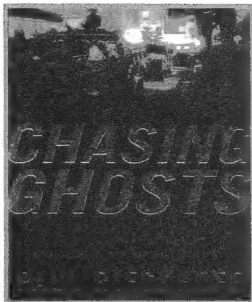
مشاة البحرية. فرغ فيك من تدريب أشد ما يكون وحشية ثم نهض بمسؤولية فضيلة تتألف من ثلاثة وعشرين رجلاً. وفي الأيام الأولى من فبراير ٢٠٠٣ طار إلى الكويت بصحبة بقية فضيلة الاستطلاع الأولى في انتصار نشوب الحرب.

وفي يوم من الأيام وصلت إلى المعسكر خافضة تحمل دسنتين من الصحفيين، ومن بينهم كان إيفان رايت، مراسل مجلة رولينج ستون. لم يخل فيك من احتقار عام تكتنه مشاة البحرية للمراسلين، لكن بعد لقائه برأيت ألقاه عذب الحديث متواضع السلوك. ولقد وجد انبهاراً حين علم أن رايت درس تاريخ الشرون الوسطى في كلية فاسار. وعندما ألقاه رايت بأنه يقيم في خيمة ضباط من ذوي الرتب العالية، أخبره فيك بأنه ارتكب خطأ كبيراً: لو ود بحق معرفة ما يجري، عليه أن يقضي وقتاً مع الشبان الذين يحاربون من أجل لقمة العيش. كانت الفصلية قد خلطت في البداية أن يرافقه رايت الجنود المساعدين بمؤخرة الجيش إلا أن رايت - وقد خلف ذكاء فيك وحماسه في نفسه انطباعاً قوياً - طلب الالتحاق بفضيلته. وبعد أن وافق على تسليم هائله العامل بالأقمار الصناعية وقطع كل اتصالاته بالعالم الخارجي، قال مراده، اتفق رايت في المجمل شهريين بصحبة فضيلة فيك. وعقب عودته إلى الولايات المتحدة، وصف تجاربه في ثلاثة مقالات طويلة نشرتها مجلة رولينج ستون ثم حوّل رايت تلك المقالات إلى كتاب. إن روايته بالإضافة إلى رواية فيك تزودان القارئ بوجهتي نظر فريدتين لتسلطان الضوء على الغزو بأعين جندي ومسحفي خدما في نفس الفصلية. وهند تأمل الاشتنتين، سوف يستشعر القارئ أن قصصهما أكثر تعرية للحقائق من غيرها وأكثر إزعاجاً من أغلب عشرات الروايات التي ظهرت حتى الآن.

يتحلى رايت بعين تجيد المراقبة، وفي كتاب «قتل جيل» يتمكن من تخطينة عدة حواجز تخفي الكثير من جوانب الحياة العسكرية. يصف هذا، على سبيل المثال، زيارته الأولى التي قابل فيها رجال فيك، تفوح من الحبيمة والحة ريح وعرق وثقانة متيرة لفتيان تبتعن من فطريات الأقدام. يمضي الكل في سراويل داخلية وهم يهرشون خصيهم.

إن هرش الخصى على الملأ عادة شائعة في الجانب القتالي من مشاة البحرية بل وبين الضباط من ذوي الرتب العالية وسط المجتمعات. الحركة رجولية جريئة مثلاً مثل اللغة العامية المتداولة بين مشاة البحرية.

يتفاخر الضباط والمجننون على حد سواء بلغتهم الوضيعة، بكلمات مثل شاذ،



والوطني، وداين وسخنة، من بين الكثيرين من الأسباط غالباً ما يتشاجر الجنود ويسردون القصص البهيمية ويغضبون الآخرين بالإهانات المنطرفة ويشربون الخمرات الإباحية ويمارسون الاستسقاء. يتخربط جميعهم تقريباً في «عاطي الحشيش» أو تدخين تبغ لا رائحة له، «فانخذ الحشيش للمقاتلين الأمريكيين، هلاوة على إصفائه بشوة نيكوتين جعله سجاناً مرميلاً الخالية من الملائكة يسبحان من الجولي». يكتب رايت، يجعل هذا التبغ مدخنيه يمزجون لعاباً وكأنهم كلاب مسعورة، ويصطوبون لفعلاً سميكا من مادة زلجة نيتية.

لا يراه رايت بفراره وهو يصف خليفات افراد مشاة البحرية، إنه موضوع حساس ودعوة القليل من الصحين على استدعاء للخصوف في تركيبة جيش يتألف كله من المتطوعين. لا تخالغ رايت مثل تلك المخاوف. إذ يكتب ليول: سوف يستعصي ثقافياً التعرف على مشاة البحرية بمعون أسلافهم ممن اتوا إلى «الجيل الأعظم، إنهم أعمال لربوا على موسيقى الهيب هوب ومارلين مانسو وجيري سبرينجر». ثمة افراد عصيات سابقون وقلة من مسيحين ولدوا من جديد بالإيمان والكنيرون، ممن اصحابو عاطفي الهيرويون يومياً قبل الانضمام إلى العقيلة، وبينما التحق بعضهم بشاة البحرية بعد المدرسة الإبتدائية أو رفضوا منحاً بالاجامعات ما يربو على التشتت «قدسوا» من منازل متسقة ونشؤوا على ايدي أماء غاليين أو عاملين يرتبط الكثير منهم بالعب الهيدوي وبرايج تليفزيون الواقع والمواقع الإباحية أكثر من ارتباطهم بأبائهم، ثم ينكر رايت ان هؤلاء الأفراد «يمتثلون تقريباً أول جيل من أطفال الاستهلاك في أمريكا».

وفيما تولت رايت الصمدية أحياناً لسلكهم الطموحي، غامره إبهار لما يتسلحون به من روح خاتية. إذ يقرأ في أغلبهم مسوعين، برغبة تكاد تكون طائفة لا اختياراً منهم في أكثر الظروف صرامة. إن الحياة التي اختاروها تلوح من عدة جوانب رفضاً تاماً لحلم أمريكي استهلاكي لم يثقا الورجوج برهون له في برايج تليفزيون الواقع وكلمات ألبان البوب. إن اقصى مقامهم تتحصن في التضخية بالبنفس السخا، الحفاظ عليها.

تبدو حياة لا تعورها الحياة إلا ان رايت يسارع إلى التمتع، قائلاً: «إن العكرة الأساسية للظلمة وراء قدرتهم في الإقدام على المحرم المطلق، إلا وهو القتل، وثقافتهم تستمتع أيما استمتاع بذلك، فهي نهاية اجتماعات قدرتهم في الاقتال، يشبك جنود الشاة إيديهم ليصيحوا: «الفر».

وكما هو الحال مع فيك وتخليته عن



على مسافة رصاصية واحدة

اليونان القديمة. وقد العديد من هؤلاء الرجال إلى الكويوت حائلين بالخفايم الرومانسية حول الشرف واليسالة والتضحية. ومع ذلك سوف توضع تلك الأفكار على المحك منذ البداية. فيمر كل من فيك ورايت، عما ساورهم من فرغ لعدم كفاة بعض الضباط الكبار الذين ينبغي ان تتعامل معهم فرقة الاستطلاع الأولى ففي حين فشل رئيس العمليات في إحضار ما يكفي من بطاريات القاتل الليلي الحيوية، تمتع بحضور الدخان ليجلب كاميرا فيديو شخصية خطط لاستخدامها في تصوير فيلم وثائقي حربي على أمل يبعه بعد الفوز. أما قائدهم، الكولونيل ستيف فيرانو، فقد تبدي أكثر اهتماماً بالظهر الشخصي لأفراد مشاة البحرية من استعدادهم للمعركة. إذ خاطبهم في صحراء الكويوت في عشية الحرب بإسهمهم بجمالة كل الشوارب عند عبورهم المرات، «حي تنهيا لغزو دولة، وهذا هو ما يحدثنا معاً هنا؟ علق واحد من الجنود: «الشوارب»؟

[3]

واجهت مشاة البحرية القليل من المقاومة في غضون هجومهم المبني على العراق. أسرعت عبراتهم على طرق العراق

السريعة وقابلهم تحليل الأسفام العرافيين المحصنين ويحللون الموم الثالث كانت القصصية قد شقت شئرين شير مبرا جنوب مدينة الناصرية فوقضوا في الطريق برهقة ١٠٠٠ فرد من فواف مشاة البحرية في إصطار الحرب، وحتى مشاة عاطلون تركوا علائقهم في صورة رواية ومخلفات أدمية. مسالة قلما تعالجتها معها وسائل الإعلام. «دائماً ما كان التيزر متاجاً كبيراً في ساحة الحرب، يعلق رايت لا زيب ان العالم المدني يحرم أشد الحرص على القيام بالموظائف الحسدية بزمان على الميرون. فانتيرر العنقني لعلة مخزينة بل مجنونة. في ساحة الحرب الأمر معكوس. إذ لا ينبغي للجندي ان يقيم بعيدا، يفرقود. فمن الممكن ان تصببه طليقة قميص من شناسي اسفام أو مشاة البحرية عند رجوعه إلى الخطوط القصية. لذا يفرض الكل ببساطة في الهواء الطلق على معد نمطية مترات من الطريق. يتحمرون في العلاب على عيب خبيثة فارغة كانت تحوي القنابل اليدوية ضد أيما صارت لها، مراحيض، محمولة، تبشرت الشامة في المنطقة: الآف من علب الطعام الجاهز الرمية. ومع وجود الجميع وهم يتسكعون ويحسون ويسامون ويتشمسون ويتعطلون، يبدو المشهد وكأنه نسخة قتالية غريبة من مهرجان روك مقام في الهواء الطلق.

وقفت الجبال في جلايلب سوداء خارج مجموعة بيتية ناعين توجة مفرق العميلة. يبدئي في مؤخرة بيضاء شامة لا حد جود الشاة الذي تعري من الخصر وراح: يتقوץ في فاء بيتهم. باح أحد الجنود إلى رايت، هل يمكنك تحيل لو العكس الوضع، لو أنني جيش إلى صواحي أمريكا وتسير اففراد في حدائق الجميع؟ إنه جنون مطبق.

ويحلون الصمام الثاني، حدثت المعركة وجمع الجنود كل القمامة، لكن سرعان ما التخت الأحداث منعطفاً قائماً. ففي أول عقبية حربية أمام الأمريكيين، انخرطت وبضع وحدات من مشاة البحرية في سلسلة من المعارك التناحرة معدنية الناصرية وجوها. انتظر أفراد مسلحة قبل بمعددة عن الحركة وشاهدوا صلاب المدنية وهو يطلق قذائف عيار ١٥٥ ميليمترا على المدينة. «أفراد مشاة البحرية المديس المتقو، هصائلهم الميترت كل حرسه من الصباح يقطفون الآن المدينة قذفاً. دون جبر، وبعد مضي وقلة، بدأ رجال عيب ان جسر يولدي إلى الناصرية فراغهم ان ترتطم أعينهم برجال مسلحين يفرقون من الأثرة وهم يتشبثون بالمتانة كمدروج تمنع قواعد الاشتباك الشاة من إطلاق النيران ما لم يطلق العدو بيرانه أولاً. لكن

محمدة ان يسيل العرفيون طلاق السرايا فالعل، تبدأ كل بتدقية ورتاشن وفيهله يدويه على طول المصروف في التهدير، وبينما تراجعت قوات مشاة البحرية استولى على النصص انشاش وأصبح ليد، التحرص المبني للمعركة في حين غشي القدم اخبرين. كتبت أسمر عظيم الكرهه لعربون قبل ان يحصر إلى العراق القصص اسبويو اسبيرا رقت من كالمطرونية في ثلاثين من عمره. لا أعلم السبب في ذلك، لكن حالة وصلنا إلى هنا رالت كل الكراهية. لا يراودني إلا سوى شعور بالنسقة عليهم، اقتقد ابتني الصغيرة. لا رغبة لي في قتل هذا الشاب. لا أخريس. كان رايت يرح لاو مرة تحت بيراس المدهية الثقيلة، فلم يسلم من الاندشاش لما تولاه من هدوء بيد ان هدولاً ريكه اسفامات الشيران اوجه إلى الناصرية. إذ اشتمل على طلقت شديدة الانفجار بمقدورها اختراق الصوالد والاسمنت علاوة على قذائف مضخوية تتجحر في السماء لتبشر عشرات القنابل الصمعة لتمزق أجساد البشر إربا يثير رايت إلى ان بيراس المدهية تنمقر إلى التلقة حتى في الفصل الظروف مما يدعو إلى التسالول على سر عدم انتباه المراسلون والجماعات المناهضة للحرب إليها.

إن جمال الطائرات بالإضافة إلى قدرتها التكنولوجية الهائلة على إحداث الدمار تأسر الخيال. ومن وجهة النظر القصية، تتراءى الطائرات الناصرية وهي تحترق السماء متحذرة الدماء. دراما تعورها صور المدافع القابعة في الطون وهي تقصف سحب الدخان بين القبة والأخرى لكن الحقيقة هي أن سلاح مشاة البحرية يعتمد بالأساس على قذائف المدفعية وليس على الطائرات التي تسقط الدخان الموجهة بدقة وحلال ست وثلاثين ساعة خارج الناصرية أرسلت المدفعية فالعل ما يقدر ب ٢٠٠٠ طنقة على المدينة لا شك ان تلك القنابل على سكان بيلغ عددهم ٥٠٠٠٠٠ تسمة كالنابغ الشمير

دليل رايت المدنية برهقة مشاة البحرية فاستطاع ان يترؤ إلى آثار الدمار. نوح الدخان خارجاً من أنيتا مهدمة ولاضوح النازل الموجهة للطريق طائفة بالفضائح والشمرات تشارتربت جثث المهاجمين العراقيين على الطريق القضي إلى المدينة، حصنتها تكراراً، غربات الطعني، فنبشحت وانسحقت أمعاليها أرواف رايت، اجتريا حافة، وشمشمه ومحرقة، تطل من بعض بوابدها بقايا أدمية متسحمة ثمة رجل مقطوع الرأس على الطريق وفناء صميرة مديت في جواني التائه أو المراجعة تتمدد في طوره. كانت تتردى فستانا إلا ان ساقها كانتا ميتورتين.

نزع الجنود الأمريكيين

ملابس سجين في قصص ليهزوا من حجم أعضائه التناسلية

جملت قوات المشاة تجبه شمالاً لتلحق نفسها بسف أسرار النخيل وقوات الهلال الخصيب غير أن علامات الموت حافت بهم من كل اتجاه. امتدت على طول الطريق السريع عراب مشقة، وبحث متحمسة تستقر عراب منها. ركايبها الذين رخصوا مساعدة عدة مترات دية يملعون انفسهم الأخيرة في حين لا يزال الدخان يرتفع من أسيادهم المحترقة، والجانب واحد من السيارات جرحه جثة مشوهة تولد صغير. اندس الوجه في القمصين وتشرقت اللباس تشرقا، جاء دون تحديد جنس الولد. لم يعد ذلك المنظر أسرا ذأ بال. عقيب راييت -فلمند ديه الطائرات خلال الأسابيع الفائتة. الخرق الوحيد هو أننا لم نضك في المكان كي نحصر ما تركته من آثار. لقد ارتبت أماننا علينا فيما أخذت القيادة تتصلص من المسؤولية لتضمها على اكتاف الصغار الصغار من القوات

أسر فيك أهم توغوا شمالاً مقترعين من بلدة قلعة سكر. تم توجيه الهبوط إليه وإلى رجاله للاستيلاء على مضيق عسكري قريب. تسلم إليهم الانزعاج: إذ لم يشرعوا من قبل على مثل تلك المهمات كما أن سيارتهم العسكرية لا تقتصر إلى الدروع فحسب بل إلى الأبواب والأسقف. نزل بفيك المزيد من الصيوق عندما ضمت إلى عمله فوجد الأتشياد الجديدة، كل من يما المهبط - سواء كان مسلحاً أو أعزل - يتوجب اعتباره معادياً يصرح بأنهم في أثناء التبريد، تعرفوا على مناطق فيتنام حرة الشوارع، أعترف المسكونين بأنهم مناطق غير أخلاقية أعالت أهداف القوات بدلاً من احتلالها. أعلنت قلعة سكر بوضوح منطقة حرة التبريد، وبينما تسابقوا صوب المهبط، فتح واحد من رجاله التبريد بفتح. قطع فيك إلى الأفق تدير صورة ضبابية تضم سيارات وجعاً ورجالاً يحملون عصيا طويلة. قد يطنها الرائي بتادق.

وصلوا في النهاية إلى المهبط فوجد جنود المشاة الكمال مهجوراً على عليهم وإرتاح وأن لم يتجوا من الإحسان بعدم الثقة إذ أسوا به من ضعف. ما لبث أن اقرب منهم خمسة عراقيين يسبحون صرئين. في كل منهما صبر صراحي كلامها مروح. وأحدهما جرحه خطي فضبه الهبوط دوك بريان، غطى إلى أنه أصيب بطلقات عيار ٥٦، عيار يستدعيه الأمريكيون. جاز أطلق المشاة على هذا الصبي، فجاء اتضح عندئذ أن الأشكال العميدة التي أطلق الصنود عليها التبريد لم تكن مقادير سناد بل رعاء يصمي.

ركض فيك إلى مركز القيادة ليشرح لهم ما وقع. أراد أن ينقل الصبيين إلى مستشفى ميداني. أبلغه الصبيون الموجود بالخيمة أن الكوكويل فيرانكو ظالم ولا يمكن أخاها. استبد الضبيب بفيك. أدبت أن زعيم الرائد ثلثة أمريكيون وأن الأمريكيين لا يظفون النار على الصبية وتكونهم للموت، وأن رجال فيسيتي يجب أن يتكثروا مع العيش مع انفسهم لبقية حياتهم

لقد أعقته الطريقة المشوهة التي انتشر بها جنوده الشبهة في الضباب الكبار، فتكررت في مئينين البراءة لا حد لهم ولا حصر فلتتهم ديارا المفعية وحسمات الطائرات خلال الأسابيع الفائتة. الخرق الوحيد هو أننا لم نضك في المكان كي نحصر ما تركته من آثار. لقد ارتبت أماننا علينا فيما أخذت القيادة تتصلص من المسؤولية لتضمها على اكتاف الصغار الصغار من القوات

أسر فيك أهم توغوا شمالاً مقترعين من بلدة قلعة سكر. تم توجيه الهبوط إليه وإلى رجاله للاستيلاء على مضيق عسكري قريب. تسلم إليهم الانزعاج: إذ لم يشرعوا من قبل على مثل تلك المهمات كما أن سيارتهم العسكرية لا تقتصر إلى الدروع فحسب بل إلى الأبواب والأسقف. نزل بفيك المزيد من الصيوق عندما ضمت إلى عمله فوجد الأتشياد الجديدة، كل من يما المهبط - سواء كان مسلحاً أو أعزل - يتوجب اعتباره معادياً يصرح بأنهم في أثناء التبريد، تعرفوا على مناطق فيتنام حرة الشوارع، أعترف المسكونين بأنهم مناطق غير أخلاقية أعالت أهداف القوات بدلاً من احتلالها. أعلنت قلعة سكر بوضوح منطقة حرة التبريد، وبينما تسابقوا صوب المهبط، فتح واحد من رجاله التبريد بفتح. قطع فيك إلى الأفق تدير صورة ضبابية تضم سيارات وجعاً ورجالاً يحملون عصيا طويلة. قد يطنها الرائي بتادق.

[٤]

لم تمأ منويات رجال فيك تنحدر وهم يتابعون سيبلهم شمالاً. بز مصدر جديد للتوتر وذلك لحاجتهم إلى إقامة الجواز على الحرق لصد جنود الهجمات الانتحارية. وأن هذه المواقف غير جلية للعيان، يخفق العديد من العراقيين في الشوق عندنا. ونحن نرسل الجنود الأمريكيون طليقات التحذير، غالباً ما يسرع العراقيون سيارتهم ما يترتب عليه تصاعد عدم الثقة. أطلقت القوات النار ذات مرة على إحدى السيارات، فذهب جندي مشاة يدعى جريفز لمحاولة ففاته

تتكش في المقعد الخلفي وقد الصمت صيهاها رصياً. لمضاض مضى ليحملها بمقتراح فيما قد يحتاج إليه من تجهيزات طبية لعلاجها. انفسهم قمة رأسها وسقط مدامها، تحت كبريات. تراجع جريفز مرحوفاً صياها حذافاً في هذه الفتاة. هذا هو الحدث الذي سوف يتألم مني عندما أعود إلى الوطن. أنهى.

تزاربت طيرة ساحة القتال هبها ما سار المشاة في البداية من عزوف عن إطلاق النار بل إن أي تهديد بصيغ فالبه الحروب سلسلة عنيفة من الضلعات. تحمل المدنيون الوطأة العظيمة منها رغم صدمتها كثير من جود المشاة ومضاضهم. اذلاء لسخرية بعد موت هؤلاء المدنيين، يعلن ضافياً جيفري كارنيلز - وكيل عريف تكساس - عقب تسديده النار إلى مبنى يصوي مدافع بوضوح.

إنهم أسوأ حالاً من هؤلاء الذين يظفون علينا النار. فاميت تديمهم أدنى فرصة للنجاة. لم تقطن إن الناس في أمريكا سوف يرون هذا - كل هؤلاء النساء والأطفال الذين قطعهم طليماً - لا إنهم يصبحون دباب القنص الواسع. أقصم لك هذا بقولون إن ليسنا بطلان سنين كلب لأنه أت بنا إلى ذلك المأزق. بل إنه ليس من تكساس بالعلم.

هوجمت وحدة فيك من ثلاث جهات عند جسر فيضي إلى بلدة الموقفية، فأصيب أحد العراقيين في يده ومعلق فيزق فخرته. فتح جنود المشاة النيران على ما معهم فقتلوا البعض وأرغمو آخرين على الفرار. انصمبت قنات المشاة عدة كيلومترات ثم ارتفعت شكواها من التهور الذي انتشرته في المنطقة. وفي غضون ذلك شهدوا المدمية وهي تدك الموقفية دكاً. لا ثشرت القنابل المنفجرة عنانها فالتة فوق مناطق واسعة. انطلقت طائرة نفاثة من طراز ١-١١ ليعول ضجيجها على ديران الرشاشات. حشقت طائرات الكوبرا الهليكوبتر على مستوى منخفض يشي بالتهديد ثم شنت هجومها بالقنائف والقنابل اليدوية. حين تنكثت الفصير من دخول البلدة في آخر الألف الأخير أفرهاها أجزاء واسعة منها وقد استوت بالأرض. لينتوا فوق الأنحاء عدة من الجيش يستعصي على التدمير - ضبابيا شظايا القنابل المتعددية. أصيبت قدم رجل من رجالنا فحبرنا بلنتهم بأسرها، أنهى أحد جنود المشاة إلى راييت.

إن سره راييت لهذا الهجوم لاستثنائي، فمن بين آلاف التقارير المكتوبة من الفرق، أصب من القليل منها فيما أهداه الغزو من دمار هائل. بل إن أكثر التحليلات دقة تقلل من أهمية هذا الجانب من الحرب. مثال واضح على ذلك كتاب كوبرا: ١١: القصص

الحقيقية لغزو واحتلال العراق بقلم مارسيل بنو بورك تايمز مايكل. أن جوردون والجنرال برادري إي. تيرنر. لقد وثق المؤازر بكل دقة وإسقاء العديد من الأخطاء الفاضلة، التي ارتكبتها الإدارة الأمريكية والبناتيون في تخليط الحرب وتفنيدها. ومع ذلك عند وصف الغزو نفسه، تنصت كتابتها بخلوها من الدماء على نحو غريب. ما هي بعض الأمثلة من الكتاب (وقد أضفت إليها تأكيداتي)، وبينما تهيأت أهمية ساندريسون للتمرد صوب الطريق السريع ٤، تعرضت لنيران المدفعية العراقية. وخلال دقائق أطلق الكوكويل دوج هاردينج سدا قاتلاً من الشيران الضادة. كما هذا أن نداء مهم للمدعية بين الطرفين في الحرب. ثفوق فيه الأمريكيون ليعيدوا النيران العراقية مؤلثاً.

اكتشف ماكلهوني أنه سوف يصطغر إلى القتال في مناطق متقاربة ليعمر دفاعات الطيران العراقي الواحد تلو الآخر. استخدم أسلحة صيار ٣٠ ميليمتر ومواد رخيخ المسجد.

انتقلت فرقة استطلاع الفوج الثانية إلى حدود البلدة التي كان العراقيون يهاجمونها بصراة وتماصك. حمت طائرات الكوكويل قوات الشاة وتوجت شمالاً نحو البلدة من الجانب الغربي لنهر الفراف الوازي للطريق السريع. تحرر الكوكويل كرابورتا شمالاً و... إلى البلدة.

البلدة الشار إليها في هذه الفترة الأخيرة في الموقفية - نفس المكان الذي أعلن راييت أن مشاة المدفعية قد أساووه بالأرض. إن الوصف الوجيز البسيط في كتاب كوبرا ١١ القائل بإخلاء الموقفية لا المرافقين للهجوم وفقاً لكتاب، فكل جيل، وعلى عكس راييت، لم يتواجد جوردون أو تيرنور إلىهم فهم نفسه. وسعياً لإفادة بينة الروايات، أعتمد المؤازر اعتماداً كلياً على حوارات الجنود المخاضين في الغزو إلا أن شيئاً لم يطمعهم إلى تدبر أوضاع العراقيين العزل الذين ماتوا نتيجة لأفعالهم. لقد اكتسب كتاب كوبرا ١١ من وجهة نظر مخططي الغزو ومنفذيه - كما هو الحال مع الكثير من الروايات الأخرى - لينقل إلى القرنين قديلاً ما قد يكون عليه الأمر حين يقع على المرء العنق.

[٥]

وبينما كانت هصيلة فيك تشرع على بغداد، تعاطلت وبيرة القتال تضرقت بلدات وقرى صغيرة بتهريان مدمية لا تعرف الرحمة ولا ينكف العراقيون العزل



إن الفكرة الأساسية القائنة

وزاء تدريسهم هي الإقدام على المحر المطلق، ألا وهو القتل

يقتلون الرصاص عند حواجز الطرق. وفي أحد المشاهد المؤثرة التي وصفها رايت، انزعج بعض جنود المشاة من عدد الضخم للأطباء الذين يقفون الجراحات، فاندفعوا لمعاتونهم لكنهم عجزوا مع نداعة الحاجة عن صنع الكثير. وفي صباح ٦ أبريل بلغوا في النهاية ضواحي صناديق فجايرهم ما يسمونه إيتا مشدود رعب من الجثث الأدمية والبشر الميتة المنتفض ضفاف حوضه الطبيعي والرافد في المصارف، انحرفت سيارة الرقيب إيسيرا لتتجنب دهن رأس آدمي يستقر في الطريق. حين دارت العربة، لم يصدده إلى كلب ياكل جثة... لأن المرء أن يرى ما هو أكثر إثارة للشفقة؛ تأمل أداء المصلحة التي جعلتها هناك، فالمرء يدرك الخرافة التي عملها هناك، الناس الذين قتلناهم؟ في بلدنا بالعالم المدني، لو فعلنا هذا، سيكون مصيرنا السجن، إن فيك إيتا وإيتا يزود القارئ رواية تقشعر لها الأبدان، رواية لبغداد وهي تنحط إلى الفوضى، ظهر سيل من العراقيين المرعوبين اليابسين عند مصنع سيجائر احتلتها قوات المشاة، طفحوا يتوسلون إليهم لوضع حد لأعمال التهب غير أن الجنود لا أحد لهم في الأعلى، وفي الشوارع ليلاً أصمى إطلاق النار من العنف ما حال أن يفانوا بالخروج. علم فيك بحلول ذلك الوقت أن الطريقة المشهورة التي انتشر بها جنوده كانت في الواقع خطة جريئة لجذب انتباه نيران العراقيين وتشتيتهم لخطواتهم بعيداً عن قوة هزو أساسية اجتاحت العراق من جهة الغرب، نجحت الخطة لكنها لا تمت عاطلة من العزاء على ضوء ما اجتاحت بغداد من عدم الضباط، لاحظ رايت أن فيك، فقط على ما يبدو إيماته بالهمة هناك، ما يكن السبب الفوضوي في حد ذاته بل أكثر اكتشافه أن الأمريكيين ليست لديهم خطة حقيقية لتبديد الفوضى.

ومع اقتراب انتهاء وقت رايت بصحية الفصيلة، انقى نظره على كل ما يشهده معها.

لقد كنت متواجداً خلال السنة أسابيع الماضية عندما أوقعت هذه الوحدة الصغيرة نسبياً أرواح العديد من الأشخاص، أصبحت بعيني ثلاثة مدنيين يقتلون، تلقى واحد منهم رصاصة مميتة في عينه، إنهم مجرد عينة ليس إلا. لقد قتل مشاة البحرية العشرات في المعركة إن لم يكن المئات من خلال إطلاق نيران مباشرة وضربات مدفعية متكررة لم تميز أحياناً أهدافها. والأرجح أن أحداً من يقد أدباً على عدد القتلى الذين أرواحاً من جراء ٣٠٠٠٠ رطل قذير من القنابل أسقطتها هرة الاستطلاع الأولى من الطائرات.



على مساحة رصاصة واحدة؟

لم يزد رايت على ذلك، وعند تلك المقلعة من كتابه على المدنيين موضوعاً أساسياً، وقد شككت الأصف لم يواصل مناقشته. ولكي أعلم ما نريد من التفصيل، اتصلت بمارك جاركاسكو، المحلل العسكري بمنظمة مراقبة حقوق الإنسان. (استقبل خلال الفوضى في البنتاجون موصياً بأهداف الضربات الجوية) إلى جاركاسكو بأنه وفقاً لأكثر التقديرات قبلاً، راح ١٠٠٠٠ مدني خلال الغزو، أكثرية ضحايا التحالف البشري أن القليل من الأمريكيين على دراية بهذا الرقم.

بعد أن رايت أسهب بالفعل في هذا الموضوع أثناء مقابلة أجراها بعد نشر كتابه بفترة قصيرة. إذ صرح أننا خلال العهد المنصرم، تشعبنا بالمتقدمات التقنية السائلة من الجيل الأصغر، عنوان كتاب لتوم بروكوا Tom Brokaw يور حول رجال خاصوا الحرب العالمية الثانية، وقد تطلع الكثيرون إلى هذه الحرب بعين الرومانسية إذ نزعوا إلى تذكر صور مجلة لايف التي تصور البحار المعاد إلى الوطن وهو يقبل خطيبته لقد نسوا أن الحرب ما هي إلا عمية قتل، لقد اعتقدوا أنه من المهم جمعهم عن تذكر هذا، لأننا لدينا الآن جيل ولد خلال العهد السادس ولم يخدم في حرب

فيتنام. احتج العديد منهم عليها وقد كبروا وأنضجوا ليتولاهم الضجر من غموضها والصدام أخلاقياتها ثم بدؤوا يتشككون بهذه الأسطورة المتجسدة حول الحرب الأهلية، الحرب الباردة، الحرب الباردة... مؤلف رواية المجر- خمسة - وروبرت ميلر ورومان ميلر ومعاصريهم من حاربوا بالفعل في الحرب العالمية الثانية وكتبوا عنها، لجدها عارية تماماً من أية وماسية، الحق أن الكثير من مؤلفاتها تقف موقفها معارضا من الحرب

يضيف رايت أن كتابه «يتعمق في مسألة قتل المدنيين وجرحهم». إن إطلاق الرصاص على المدنيين في العراق قد تبرره بأن الحفلات المدنية تقضم مقاتلين مدنيين... لكنك حين تبصر فتاة صغيرة الياسا أحدم ملاس جميلة وقد اغترست على الطريق بدون سابق، لا تفكر حسناً، أنت تعلم أن المدنيين قريبون وأنها إصابة ملازمة إطلاق النار.

يشير رايت إلى أن مشكلة المجتمع الأمريكي تكمن إجمالاً في عدم استيعابنا الحقيقي لمفاهيم المدنية، فعمية الغطر التي تصل إلى الأمريكيين، معقمة زيادة عن اللامع.

أما عن ناشأين فيك فقد نال منه القتل كل منال بعد أن عاد من العراق ترقى إلى رتبة كابتن وحمل لقب ضابط طرقي في الاستطلاع الأساسية. ومع ذلك لم تجرح الحرب كيانه، أخذ يسد نظرات متمحصة إلى الناس في الشوارع متقبلاً عن أي انتعاش في ملاسهم يتي بأنهم يحملون مدمساً أو قبلة. وأحياناً ما كان يبيكي بدون أدنى سبب على الإطلاق، «ظننت أني أفقد عقلي، كتب، وهكذا قرر خريج دارميوت الشاب الذي انضم إلى جنود مشاة البحرية في نوبة من المثالية أن عليه معادرتهم، شرح أن الكثير من من عليه المشاة ذكروا في المصارعين، فتوبهم صفة خاطئة تسبح لبعضهم بارتماه دروع الساق والصدور والفوضى في الدماء، أضمرت لهم احتراماً وإعجاباً وأولدت مشاعرهم لكنني لم أستطع أنسة أن أكون محارباً، مقتودم القتل حينما يستدعي الموقف وقد انهمكت في قوة القتال شأني شأن أي رجل آخر، لكن لم يسمعن أن اتخذ قراراً واعياً وبوضوح نفسي في ذلك الولف مراراً وتكراراً طوال حياتي المهنية.

هناك فيك على وجهه بعد أن ترك الصليق، أدرك أن القتال، أفقده تقريباً عقده، الآن كان تكبريم الشان وشكرهم على ما فعلتموهما هناك، انكر على ماذا أدرك أن أساهلهم، إطلاق الرصاص على

الأطفال، الانكماش رعباً خلف أحد الأرقعة، إصمات فنانل المدفعية على ميوت الناس؟، فيك اليوم طالاب دراسات عليا بحامعة هارفارد، يسعى إلى بيل شهادة مشتركة في الإدارة العامة والأعمال، يأمل عند تخرجه في توبية أن يعمل في سياسة العلاقات المتشعبة بالأمم القومي، رايت أيضاً محرر مساهم في مجلة فانيتي فير، تحول فتاة (إتش بي أو) HBO كتاب «فانك جيل، إلى مسلسل قصير في الوقت الحاضر، سوف يشاهده الملايين ولو نجح في سرد بعض ما وصفه الكتاب من أهوال، قد يصاحو على أن يصي الأمريكيون الخسائر البشرية للغزو

لا ريب أن تلك الخسائر قد تصاعت عدة مرات منذ العرو، وفي مقالة تالية أثنى أن أسير كيف أنها في الأخرى تلت متوازية إلى حد ما عن الأنظار. ■

كتب أخرى ناقشنا المقال،

من منزل إلى منزل - مذكرات ملهمة عن الحرب
House to House: An Epic Memoir of War
بقلم: ديفيد بيلافيا و جون آر. براونينج
David Bellavia, with John R. Bruning
Free Press, 321 pp., \$26.00

مطاردة الأشباح: إحقاقات وأوحاشات هي العراق - وجهة نظر جندي
Chasing Ghosts: Failures and Facades in Iraq, A Soldier's Perspective
بقلم: بول ريكهوف
Paul Rieckhoff
NAL Caliber, 326 pp., \$15.00

أحب ببديتي أكثر منك شابة وأنش هي جيش الولايات المتحدة
Love My Rifle More Than You - Young and Female in the US Army
بقلم: كايلا ويليامز ومايكل إي. ستوب
with Michael E. Kayla Williams Staub
Norton, 292 pp., \$14.95

كوبرا II: القصة الحقيقية لغزو واحتلال العراق
Cobra II: The Inside Story of the Invasion and Occupation of Iraq
بقلم: مايكل آر. جوردون و برنارد إي. ترانور
Michael R. Gordon and Bernard E. Tranor
Vintage, 722 pp., \$16.00

ثقافتهم هي باختصار: الاستمتاع بالقتل، ففي نهاية الاجتماعات الميدانية يشبك جنود المشاة أيديهم ليسبحوا، اقتلوا

السادية الأمريكية الرسمية!

خسرت أمريكا القليل من عظمتها في ذلك اليوم. لقد خسرتنا مكانتنا باعتبارنا المدافع الرائد عن حقوق الإنسان. وكبطل للعدل والإنصاف وحكم القانون. ... ومما يبعث على الأسى أن هذه اللجنة العسكرية، التي كانت تعقد جلسة محمد جواد، لم تكن لديها سلطة عمل أي شيء من سهلوا التعذيب مثل جون يو وجاي بايبي وروبرت ديلاهانتى والبرتو جونزاليس ... وديفيد أديجنون وويليام هايمز ونايب الرئيس تشينى ودونالد رامسفيلد. ...

أثارت إشارة الميجور فراكت إلى ومن سهلوا، التعذيب سزااً مهماً، وهو كيف دخلت حكومة الولايات المتحدة في أعمال تعذيب السجناء؟ ولم يكن الحمرمان من الذنوم التكتيك الوحيد المستخدم مع السجناء في جوانتانامو وغيرها من الأماكن فقد شملت التكتيكات الأخرى إجهار السجناء على اتخاذ أوضاع مجهدة، وتعرضهم للأضواء البهيرة والدراجات الشديدة من الحرارة والبرودة، والإهانة الجنسية، والعري، والتفري بالماء، أو، العلاج المائي، الذي يحدث اختناقاً جزئياً.

[١]

منذ كشف الإساءة إلى السجناء في أوغريبي في أبريل من عام ٢٠٠٤ حكومة بوش لذلك أن أي سوء معاملة كان من فعل بعض "التفاح الفاسد"، ولم يتخذ أي إجراء ضد أية رتبة كبيرة، عسكرية أو مدنية، ولكن التراكيب المطروحة للفضائح، التي كالت أخرجها في يوليو من خلال تقرير لجنة مجلس الشيوخ وجلسة استماعه، جعلت من الواضح أن المعاملة السيئة للسجناء كانت سياسة متعمدة أتت من أعلى من

البيتاجون ووزارة العدل والبيت الأبيض. في يوليو من عام ٢٠٠٤ استعرض المحامي العام لوزارة الدفاع الأمريكية التكتيكات المستخدمة في برنامج لتبناجون مصمم لتعليم طرق مقاومة التعذيب بواسطة القوات الأجنبية. (ركز البرنامج بشكل خاص على التكتيكات التي استخدمتها القوات الصينية أثناء الحرب الكورية لاحت الأسرى الأمريكيين على الاعتراف زوراً بأشياء مثل استخدام حرب الحرائق). وفي أغسطس، أصدر مساعد المدعي العام جاي س. بايبي، رئيس مكتب المستشار القانوني لوزارة العدل مذكرة سرية مكونة من خمسين صفحة اقترحت إلى أن الرئيس سلطة شاملة وتحول له الأمر بتعذيب السجناء في الحرب على الإرهاب. وفي تقوم على مذكرة سابقة كتبها جون يو وروبرت ديلاهانتى، التي اقترها البرتو جونزاليس، وكان حينذاك المستشار القانوني للبيت

■ أجبر محمد جواد، وهو أفغاني منهم والقاء قبيلة يدوية على قافلة من الجنود الأمريكيين في كابول في أواخر عام ٢٠٠٢ مما أدى إلى جرح اثنين. إلى معسكر سجن خليج جوانتانامو في فبراير من عام ٢٠٠٣. وكان حينذاك في السابعة عشرة من عمره. وفي ديسمبر من عام ٢٠٠٣ حاول الانتحار وفي شهر مايو التالي أخضع لما أسماه المسئولون في جوانتانامو "برنامج المسافر الدائم". فقد كان يكبل كل ثلاث ساعات في الشوارع والليل وينقل إلى زنازنة أخرى. وهو ما حدث ١١٢ مرة على مدى أربعة عشر يوماً تعرف ماذا جرى عمله لتسليم محمد جواد لأن المحامي العسكري الجديد للدفاع عنه الميجور ديفيد ج. ر. فراكت (من احتياطي القوات الجوية) سعى ونجح في معاهلة للحصول من القاضي العسكري على أمر لسجانيه نابار سجلات أسره وقد أوصح الميجور فراكت واقع معاملة جواد في مناقشته الحتمائية في جلسة ما قبل المحاكمة يوم ١٩ يونيو ٢٠٠٨. وهي المناقشة التي كانت عرضاً جديراً بالملاحظة للشجاعة القانونية والأخلاقية

سال الميجور فراكت. لماذا عذب محمد جواد؟ لماذا اختار المسئولون العسكريون صبياً مرافقاً حاول الانتحار في زنازته قبل أقل من خمسة أشهر لإخضاعه لتجربة الحمرمان من اليوم السادسة هذه؟ لقد قال الصطاف في جوانتانامو إنهم لا يعتقدون أن لديه أية معلومات استخباراتية قيمة، بل إنه لم يستحوب خلال برنامج المسافر الدائم. وقال الميجور فراكت السيناريو الأرجح هو أنهم قرروا تعذيب السيد محمد جواد للتسلية فبسبب كي يعطود درسا، أو ربما ليجهلوه عبرة للآخرين.

ولكن الميجور فراكت لم يتوقف عند من عذبوا محمد جواد لقد تناول أمر الرئيس بوش الصادر في ٧ فبراير من عام ٢٠٠٢ بالآيمنح المعتقلون في جوانتانامو الحماية المصومة عليها في معاهدات جنيف، بزم كونهم أعضاء في القاعدة أو طالبان أو مؤيديهم لهم. وقال إنه في ٧ فبراير ٢٠٠٢

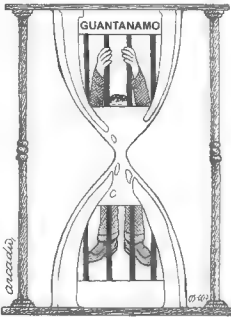
The Challenge Hamdan v. Rumsfeld and the Fight over Presidential Power

التحدي: حمدان ضد رامسفيلد والمركة حول قوة الرئاسة

by Jonathan Mahler
Farrar, Straus and Giroux, 334
pp. \$26.00

ترتيب مع
The New York Review of Books

ترجمة أحمد محمود



لقد خسرتنا مكانتنا
باعتبارنا المدافع الرائد
عن حقوق الإنسان.
وكبطل للعدل والإنصاف
وحكم القانون

أنطوني لوييس
Anthony Lewis



[٢]

مددت حوكمه

بوش جهودا حثيثة

للتحكم على

المعلومات خاصة

بسوء معاملة

سجنائها. وقد تم

تدمير أشرطة

الفيديو الخاصة

بمستجوابين

رهبيين على

الأفلس. وقضى

جلسات المحكمة

في جواتانامو

ماساكس أخرى

اعترض معاصمو

الحكومة على نشر

أساليب

الاستجواب. فالنيل إن ذلك سوف ينيه

أعضاء القاعدة إلى ما سوف يواجهون إ

قضى عليهم. ومازلنا لا نعرف ما تم عمله

لوسيف جاديل. الأمريكي الذي احتجز

لسنوات في حبس افغريدي باعتباره

مقاتلا عدوا مزعوما ويقال الآن بأنه يعاني

من ضرر نفسي طويل المدى.

بالرغم من ذلك فإن أي أمريكي كان

يريد معرفة شيء عن القوة التي عاملت

بها حكومته السجناء وكيف وقعت كان من

الممكن أن يعرف قدرًا كبيرًا بحلول هذا

الربيع. فقد تكرر نشر عدد من الخبراء في

القانون وفي خفايا التعذيب تعليقات في

الصحف المطبوعة والمبثوثات. وقد استندت

استعدادات كبيرة مما كتبه. وفي الربيع الماضي

نشر الباحث في القانون الدولي فويلت

Torture Team. ساندز كتابه القيم.

Ramsfeld's Memo and the Betrayal

of the American Values (فريق التعذيب؛

مذكرة رامسفيلد وخيانة القيم الأمريكية)

ونشرت مجلة "فانيتي فير"، فقرات مطولة

منه. ونشرت هيومان رايتس ووتش وغيرها

من جماعات حقوق الإنسان تقارير مهمة

عن الإساءة للسجناء.



الأبيض في عهد الرئيس بوش. ولقد أصبحت تتنازع بابي القانونيون في مذكرة أعدت لوزير الدفاع رامسفيلد.

وفي أكتوبر من عام ٢٠٠٢ ذهب محام كبير في وكالة الاستخبارات المركزية اسمه جوناثان هودمان إلى بعض أستانانوا ونافش

تكتيكات الاستجواب القاسية مع المصيط. وقالت محامية عسكرية. في الممتلكات

كولونيل دايان بيشر. إن بعض الأساليب التي كانت ممنوعة من قبل مثل الحرمان من

النوم كان الجيش يستخدمها مع السجناء في مختلف قاعدة باجرام الجوية في

أفغانستان. ولكنها أخفيت عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر عدم إقرار الجناء في

له. كما قالت إن اللجنة الدولية للصليب الأحمر هم خطيرين. وقال هودمان إن مسألة ما إذا كان بإمكان الاستجواب القاسية

تعدايا أم لا مسألة فهم. كما قال: إذا مات الشخص المقتول يكون معنى عدم انكم

تنتفون ذلك بشكل خاطئ. في نوفمبر من عام ٢٠٠٢ أوصى

المستشار القانوني لوزارة الدفاع وليام هانزبان بأن يقرر وزير الدفاع رامسفيلد رسميا

عدد من أساليب الاستجواب العدواني في جواتانامو من بينها اوضاع المصحف

والعصبي والاستخدام الكلاب الهجامة والحرمان الحسي. وأصدر رامسفيلد

موافقته في أمر سرى في ٢ ديسمبر عام ٢٠٠٢.

حذر عدد من القادة العسكريين من التكتيكات الجديدة القاسية. وأبلغ اليرتو

مورا المستشار القانوني للشرطة هاينز أنه اعتمد. إلا أن رقم إلى مستوى التعذيب.

أفهم. إلا أن رقم إلى مستوى التعذيب. أفهم. إلا أن رقم إلى مستوى التعذيب.

أفهم. إلا أن رقم إلى مستوى التعذيب. أفهم. إلا أن رقم إلى مستوى التعذيب.

أفهم. إلا أن رقم إلى مستوى التعذيب. أفهم. إلا أن رقم إلى مستوى التعذيب.

أفهم. إلا أن رقم إلى مستوى التعذيب. أفهم. إلا أن رقم إلى مستوى التعذيب.

المعتقلين. بصراحة أخرى لم يعد متوفها من أفراد الجيش الامريكى معرفة أن صرب

سجين حتى ألوت يتعرض من القوانين. فلماذا كان الجند على ذلك الصر من

الوحشية؟ يشير إلى سريتر إلى العصب من هجمات الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١

الإرهابية. وإحسانهم بان رؤسافهم في واضطل كانوا يربون الهجوم بلا حذوة

وكان قرار الرئيس بوش بإلغاء الحماية التي توعرها عقابيات حينئذ بمثابة رسالة تنيذ

بانه ليست هناك قواعد. أصغت صحف مكالانتر شامية

استمر في التحقيق وإعداد المقالات. (يذكرنا هذا بأنه من غير المرجح أن يكون لدى

الدوليين. الذين يقال لنا أحيانا إنهم مستقبل الصحافة. الوقت والموارد

للتحقق في سلوك الحكومة. لحاظا مثلما تحقق فيها الصحف كاحسن ما

يكون) فقد أجرى مصحبو مكالانتر مقابلات مع مستفيين امريكيس وافغان

وبغيرهم. ستة وستين معتقلا سابقا من بين السجناء الستة والسبعين كان

اثنان وعشرون فقط قد "مضطهبتهم القوات امريكى في الأصل. أما الماقلون فقد

سلمهم أفراد قبال احدى على نزع معهم أو جيران خاصص. أو أشخاص يربونهم

تصميم المكافآت الكبيرة التي تقدمتها الولايات المتحدة مقابل التعذيب. وقال

توماس وايت وزير الجيش السابق إن كان من الواضح منذ فتح معقل جواتانامو

في أوائل ٢٠٠٢ أن ثلث السجناء على الأقل لا يتنمون إلى ذلك المكان

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

تلقيا للحيلالات. إلا أنها تقدم معلومات دقيقة فقد اقتبست تقرير الاستخبارات

الاستخباراتية عن الجيش السيسى أطلق سراحهم من جواتانامو فيقول إن لديهم

مضاعر شديدة التعطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية

للسفحة الواضحة الأخرى التي أوصحتها مقالات مكالانتر في أن سوء

معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالتحركات المعادية

لامريكا يعصبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستفترية

السادية الأمريكية الرسمية!

أمر فصائي للنظر في مشروعية حبسهم وفي عام ٢٠٠٦، في قضية حمدان ضد راسمبل، رأت المحكمة في ٣ أحكامها الرئيسية أن الجبهة العسكرية في ظل القواعد التي وضعتها حكومة بوش غير قانونية لأن الميول المرفوعة على المتهمين تخالف القانون الوحيد للعدالة العسكرية واتفاقيات جنيف، وفي شهر يونيو الحالي، وفي قضية يودمين ضد بوش، رأت أغلبية ٥ ضد ٤ أن لائحة تكونجرس التي تحظر على معتقلي جوانتانامو استصدار أمر فصائي للنظر في مشروعية حبسهم مخالفة لنصان الدستور لهذا الحق.

لتسبب لتلك القرارات في خروج صرخة احتجاج من اليمين السياسي، فقد دعا السناتور جون ماكين، وهو أحد الناجين من التعديلات كاسير في فيتنام الشمالية، وكان في يوم من الأيام منتقدا لممارسات بوش الخاصة بالاعتقال، قرار يودمين بواحد من أسوأ القرارات في تاريخ البلاد، أما راء القضاة الممارسة لحكم الأغلبية فقد ذنبت بلمعة مدوية أب يحق القدر ضرراً خطيراً بأمن البلاد.

القاضي السوفياتي سكاليا، الذي لديه موهبة خاصة بالمعارضين الخريجين للثقافة بلا داع المقدّر أن يثيروا هجوماً سياسية على قرارات المحكمة، وقد استخدمها على نحو بالغ الأثر في قضية يودمين، فقد تنبأ بأن الفارس سوف تكون له نتائج مدمرة، وإلا إن الثلاثين من السجناء على قيد الحياة أكلت سراحهم من جوانتانامو مداو إلى مديان القتال، وبالنسبة لرفقهم ثلاثين لاحتساب القاضي سكاليا تقرير لجنة جمهورية معارضة في مجلس الشيوخ اعتمد على ميار العاء المنتخب باسم الشيوخ في عام ٢٠٠٧، تشير تقاريرنا إلى أن ثلاثين على أقل تقدير من معتقلي جوانتانامو السابقين شاركوا في أنشطة عسكرية معادية للتحالف بعد معادرتهم المعتقل الأمريكي.

غير أن ادعاء سكاليا عودة الثلاثين إلى ميدان القتال فصيح بوضوح المستنقش، والبنجاحون لنفسه، منذ إعلانه أمر مرة. فقد أثار البروفيسور مارك ديسو من جامعة سينت هول إلى أن وزارة الدفاع نصها ذكرت أسماء خمسة عشر فقط من المتمرصين أنهم أصحاب سابقين، وقيل إن ثمانية من هؤلاء لم يعملوا شيئا سوى انتقاد سياسة الاعتقال الأمريكية بالكلام، وقد لحقت وزارة الدفاع عن الرقم ٢٠ في وثيقة سلمتها لتكونجرس قبل أسبوعين من قرار يودمين، وبعد القرار كتب المحامي س موسلي سامين وويليت، الذي كتب اثنين من المعتقلين السابقين جاء، «بعضا صمم الثلاثين، في صحيفة «دا بوسطن جلوب»، مقالاً في صفحة الرأي من مؤلفه لم يعطها شيئا سوى (١) نشر مقال في التيبوروك تايمز، و(ب) إجراء مقابلة. وقد حكم النجانون على هذه التعليقات العامة بأنها «عدائية».

لوح السناتور ماكين كذلك بالمخالفات الثلاثين المتمرص أنهم عادوا، وكذلك فعل جون بوجير صانعي آراء وزارة العدل التي تقول إن للبرلين سلطة مطلقة لتعذيب السجناء وقال البروفيسور (وهو حالياً يدرّس القانونون في جامعة كاليفورنيا بيركلي) إن المحكمة العليا في قضية يودمين تسحت الطريق أمام الأجانب «الذين أسروا وهم يقاتلون ضد الولايات المتحدة، كي يتحدوا اعتقالهم، وقد أعطى ذلك صورة زائفة، لا شك في كونها زائفة عمداً، للمعتقلين في جوانتانامو، فمعتقلهم لم يأسروا وهم يقاتلون، وكما رأينا فإن معظمهم كانوا الجيران الأقرب الحاضرين لسناتور كاسير وهو يشرحون في الحصول على الجوازات الأمريكية، وقد اعتقل آخرون في أماكن بعيدة جداً مثل زامبيا، والواقع أن مقدمي الاتهامات في قضية يودمين شملوا ستة جزائريين كانوا يقيمون في البوسنة وبناء الشرطة البوسنية القبض عليها. بناء على طلب البناولين الأمريكيين، وسلمتهم لهم.

قال كبير القضاة جون روبرتس في رأيه المخالف لحكم الأغلبية في قضية يودمين إن المحكمة ألغت أكثر انساق الحماية للأجانب سخاء الذي تم توفيرها للأجانب الذين يعتقدونهم على البلد كمقاتلين أعداء. وقد صابت الفروع السياسية هذه الإجراءات وسط راء عسكري دائر، بعد قد تم فير من البحث المتأني والفتاح المضني.

ولكن في هذا الصراع على عكس ما سبقه من صراعات، لم يكن للرجال الذين أسروا حق اللجوء إلى ذلك البند من اتفاقية جنيف الذي يطلب بالاستماع المنصف لاكتشاف ما إذا كانوا مافعل مقاتلين أعداء أم لا. وقد غيرت إدارة بوش الإجراءات على استحياء عقوبة بعد أن أجبرتها الأحداث على ذلك، أي فضيحة أبو غريب تم قرارات المحكمة التي المتعاقبة.

كان مصير الحرية عامي الحاج في طريقه إلى أفغانستان في عام ٢٠٠١ عندما أوقفه مسئول باكستاني وسلمه للولايات المتحدة. وقد احتجزت ست سنوات في

جوانتانامو، ولم يُسأل من القاعدة وإنما عن الجزيرة، (وقد أطلق سراحه في عام ٢٠٠٨). وكانت قصته ضمن قضايا عديدة لم يكن فيها ما يشير إلى أن المعتقل، مقاتل عدو.

لا بعد فتح المحاكم الفدرالية أمام طلبات استصدار أمر فصائي للنظر في مشروعية حبس المعتقلين بإعتابهم تذكرة سرية إلى الحرية ولكن على أقل تقدير بمثابة خطوة إلى نحو الحاسبية. فهو منير يمكن من فوفه بحث معاملة المعتقل والأسباب المؤكدة لحبسه. وكما كتب جورج ويل في صمود انتقد فيه السناتور ماكين بشدة لما اتسمت به تفرغاته على استصدار الأمر القضاء للنظر في مشروعية حبس المعتقلين من جهل، بينما حكم المحكمة العليا قفل رسم حد تسلطة الحكومة الخاصة باعتقال الأشخاص بلا تمييز التي لولا ذلك ظلت غير محدودة.

المثال المدلل لأهمية لجعل المحاكم تقيد القرارات الرسمية بأن شخصاً ما محتل عدو، في حالة حمية جرهات وهو من المسلمين الأيووفي في الصين الموجودين في جوانتانامو. وجرهات التي رزم الجيش الأمريكي أنه كان في مصيرك تدرب في أفغانستان في عام ٢٠٠١، فُوض عليه في باكستان في خريف ٢٠٠١، وقد وجدت لجنة من ثلاثة قضاة من محكمة الاستئناف بالدرلة مقاطعة كولومبيا في شهر يونيو أنه ليست هناك أدلة مقنعة تدعم تسمية الحكومة له بالمقاتل العدو. وضمت اللجنة كبير قضاة المحكمة ديديس سنل، وهو واحد من أكثر القضاة الفدراليين محافظة في البلاد، وقد سخر رأيه من حمية الحكومة، حيث فلارها بعبارة شخصية ليويس كارول: «لقد قلنا ثلاثاً، ما أقوله لكم ثلاث مرات فهو صحيح».

[٤]

على عكس جون بوجير وويليام هاينز، دافع معظم المحامين الأمريكيين الذين أُنشروا في قضايا التعذيب والاعتقال غير



أحد منجزات سلسلة مقالات لاسيتير هو أنها ذكرت القراء بأن جوانتانامو ليست المكان المناسب الذي كان يحتجز فيه السجناء، وما زالوا



المحدود من مثل العدالة الأمريكية. وكان ذلك على نحو مذل في قضية المحامين في الخدمات العسكرية، أي القضاء العسكري، والجمهور، فراكته التي أشرت عن قبل إلى حجته القوية نيابة عن محمد جواد، مثال واحد من بين أمثلة عديدة. وقد طوطعت أعداد كبيرة من المحامين الخاصين بوقتهم وكافحوا ضد العقوبات الرسمية كي يمتلوا الصحاء.

جرى بحث عمل المحامين من أجل المعتقلين في كتاب جوناثان رامسفلد: Challenge: Hamdan v. Rumsfeld and Fight over Presidential Power (التحدي: قضية حمدان ضد راسمبل والحرب على السلطة الرئاسية). ولكنه يزيد كثيراً من كونه كتاباً عن القانون والحامين، فهو يحكي قصة الأمير الذي أعطى اسمه لقرار دستوري عظيم، وهو يصف الكفاح الشخصي للمحامين، وشجاعتهم، وأخطاهم، والنتيجة عمل ذو برام فائز.

كان سالم حمدان، الذي أعطى اسمه لقرار دستوري ردد في المحكمة العليا، يعزى مسكناً جدياً جينته لجهاد وأصبح سائق أسامة بن لادن في أفغانستان. وقد ألقت قوات التحالف الشمالية القبض عليه في نهاية المطاف في أواخر ٢٠٠١ وسلمته للولايات المتحدة. وفي مايو من عام ٢٠٠٢ نُقل إلى المسكر السجن في جوانتانامو. (في ٦ أغسطس، وبعد محاكمة اللجنة العسكرية الأولى في جوانتانامو، أدين حمدان بتسليمه الضم الحادي لإرهاب، ولكن ليس بتهمة التآمر الأكثر خطورة. حكم عليه بالسجن خمس سنوات ونصف السنة، وما يقل كثيراً من السجن مدى الحياة الذي سعى إليه المحققون العسكريون طويلاً. وعلاوة على ذلك، فقد صدمت الحكومات على الشهور الواحد والستين التي اضعاها حمدان في الاعتقال تدوحيه التهمة، وهو ما يعني أن حكمه سوف يتكامل مع نهاية العام الحالي، ولكن صبره بعد ذلك غير مؤكد، لأن إدارة بوش تزعم أنه يمكنها الإبقاء على المعتقلين في جوانتانامو، سواء صدرت ضدهم أحكام أو بركوا في محاكمة عسكرية، أو لم يحاكموا بالمرّة. إلى أن ثنّته، «الحرب على الإرهاب».)

إحدى الحقائق البارزة التي شُيئت في هذا الكتاب بن أن حمدان كان أول من استجوبه عميل لمكتب التحقيقات الفدرالي في جوانتانامو كان حرمصاً على توطيد العلاقة معه، وفي أثناء ذلك حصل على بيانات مفصلة منه عن القاعدة وبمضي وقاياتها. وقد كان لدى المحكمة أدلة كثيرة تُشكك من التحقيقات مع حمدان في محاكمة فدرالية؛ وقد ظن أنه يمكن إقناع حمدان بالتهادة ضد شخصيات أكثر أهمية من القضاة مقابل تخفيف الحكم.



إلى التي تترى أنه لا يمكن مفاصلة الحاميين لتقديدهم مشورة للمسؤولين بترتيبهم ما هي في واقع الأمر جرائم. فقد أدبى الحاميون الألمان في نورمبرج باعتبار أنهم سبوا ارتكاب الحرائم بتقديدهم المشورة القانونية للرائم النازية. وقال الرئيس بوش لدينا اراء قانونية نكسا من عمل ذلك.

ليست القاصدة مسلما مرجحا بالنسبة للإدارة الأمريكية الجديدة. ولكن هناك خطوات ينسئ الخاطا لواجهة الصطلاح التي ارتكبتها حكومتنا. إذ يحس علينا على اقل تقدير ان نكشف غطاء السرية عما تم وعمّا لا تزال مصممة على انها اراء قانونية كانت ترمي إلى ايصاء لصفة القانونية على تلك الافعال

ان على هذا السبل ان يعيد بشكل ما تأكيد تفورم من الادمان الأمريكي. وبما لا يكون هذا سهلا. فقد أظهر استطلاع للرأي أجرى مؤخرا ان تأييد الأمريكيين لتعديب الإرهابيين المزعومين قد ارتفع من ٣٦ بالمئة سنو في عام ٢٠٠٦ إلى ٤٤ في العام الحالي. وقد صممتنا صورا ابو غريب ومنذ ذلك الحين أزيلت من الكثير منا حساسية استخدام التعديب.

من الواضح ان الرئيس بوش وكبار مسؤوليه نجحوا في إفساح الكثيرين زمهرهم ان كتيبات الاستعانة بالحسنة. كما يسمون التعديب زور معلومات متضاربة والأدلة التي تؤكد هذا الزعم ضعيفة. فقد قال السناتور جاي وكفلر استنادا إلى خبرته كرئيس للجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ.

لم أسمع شيئا يشير إلى ان المعلومات التي تم الحصول عليها لتكنيكات الاستعانة بالحسنة مجتومعة ارضايا وشيكيا. ولم أسمع شيئا يعجلني اظن ان المعلومات التي تم الحصول عليها نتيجة تلك التكنيكات لم يكن بالإمكان الحصول عليه من خلال اساليب التحقيق القانوني التي يستخدمها محققو الجيش وتمتد في القانون

ولكن على أي الأحوال فقد كان الشئ الذي نفقته سمعة أمريكا. وأنته القومي. بسبب تلك السياسة هائل: إذ أشار كراهية جزء كبير من العالم الإسلامي للولايات المتحدة. كما قوض إيمان العديد من الأمريكيين باستقامة الأخلاق في بلدكم.

وهي النهاية يجب ان العلاج. إذ كان لابد ان يكون هناك علاج من القربات التي تعيد تأكيد مكانة القانون الأساسية في العالم الأمريكي. ان الرئيس الذي لا يسعى للحصول على سلطة غير مفيدة. ومن النائب العام وغيره من المسؤولين الذين يحضرون المحاكم. ولم يمت الوقت بعد للعودة إلى الحكم والقانون وليس حكم الرجال

إذا كان من المشروع تعديب ابن أحد المعتقلين قال: «لست هنا لتقديم مشورة قانونية للحكمتك». وظهر ويليام هانبر المستشار القانوني السابق لوزارة الدفاع أمام لجنة مجلس الشيوخ وقال مرارا، وما على الأسئلة، إنه لا يتذكر وكان عائل أحد الأمصة في واشنطن بوسمت. عن شهادته أبو غريب لا أتذكر هذا الاسم.

التعديب بواسطة المسؤولين أمر يحظره القانون الجنائي الأمريكي وكذلك معاهدة منع التعديب الدولية ومعاهدات جنيف. وطبقا لما جاء في كتاب جين ماير الجديد. فقد انتهت لجنة الصليب الأحمر الدولية في تقرير لها في العام الماضي إلى ان اساليب التحقيق التي استخدمها وكالة الاستخبارات المركزية على مسجونين رفيع المستوى وكذلك تعديبها في نحو معتقل

وذكر كتابه The Dark Side: Inside Story of How the War on Terror Turned into a War on American Ideals (الجاناب المظلم، القصة الحقيقية لتعديب تحول الحرب على الإرهاب إلى حرب على المثل العليا الأمريكية) ان تقريراً للجنة الدولية للصليب الأحمر أرسل إلى وكالة الاستخبارات المركزية، سلطة الاعتقال، التي جاء مشاركا فيها الرئيس ووزير الخارجية، ويقول ماير ان التقرير فيه إلى ان الاساءة كانت تشمل جرائم حرب. مما يجعل أكبر المسؤولين في الحكومة الأمريكية معترضين لخطة مقاضاتهم.

على الأغلب ان تكون هناك مقاضاة أمريكية نون سهوا التعديب ولكن ربما لا يكون من الأمال البائز من منهم ان يأسفوا للخارج على نحو شخصي. ومن الممكن ان يصلح لخصم ما تحت شكك مبدأ الاعتقال الجنائي العالي بشأن ممارسي الانتهاكات الصارخ لحقوق الإنسان الذي تسلكه على مجلس الشيوخ عندما ألقى القبض على بينوشيه بناء على أمر قضائي إسرائيلي.

وقد حضر المعلقون المحافظون بالعدل من امثال المقاضاة الأمريكية في المستقبل. قالين ان هؤلاء المسؤولين لم تكن لديهم أية عناية. بالرغم من المعاملة المستهجنة لبعض معتقليهم. وعدم الموقلة غير مقنعة بناء على الحقائق. لأن الوزير راسمسلد وخبرين حذرهم قبل محامي البنتاجون والمخبرين والعسكريين. بمن في ذلك المستشار القانوني لبيتريه البنترو صورا. ان ام سيالستيف سوف تتحريك القانون.

وهي غير مقنعة طبقا للقانون. لأن الرؤية الخاطئة للتعديب ليست قضا على ظل المبادئ التي وضعت في محاكمات نورمبرج كما ان سوابق نورمبرج قد حُض مقولة دين

وصل في تعليمه إلى الصنف الرابع منهم بالتأمر مع واحد من أكثر الأشخاص رعباً في هذا الكوكب. يمكنه مقاضاة أكثر رجال العالم نفوذاً. وهو رئيس الولايات المتحدة ونظر قضيته. وهنا شيء على قدر كبير من العظمة فيما يتعلق بأمرها.

وهو ما أضاف إليه تشارلي سوفيت: فيمنا هي التي فازت هنا اليوم. مبادلتنا الخاصة بحكم القانون

[٥]

دفع سوفيت تمناً غالياً به البحرية مقابل عمله الناجح نهاية عن حمدان. فقد تخبطوه في الترقية واستقال

من تكليفه. وقد أصبح استناداً زائراً في مدرسة إسرئى للقانون. ومثل باعتباره محامياً مدنياً حمدان في إجراءات اللجنة العسكرية ضدته التي بدأت أخيراً في عام ٢٠٠٨. وبذلك لم يكن الكولون الذي صوبت للسلع عن القيم الأخلاقية

فأصبح جنرالاً أخضوني ناجوا. الذي عين لتحقيق في تلك اذ تم تعديب داخل سجن ابو غريب ووجد ان هناك إساءة إرهابية ماسجة. إلى المعتقلين. أجبر على التقاعد كتب الجنرال تاجوا مقدمة لكتاب Broken Lives, Broken Lives: Medical Evidence of Torture by US Personnel and its Impact

مصحفة. أرواح مصحفة. أدلة طبية على التعديب الذي مارسه أفراد الجيش الأمريكي وآثره وهو تحقيق أسدوره في شهر يونيو أظنا من أجل حقوق الإنسان عن الأثار الباقية على المعتقلين في عيون عليهم. بناء على الفصوص الطبية التي أجريت ليعظمهم. وقال الجنرال تاجوا إن القائد العام هؤلاء الدين تحت امرته صرخوا بطلب مغرب من التعديب.

وأضاف تاجوا: بعد سنوات من الإساءات بواسطة التحقيقات الحكومية. والروايات الإعلامية. والتقارير من منظمات حقوق الإنسان. لم يد هناك شك فيما إذا كانت الإدارة الحالية قد ارتكبت جرائم حرب أم لا. والأسؤال الوحيد الذي ما زال بحاجة إلى إجابة هو إذا كان الدين أسروا

بإستخدام التعديب مسجونين أم لا. حتى الآن. من سهوا التعديب كما اسماهم الجندون فراتكت. في حال طبية. ظهر يو وأندجتون في شهر يونيو أمام اللجنة القضائية في مجلس النواب. وقد حاشيا الإجابة على الأسئلة الخاصة بمسئوليتهم. وعندما سئل أندجتون عما

ولكن ما أغصيه هو أنه تحدث محاكمه حمدان أمام لجنة عسكرية. وعلى الفور فصل مكتب التحقيقات الفدرالي عنه وقد شاهدت كل من المحتمل ان يصبح مهماً.



كان القاضي العسكري الذي عينته السلطات العسكرية ممثلاً لحمدان في اجراءات اللجنة هو الملتفات كوماندر تشارلز سوفيت من البحرية. وقد عاد إلى المحلل. قائد رار حمدان في جواتانامو من محاولة لرفع منصفاته خلال سنوات من التقدم القليل على نحو محيط والمعاينة التي تقسم بالعقاب في السجن. (أضرب حمدان عن العلام وكان ينادي تقنية أسيرة لفترة طويلة.) تحدث سوفيت كك مع الصحافة. بحسرة وبأساءة عن عدم نزاهة طريقة عمل اللجنة.

زكريا موفيل الذي في القضية استناداً ممركر القانون في جماعة جوج كان اسمه ليد كاتيل ول هو دوره هو تولى التحدي المستوى لشروط اللجنة التي وضعها الرئيس بوش. وكانت تلك مهمة محققة. حيث بدأت بضرورة تأكيد حق المعتقل في رفع الدعوى القضائية في الاستانة بأخفايات جنيف. وقد قاوم معاجاة الحكومة الأمريين شاماً.

كان لدى كاتيل دافع قوي للنجاح في تكريسه لجهد في مراحل القضية المختلفة. ويصفه ماهر وهو يكتب سناً وعشرين مصفوة لمكافحة وجبر الحجة الشاغية في خمسة عشر مسمي قضائيا موضع جدل في خمس مدن. ويقول ماهر إنه جاء بمحاميين من مؤسسة كبيرة كمحام مشرورا ولكنه كان شديد الغرسة. بحيث لم يسمع إلى أرائهم. لقد كان يعمل بلا هوادة وينهى المكرة في الساعة ٥ ٩ صباح

اليوم (التي تعديبها فيه. وأثناء ذلك كله كان يشارك زوجته مذكرات داخل دراما صراية الأطفال. وقام برحلة إلى الهند للمساعدة في هن والده. وقد بلغ علاقتهم بتشارلي سوفيت حد الأزمة تقريبا.

وحتى نقرا هذا الكتاب نعرف ان المحكمة العليا ستستخدم القرار في النهاية. ولكنني وجدت نفسي داخل دراما صراع الحاميين الذي كنت أنتظره. مع قنهم. لزوية ما إذا كانت المحكمة سوف تستلر القضية أم لا. ومن ثم ما الذي سوف تفعل. وعند التوصل إلى حل خرج من المحكمة العليا قائل للصحيحين.

ما حدث اليوم هو أن رجلاً من اليمين.



جميع أنحاء العالم. وتختلف رحلتى اليومية هنا فى واشنطن العاصمة عن رحلتك فى لندن أو فى نيويورك أو فى هونج كونج. ومع ذلك فإنها ستبدو مألوفة على نحو مدهش.

تقع محطة مترو «فارا جوت ويست» Farragut West فى موقع مثالى لخدمة البنك الدولى وصندوق النقد الدولى وكذلك البيت الأبيض. فى كل صباح يظهر الركاب سريمو الغضب الذين لم يأتوا قسماً كافياً من النوم وهم خارجون من محطة فارا جوت ويست قاصدين الطوابق المختلفة فى مجمع «إنترناشيونال سكوير» International Square. بحيث يتمكن أن يمشوا بسهولة عن طريقهم المعتاد. إنهم ينشدون الالتزام عن الصباح والمصعب حول السائحين المتجولين. ويريدون الوصول إلى مكاتبهم قبل وقت قليل من وصول رؤسائهم. وهم لا يريدون باستخدام أى طريق غير طريقهم المعتاد، ومع ذلك فهناك مكان للسلام والإكرام يمكن أن يفرهم بأن يتأخروا لبضع دقائق. فى هذه الواحة، تقدم بعض المجلات التى يصاحبها إعلانات من نساء ورجال غريباء وجذابين. فالنوم وأيت إلتزام نادلة المقهى الفاتنة. التى تضع شارة تصيح عن أن اسمها «ماريا». المقهى الذى أقصده بالطبع هو مقهى «ستاركيس» Starbucks الذى يقع فى مكان يتحتم رؤيته عند المخرج المؤدى إلى إنترناشيونال سكوير. وهذا ليس بشيء غريب تلتصق به محطة فارا جوت ويست وحدها. فعلى سبيل المثال عندما تخرج من محطة مترو فارا جوت نورث Farragut North المجاورة، ستجد أن أول واجهة تجارية تلخص فرعاً آخر من فروع ستاركيس. وفى جميع أنحاء العالم، توجد مثل هذه المقاهى، التى تقع بأماكن

وإذا كنت تشتري مثلى قدراً كبيراً من القهوة، فربما تستنتج أن شخصاً ما يثرى شراء فاحشاً من وراء ذلك. فمن يكون هذا الشخص؟

لماذا نأكل ما نأكل؟

Tim Harford
م ه ا ر ف ا ر د

■ سواء كنت تعيش فى نيويورك أو ملوكيو أو التويرب أو براغ، يعتبر استخدام المواصلات العامة يومياً فى الرحلات الطويلة للذهاب إلى العمل والعودة منه تجربة حياتية مألوفة فى مدن العالم الكبرى. وهذه الرحلات اليومية لها تأثير عام وتأثير خاص. على نحو يفقد المرء حماسه، فالتأثير الخاص يحدث لأن كل راكب بمنزلة الفار الذى يدور فى متهاته الخاصة، فهو يقيس الزمن الذى يستغرقه بدءاً من حمام الصباح حتى الوصول إلى ماكينة التذاكر بمحطة المترو. ولكن يسرع من انتفاله بين القطارات المختلفة، تراء يعرف جداول مواعيد القطارات والاتجاه الصحيح للترصيف، ويفاضل بين مساوئ الوقوف فى أول قطار يمر عليه ويبس الجلوس فى حر قطار. ومع ذلك، فإن هذه الرحلات اليومية ينتج عنها تأثيرات عامة. مثل ساعات العروة والاختناقات المرورية، التى يستغلها أصحاب الأعمال لصالحهم فى

للإستزادة:

The Undercover Economist
Exposing Why the Rich Are Rich, the Poor Are Poor—and Why You Can Never Buy a Decent Used Car!
by Tim Harford
Random House Trade
Paperbacks, 2007

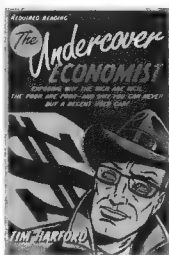
المحرر الأصصاااااا
تيم هارفورد
ترجمة: رشاد سعد ركي
مراجعة: سامح رفعت مهران
كلمات عربية للترجمة والنشر -
الطبعة ٢٠٠٨
كلمة هبة: نو طيب للثقافة والتراث

سيجنى كل الأرباح. تذكر ببساطة أن طاولات المقاهي يوجد على جانب منها نحو عشر شركات متنافسة على الأقل. وعلى الطرف الآخر يجلس مالك الموقع المتميز الذي تشهده هذه الشركات ويعد أن يجعل صاحب المقاهي هذه الشركات متواجده لتحتفظ بمصلحته الشخصية. يصبح قادراً على إملاء شروطه، وإجبار واحدة منها على دفع قيمة إيجارية. تستنزف تقريباً كل ربحها المتوقع. والشركة الفائزة بالمكان سوف تفتقر أنها ستحصل على بعض الأرباح وليس أرباحاً كثيرة، فلو بدت القيمة الإيجارية قليلة على نحو يساعد على تحقيق ربح. وليس فستحرب شركة مقام أخرى بدفع قيمة إيجارية أعلى قليلاً نظير حصولها على الموقع. وفي حقيقة الأمر يوجد عدد هائل من شركات المقاهي التي قد تاجر المكان. وفي الوقت نفسه عدد قليل من المواقع الجيدة لهذه الشركات. وهذا يعني أن ملاك المواقع همق اليد العليا.

وهذا بالطبع لنطبق نظري محض لذا يعدو من المطلق أن نسال أنفسنا عما إذا كان هذا هو ما يحدث بالفعل في عالم الواقع أم لا. عندما شرحت لصديقة لي. التي طالما عانت من القهوة - كل المبادئ المرتبطة ببساطة. سألتني عما لو كان بإمكانك إثبات ذلك. عندما قلت لها إن هذه مجرد نظرية أو كما يقول شيرلوك هولمز: قدر من الملاحظة والاستنتاج. مبني على الشواهد المتوفرة لنا جميعاً. وبهذا بصيغة أسبغيت أرسلت لي مقالا من صحيفة فاينانشيال تايمز Financial Times اعتمد على دلائل قدمها خبراء في الصناعة، ممن يعملون على حسابات شركات سلاسل المقاهي. بما في ذلك جملة: عدد قليل من الشركات يحقق أرباحاً طائلة، واستنتاج أن إحدى المشكلات الرئيسية هي التكاليف المرتفعة لتفصيل مسد بيع المستهلكين من مواقع متميزة تتمتع بحجم عقدا من التجارة العابرة. وفي الواقع فإن قراءة الحسابات أمر يبعث على الكآبة في حين أن العمل الاقتصادي الاستثنائي هو الطريقة الأسهل للوصول إلى نفس النتيجة

السوة من السندرة

فوجدت عندما كنت أتصفح كتب الاقتصاد القديمة التي احتفظ بها في مكتبة منزلي بأول تحليل اقتصادي ص مقاهي القرن الحادي والعشرين. ومع أنه نشر في عام ١٨١٧ فإنه لا يتناول بشكل المقاهي



برحلات يومية جنية وذهاباً. ولا يوجد اليوم كثير من الأماكن الجيدة التي يمكن أن تلائم إقامة المقاهي مثل مطابخ المحطات أو نواصي سوارج مزحمة. والسبب هو أن ستاريكس ومناقصه قد التهموا هذه الأماكن. فلو كان لشركة ستاريكس تأثير التتويج المغناطيسي على رباتها كما يزعم منتقدوها، فما كانت ستحتاج أن تبدل مثل هذا الجهد الهائل كي تجعلهم يترددون المقهى. فهاشام الربيع الجيد الذي تجنيه ستاريكس من بيع الكافوشينو لا يرجع إلى جودة البن أو طاقم العمل، ولكن بسبب موقع المقهى. ثم الموقع. ثم الموقع.

ولكن من يتحكم في الموقع؟ انظر إلى المقاهي التي تعقد قبل إبرام عقد إيجار جديد، فمما لسة جميع إيجارات جديداً سكوير لا تتمازج مع شركة ستاريكس فحسب، ولكنها تتفاوض مع شركات أخرى تضم سلاسل مقاه. مثل: كوري، وكاريسو كوفي Caribou Coffee. والشركات المحلية الأخرى التي لها مقاهي في واشنطن العاصمة. مثل: جاسا هانس House، وسوينجس Swing's، وكابيتول جرواندرز Capitol Grounds. وتييزمز Teasmis. فقد توقع مالك التجمع عقداً مع كل هؤلاء. أو قد ترم عقداً. حصرياً مع شركة واحدة منهم فقط. ولكن سرعان ما ستكتشف أنه لا توجد شركة تتحسس لنفخ قيمة إيجارية كبيرة مقابل مكان دوار ضرة مقام آخرى لذلك ستحاول أن تحقق أفضل ربح ممكن عند إبرامها العقد الحصري مع شركة واحدة منها. وفي محاولتك لاستنتاج من



المقطرة الذي يباع مقابل دولار لا يتكلف في الحقيقة سوى ٤٠ سنتاً. أما كوب القهوة الصغير المضاف إليه اللبن الساخن الذي يباع بسعر ٢٥ دولار فيحتكف أقل من دولار. هناك إذن شخص ما يحقق أرباحاً طائلة، فمن يكون هذا الشخص؟

ربما يكون هاورد شولتز Howard Schultz مالك سلسلة مقاهي ستاريكس هو أول من سيبتادر إلى ذهنك. ولكن الإجابة ليست بهذه البساطة. فالسبب الرئيسي في أن مقهى ستاريكس يستطيع مطالبته مرتزديه بدفع ٥٥.٢ دولار مقابل كوب الكافوشينو هو أنه لا يوجد مقهى بجواره يبيع هذا الكوب بدولارين. فلماذا إذن لا يوجد مقهى آخر يبيع القهوة بسعر أقل من ستاريكس؟ وبدون أن نبخس السيد شولتز حقه، فالكافوشينو في حقيقة الأمر ليس منتجاً معقداً. لا يعاني السوق أي نقص من الكافوشينو الصالح للشرب (ولأسف لا يعاني أيضاً أي نقص من الكافوشينو غير الصالح للشرب). والمره لا يحتاج إلى الكثير كي يشتري بعض مكينات إعداد القهوة ومضدة طويولة. ومنه اسم تجاري لبعض الدعاية وبعض العيانات المجانية، وتعيين طاقم عمل مهذب. فحتى ماريا يمكن استبدالها بأخرى. وفي حقيقة الأمر فإن أهم ميزة يتمتع بها ستاريكس هي موقعه على طريق مشاه يسير عليه آلاف القالهمين

يسهل الوصول إليها لتلبس احتياجات ركاب في أشد الحاجة إلى هذا المكان. فتجد مثل مقهى كوزي Cusi على بعد عشر ياردات من مخرج محطة مترو واشنطن دويون سيركل Washington Dupont Circle. وتفخر محطة مترو بن Penn Circle يوجد مقهى سياتل كوفي روسترز Seattle Coffee Roasters بالتضبط عند مخرج المحطة المؤدى إلى شارع إيثث أفينو Eighth Avenue. أما في محطة شنجوكو Shinguko في طوكيو فيستطيع المرء أن يتمتع بقهوة ستاريكس حتى دون مغادرة ساحة المحطة. وفي محطة ووترلو Waterloo في لندن تجد كذلك قوة تابعها لشركة أيه إم آي AMT بحرس المخرج المؤدى إلى الضفة الجنوبية لنهر التايمز.

لا يعتبر كوب الكافوشينو الكبير الذي يبيعه مقهى ستاريكس بسعر ٢٥ دولار رخيصاً، ولكن استطاع دفع هذا السعر، فتمن هذا الكوب لا يمشل لي، وأيضاً للكثيرين من مرتادي المقهى، أكثر من الأجر الذي أحصل عليه عن عملي لبضع دقائق. ومن المؤكد أنه ما من أحد من ميسيعين وقته لتتويج بضعة سنتات ليبحث عن مقهى أرخص في الساعة الثامنة والتعصف صياحاً. يوجد طلب هائل على المقهى الذي يحظى بأفضل موقع يسهل الوصول إليه، فالمحطة ووترلو على سبيل المثال يمر بها كل عام أربعة وسبعون مليون شخص. الأمر الذي يجعل موقع ذلك المقهى مسألة في غاية الأهمية.

لا يعتبر مقهى مقهى ستاريكس في محطة فارجلوت ويست موقفاً ذا قيمة لأنه يقع على طريق محطة شريط لورز الناس بين أرصفة المحطة في طريقهم وإلى خارجها، وإنما أيضاً لعدم وجود مقام أخرى على طول الطريق. فلا عجب إذن أن يحقق هذا المقهى أرباحاً طائلة. وإذا كنت تشتري مقهى قدر كبير من القوة، فربما تستنتج أن شخصاً ما يثرى ثراءً هائلاً من وراء ذلك. وإذا كانت حيلنا فارتد عن الصنف في، فلا عجب إذن أن يحقق هذا المقهى أرباحاً طائلة. وإذا كنت تشتري مقهى قدر كبير من القوة، فربما تستنتج أن شخصاً ما يثرى ثراءً هائلاً من وراء ذلك. وإذا كانت حيلنا فارتد عن الصنف في، فلا عجب إذن أن يحقق هذا المقهى أرباحاً طائلة. وإذا كنت تشتري مقهى قدر كبير من القوة، فربما تستنتج أن شخصاً ما يثرى ثراءً هائلاً من وراء ذلك. وإذا كانت حيلنا فارتد عن الصنف في، فلا عجب إذن أن يحقق هذا المقهى أرباحاً طائلة.

في محاولتك لاستنتاج من سيجني كل ؟ الأرباح، تذكر ببساطة أن طاولات المفاوضات



انتقال القدرة التفاوضية وتغير الأرقام المحللة المرتبطة بهذا الشأن وتحد من التمييز الفاجعة في قيمة إيجار الأرض ومع ذلك فإن تعقيدات الحياة اليومية غالباً ما تخفى الاتحاضات الكبيرة الكامنة وراء الأحداث، مثلما يحدث عند انتقال قوة الشدرة من مجموعة إلى أخرى. ووظيفة الخبير الاقتصادي هي تبسيط الصوء على العمليات غير الظاهرة، فلا ينبغي أن ندعش لو تحول سوق الأراضي فجأة ضد مصلحة المزارعين، أو لو ارتفعت أسعار المنازل ارتفاعاً حاداً، أو لو استألا العالم بالناقص في غضون أشهر قليلة، ولذلك نؤكد أننا ببساطة نللك القصص جزءاً من الحقيقة غير الظاهرة، ولكن هذا بالتاكيد يفيد في الكشف عن أمر مهم ألا وهو أن الشدرة التفاوضية والشدرة التفاوضية، تتغيران حقاً في بعض الأحيان تغيراً سريعاً وحدثان تأثيرات عميقة في حياة الناس، ونحن غالباً نشكو من أعراض الشدرة، مثل التكلفة المنزلية ولتنا في حقيقة الأمر لن نتمكن من علاج الأعراض بنجاح دون فهم نماذج الشدرة التي تعتبر أساس تلك الأعراض.

الأرض، الحديثة، وأهميتها الحيوية

لا يجب أن نتوقف التغييرات في القدرة التفاوضية عند ذلك الحد، فبينما يمكن أن تتعقد قصصنا عن المزارعة إلى ما لا نهاية فإن القواعد الأساسية تظل كما هي دون تغيير فمثلاً، لو استمر المزارعون في الاستيطان بالمتعة، فسينتهي بهم الأمر بأنهم لن يزرعوا الأرض الخصبة فحسب بل والأرض المعطاة بالشجيرات القصيرة أيضاً، فحينما يصل مستوطن جديد يدعى كوريليوس Cornelius فسيجد أن الأرض الوحيدة المتاحة أمامه هي الأرض العشبية الأقل إنتاجية حتى من الأرض المعطاة بالشجيرات القصيرة، وهنا نتوقع أن تحدث نفس عملية المفاوضات التي تحدثنا عنها آنفاً، سيعرض كوريليوس المال على ملاك الأرض في محاولة منه ليحصل على قطعة أرض مغطاة بالشجيرات القصيرة ليزرعها، وسرعان ما سيرتفع إيجار الأراضي المغطاة بالحاءش القصيرة، وينتهي أئذاك لن يبقى الفرق بين إيجار الأرض الخصبة

الغلة التي يحصلون عليها من زراعة الأرض، المغطاة بالشجيرات القصيرة دون دفع أي فلو كان الفرق في الغلة التي تحتجها كلتا الأرضين هو خمسة بوشل من الحبوب سنوياً، فإن الإيجار يجب أن يكون أيضاً خمسة بوشل سنوياً، أما لو حاول ملاك الأرض المطالبة بأكثر من هذا فسيذهب المستأجر إلى الزراعة في الأرض المعطاة بالشجيرات القصيرة، وإن قل الإيجار عن هذا، فسيترغب مزارع الأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة أن يدفع إيجاراً أكبر نظير زراعته للأرض الخصبة



قد يبدو من الغريب أن يحدث التغيير في قيمة الإيجار بهذه السرعة فقط لقدم رجل واحد آخر للزراعة في المنطقة، تبو هذه القصة عاجزة عن تفسير ما يجري حقيقة في أرض الواقع، ولكنها تحمل بين ثناياها قدر كبيراً من الحقيقة يوافق ذلك حتى لو كانت قصة مغررة في التبسيط، فوجد بالطبع أمراً آخر على أرض الواقع ينبغي أن تؤخذ في الحسبان مثل قوانين طرد المستأجر، والعقد طويلة الأجل، وحتى العادات الثقافية مثل حقيقة أن طرد شخص في يوم ليحل محله مستأجر جديد في اليوم التالي أمر غير لائق اجتماعياً،، وفي حقيقة الأمر يوجد أكثر من نوعين من الأراضي في دنيا الواقع، وسيكون أمراً محالاً خيارات مختلفة ليعمل في مجال عمل آخر غير الزراعة، فقد يتجه إلى العمل كمحاسب أو كسائق تاكسي، كل تلك الخيارات تزيد من تعقيد ما يحدث في عالمنا الواقعي، فهي تبطن من عملية

ويعني هذا أن الشدرة النسبية لو انتقلت من شخص إلى آخر، لننتقل معها الشدرة التفاوضية أيضاً، فإن هذا العديد من المهاجرين يعمرون المستوطنات حثو أكسيل، فإن مساحة الأراضي الزراعية الملائمة تنتقل إلى أن تنتهي تماماً، وما دامت توجد أي من هذه الأراضي، فإن المنافسة بين الملاك الذين لم يجهنوا أي مستأجرين لأراضيهم ستبقى الإيجار منخفضاً، ومع ذلك، يأتي في يوم من الأيام مزارع آخر إلى نفس البقعة، ولشموه بوب Bob، ليكتشف عدم وجود أي أرض خصبة فائضة ليزرعها، ويوجد أن البديل الذي أمامه هو زراعة أرض معطاة بالشجيرات القصيرة وإن كانت أقل خصوبة إلا إنها متوافرة بكثرة، وهو ليس خياراً جذاباً، فيعرض بوب بوب مبلغاً كبيراً لأي ملاك أرض حتى يطردهم أكسيل، أو أيًا من المزارعين الآخرين الذين يزرعون الأرض في الوقت الحالي دون دفع إيجار تقريبا، ليحل المستأجر الجديد محل أي منهم، ولكن مثلما كان بوب مستعداً لدفع المال نظير تأجير الأرض الخصبة بدلا من الأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة، فإن كل ملاك الإيجار الآخرين سيكونون على استعداد أيضاً لأن يدفعوا حتى لا يطردهم من أرضهم، وهكذا تغير كل شيء، وهكذا أيضاً حصل ملاك الأراضي بسرعة معالجة على قوة تفاوضية حقيقية، لأن المزارعين صاروا فجأة موردًا متوفرًا نسبياً في حين أن الأراضي أصبحت موردًا نادرًا نسبياً.

ويعني هذا أن ملاك الأراضي باتت لديهم القدرة على رفع قيمة الإيجار، ولكن بأي قدر؟ يجب أن يظل الإيجار كافيًا بحيث يحصل المزارعون على مقدار من الغلة من زراعة الأرض الخصبة بعد أن يدفعوا الإيجار للملاك، يساوي مقدار



عندما ينظر علماء الاقتصاد إلى العالم يرون أنماطاً اجتماعية مستترة



الحديثة فقط وإنما يتحدث أيضاً عن كثير من أحوال عالمنا الحديث كتبت هذا لتبسيط بعض ريكاردو David Ricardo الذي صنع من نفسه مليونيراً (بمعايير اليوم) من عمله كمسافر في سوق الأوراق المالية، ثم أصبح بعد ذلك عضواً في البرلمان، كان ريكاردو أيضاً رجل اقتصاد متحمساً يتوق لفهم ما حدث لاقتصاد بريطانيا خلال الحروب المابوليونية التي كانت قد انتهت قبل وقت قصير آنذاك، عندما ارتفعت بحدّة أسعار القمح وأسعار الإيجارات الأراضي الزراعية، وأراد ريكاردو معرفة السبب وأسهل طريقة لفهم تحليل ريكاردو هي تناول أحد الأمثلة التي استخدمها تخيل إحدى المناطق غير المزروعة بها عدد قليل من السكان ولكنها تتمتع بوفرة من الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة، وفي يوم ما يأتي مزارع شاب ملوح، يدعى أكسيل Axel، ويعرض على سكانها أن يدفع إيجاراً مقابل حصوله على حق زراعة الحاصل من فدان واحد من الأرض الخصبة، بالطبع يتفق الجميع بشأن كمية الغلة التي يتجنحها الفدان، ولكنهم في الوقت نفسه يجدون أن تحديد قدر الإيجار الذي ينبغي أن يدفعه أكسيل، ونظراً لوفرة الأراضي المحروثة المستروكة دون زرع، لن يتمكن ملاك الأراضي المتنافسين المتابعة في سعر الإيجار أو المطالبة بإيجار مرتفع على الإطلاق، ولهذا يفضل كل ملاك أرض الحصول على إيجار زهيد بدلا من عدم الحصول على أي إيجار من الأساس، من هنا، يخضع كل مالك أرض سعر الإيجار الذي يطلبه عن ذلك الذي يطلبه مناهسه، إلى أن يتمكن الشاب من البدء في الزراعة مقابل دفع إيجار ضئيل للغاية، يكون في الوقت نفسه كافياً لتعويض مالك الأرض عن متاعبه.

إن أول درس نتعلمه من هذه القصة هو أن الشخص الذي يمتلك أحد الموارد المرموقة - وهو مالك الأرض في تلك الحالة - لا يمتلك كثيراً من القوة التفاوضية كما قد يمتدح المرء كما لا تجربنا القصة عما إذا كان أكسيل فقيراً للغاية، أم أنه يصعب حزمه نفوذ في كعب حذائه، وذلك لأن هذا الأمر لا يشكل أي هارق في مسألة الإيجار، فالتقديرة التفاوضية تأتي من الشدرة الفاستوطون تارون بينما الأراضي الزراعية ليست نادرة، ولهذا فإن ملاك الأراضي ليس لديهم قوة تفاوضية.



الصينى أو السيارات المستعملة. ولكن لأن هناك وفرة فى الأماكن الأخرى منخفضة القيمة الإيجارية والملائمة لبيع السيارات المستعملة أو الطعام الصينى. ولن يكون فيها الزبائن فى حاجة من أسرهم بل أكثر استعداداً للتزدهد أو لطلب الطعام أما بالنسبة للمقاهى وغيرها من المنشآت التى تتبع الوجبات الخفيفة أو الجراندى. فإن القيمة الإيجارية المنخفضة لا تعوض خسارة وأرباب الزبائن الذين لا يدفعون إذا كانت الأسعار التى يدفعونها مرتفعة أم لا.

نماذج قابلة للتكيف

مع مجالات أخرى

استطاع ديفيد ريكاردو أن يكتب تحليلاً من مقاهى الكابوتشينو فى محطات المترو قبل أن تنجر إلى الوجود مقاهى الكابوتشينو فى محطات المترو. وهذا هو نوع الحيل الذى يجعل الناس إما يشعرون علم الاقتصاد. أو يصرن منه. فالذين يصرن منه يزعمون أننا لو اردنا فهم كيفية عمل تجارة القهوة فى العالم الحديث لا يجب علينا أن نقرأ تحليلاً عن الزراعة نشر عام ١٨٧٠. ومع ذلك والكتيبون منا يفرمون حقيقة أن ريكاردو. منذ حوالى مائتى عام. استطاع أن يخرج برؤية واضحة تشير طريقتنا اليوم نحو الفهم. فهم السهل أن ترى الفرق بين الزراعة فى القرن التاسع عشر. وبين بيع القهوة ذات الرفوة فى القرن الحادى والعشرين. ولكن ليس من السهل أن ترى وجه الشبه بينهما قبل أن يقوم أحدهم بتبسيط الضوء عليه. يدور علم الاقتصاد بقدر ما حول وضع النماذج الاقتصادية. وحول التبسيط يوضح عن المبادئ والأنماط الأساسية المستولقة من الموضوعات التى تبدو معقدة مثل إيجار الأرض الزراعية أو إيجارات المقاهى.

وثمة نماذج أخرى نجدها فى صناعة القهوة. والتى تعتبر نافعة للعديد من الأمور المختلفة. فمثلاً قد يكون نموذج التصميم المعمارى للمقهى مفيداً كدراسة حالة لمرسها الهندسون العاملون بجبال التصميم الداخلى. وقد يساعد أحد النماذج الفيزيائية فى تحديد الملاعب الشاطرنج للآلة التى تولد مقدار ١٠ صفحت

مرتفعة العيمة. فإن المواقع المتميزة للمقاهى تستحق هى الأخرى إيجاراً مرتفعاً إذا كان الزبائن سيدفعون أسعاراً مرتفعة للقهوة. وبالنسبة لكون زبائن سامة الذروة فى حاجة ماسة للكافيين. وفى عجلة من أمرهم بحيث إنهم لا يدفعون إذا كانت الأسعار التى يدفعونها مرتفعة أم لا. لذلك فإن استعدادهم لدفع أعلى سعر مقابل مقهى يتمتع بسهولة الوصول إليه هو السبب فى ارتفاع القيمة الإيجارية. وليس العكس. تنشأه الأماكن المناسبة لاكتشاف القهوة مع الأرض الخصبة فى أنها أفضل نوعية من الممتلكات الحضرية تناسبت الفرض المنشود منها. ولذلك نشد جميعها بسرعة. لهذا تجد المتاجر التى تقع على نواحي شوارع منطقة «ميد تاون مانهاتن» تحتجزها شركتنا ستاروكس. وكوزى إلى جانب الشركات المنافسة لها. أما بالقرب من محطة مترو دوپون سيركل Dupont Circle وفى واشنطن العاصمة. فتجد مقهى كوزى يحتل البعثة المتميزة عند المخرج الجنوبي للمحطة فى حين يوجد مقهى ستاروكس عند المخرج الشمالى لها. ناهيك عن ادعاء السيادة على الأرض فى الأماكن المواجهة للمحطات القريبة أعلى واسمل خط المترو. وفى لندن تجد مقاهى شركة إيه إن تى فى محطة ووترلو ومحطات كينجز كروس King's Cross. ومايريلبون Marylebone. وتشيرنج كروس Chanc Cross. وفى حقيقة الأمر فإن كل محطة مترو فى لندن بها فرع من فروع شركات المقاهى الكبرى. إن تلك المواقع كان من الممكن أن تستخدم فى بيع السيارات المستعملة أو الطعام الصينى. إلا أن هذا لم يحدث ليس لأن محطة المترو غير مناسبة لبيع الطعام



تبسيط النماذج الاقتصادية قد اشتهر بأنه يضل علماء الاقتصاد



من الميزة التفسيرية التى نراها فى فيلم مثل High Noon. لذلك لم أحصل أنا أو ديفيد ريكاردو على جوائز فى الكتابة السينمائية. ولكن ربما لدينا بعض العذر حيث إن القصص التى نسردها تخبرنا بالفعل بشيء مفيد عن عالمنا الحديث. يمكن أن تكون اكتشاف القهوة هى نقطة البدء. فلماذا ترتفع أسعار القهوة فى لندن ونيو يورك وواشنطن وطوكيو؟ قد تخبرنا هطرتنا أن القهوة غالية الثمن لأن اكتشاف القهوة تضطر لدفع قيمة إيجارية عالية. أما نموذج ديفيد ريكاردو الاقتصادي. فيستطيع أن يبين لنا أن هذه الطريقة خاطئة للتفكير فى تلك القضية لأن القيمة الإيجارية العالية. ليست حقيقة عشوائية من حقائق الحياة. وإنما لها سبب يبررها. يوضح المثال الذى استخدمه ريكاردو أن ثمة أمرين يحددان القيمة الإيجارية للمواقع المتميزة. تصاماً متكاملاً يتحدد إيجار الأرض الخصبة وفقاً للفرق فى الإنتاجية الزراعية بين الأرضى الخصبة والأرض الحدية. وأهمية الإنشائية الأرضية نفسها. فإذا كان سعر البوشل (مقياس لكيل الحبوب يساوى ثمانية جالونات) دولاراً فإن خمسة بوشل من الحبوب تستحق إيجاراً قدره خمس دولارات. وإن كان سعر البوشل مائتى ألف دولار. فإن خمسة بوشل من الحبوب تستحق إيجاراً قدره مليون دولار. وتستحق إيجاراً بقيمة إيجارية مرتفعة مقيماً بالمولود إذا كانت الحبوب التى تصاعد هذه الأرض على إنتاجها مرتفعة القيمة.

والآن دعنا نطبق نظرية ريكاردو على المقاهى التى تحدثنا عنها. ففهمنا تستحق الأرض الخصبة إيجاراً مرتفعاً إذا كانت الحبوب التى تنتجها هذه الأرض

والأرض الغطاء بالشجيرات القصيرة كما هو دون تخفيض (والأ فإن المزارعين المستأجرين للأرض الغطاء بالشجيرات القصيرة سيرغبون فى الانتقال إلى الأرضى الخصبة). ومن ثم يرتفع إيجار الأرض الخصبة أيضاً. ولهذا سيكون إيجار الأرضى الخصبة مساوياً دائماً للفرق فى محصول الغلة التى تنتجها الأرض الخصبة والذى تنتجته أى أرض أخرى يمكن للمزارعين الحد زراعتها دون دفع أى إيجار. ويسمى علماء الاقتصاد هذه الأرض الخصبة بالزراعتين الجدد. لأنها تقع على الحد بين كونهما مزرعة وبين غير مزرعة. (وسرعان ما سترى أن علماء الاقتصاد يشقون كثيراً بشأن القرارات التى تتخذ من الحد). فهى البداية. عندما كانت الأرضى الخصبة متوفرة على نحو يفوق عند المستوطنين المزارعين لزراعتها. لم تكن هذه الأرض أفضل أنواع الأرضى فحسب بل كانت هى كان بإمكانهم استغلالها. ونظراً لأن أفضل أنواع الأرضى كانت تولى نفس دور الأرض الحدية فلم يكن هناك إيجار بخلاف المبلغ البسيط الذى كان يعوض مالك الأرض من متاعبه. وفيما بعد. عندما زاد عدد المزارعين حتى لم يعد يكفيهم عدد الأرضى الخصبة المتوفرة. صارت الأرضى الغطاء بالشجيرات القصيرة هى الأرضى الحدية. وارتفع إيجار الأرضى الخصبة إلى خمسة بوشل سنوياً. وهو الفرق فى إنتاجية الأرض الخصبة والأرضى الحدية (أى الأرضى الغطاء بالشجيرات القصيرة فى تلك الحالة). وعندما وصل كورنيليوس. صارت الأرضى الحدية هى الأرضى الحدية. وبالنسبة إلى خمسة بوشل سنوياً. وهو الفرق فى إنتاجية الأرض الخصبة والأرضى الحدية. ولذلك تمكن ملاك الأرضى من دفع قيمة إيجار الأرضى الخصبة مرة أخرى. من المهم أن نشير هنا إلى عدم وجود قيمة مطلقة. فكل شيء يصبح نسبياً لهذه الأرض الحدية.

من الزراعة إلى اكتشاف القهوة مرة أخرى

إنها قصة لطيفة. ولكن قد يغفل أمثالنا ممن يحبون أفلام الغرب الأمريكى تلك الأفلام التى تتناول الشجاعة فى فيلم Unforgiven. أو شيئا



الخصبة ثم نطبق ما نتوصل إليه على نطاق أوسع.

نحن نعرف أن تحديد سعر إيجار أفضل أنواع الأراضي يتحدد بواسطة الفرق في الخصوبة بين الأرض الخصبة والأرض الحدية. لذلك فإن السبب الواضح في ارتفاع قيمة الإيجار هو أن الأرض الخصبة تنتج محاصيل عالية القيمة مقارنة بالأرض الحدية. وكما ذكرت آنفاً أثناء عندما يكون سعر البوشل للحبوب دولاراً وانحاز في الإنتاج خمسة بوشل فإن هذا المارق يستحق إيجاراً قدره خمسة دولارات، ولكن عندما يكون ثمن البوشل مائتي ألف دولار وانحاز في الإنتاج خمسة بوشل فإن هذا المارق يستحق إيجاراً قدره خمسة دولارات. والفارق في الإنتاج خمسة بوشل فإن هذا المارق يستحق إيجاراً قدره خمسة دولارات. وإذا كانت الحبوب غالية الثمن، يصبح من الطبيعي أن تكون الأراضي الخصبة النادرة التي تنتجها غالية الثمن أيضاً. وثمة سبب آخر يرفع سعر إيجار الأراضي الخصبة، وهو سبب لا علاقة له بالتقاضي الطبيعي للأموال، فنحن نرى أن ملاك الأراضي قد اجتمعوا معاً وتنجحوا في إقناع عمدة البلدة بضرورة وجود ما تسميه الجلترا «أحد قدامى المزارعين» وهو عبارة عن مساحة شاسعة من الأرض حول المدينة تطلق على الخصبة بحيث تعزل تلك مساحة قوانين التخطيط الصارمة استعمالها في أي مجال من مجالات التنمية العقارية. سيزعم ملاك الأرض حينها أن من العار إقامة المزارع على تلك الأرض البرية الراملة، ويطلبون بأن يمنع القانون زراعة.

وفي الواقع نستفيد ملاك الأراضي كل الاستفادة من مثل ذلك الحظر، لأنه يرفع سعر إيجار كل الأراضي التي لا يمنع القانون زراعتها. ونذكر أن إيجار الأراضي الخصبة يحدد الفرق بين إنتاجية تلك الأرض وإنتاجية الأرض الحدية. وبالتالي لو تمتعنا زراعة الأرض الحدية بأسر القانون فسيرتفع سعر إيجار الأرض الخصبة، فدادت يوم كانت زراعة الأراضي العشبية دون دفع أي إيجار هي البديل لزراعة الأراضي الخصبة ودفع إيجار معاليل الزراعة. أما الآن فلا يوجد بديل حيث يتفق المزارعون الآن كثيراً لزراعة الأرض الخصبة لأن زراعة الأراضي العشبية أصبحت أمراً معاملاً للقانون، وهكذا يرتفع أيضاً سعر الإيجار الذي يكون هوذا المزارعون على استعداد لدفعه. ما نحن قد كشفنا عن سببين وراء ارتفاع سعر إيجار الأراضي، أولهما، هو

العاملة من هجرة العمالة التي تعمل في وظائف لا تحتاج إلى مهارات خاصة

هل ستبالي إذا بيعت لك سلعة بئس أكبر بكثير من ثمنها الحقيقي؟ لا شخصياً سأبالي، فالحياة مليئة بالنسب باهظة الثمن وبالتأكيد هذا الغلاء ما هو إلا نتيجة طبيعية في بعض الأحيان لما للندرة من قوة. فمثلاً هناك عدد محدود من الشقق السكنية التي تطل على حديقة سنترال بارك Central Park في نيويورك، أو على حديقة هايد بارك Hyde Park في لندن، ونظراً لرغبة الكثيرين في امتلاكها، تصبح أسعار تلك الشقق باهظة الثمن، لنصل بنيتها الأمر بحسبة أمل الكثيرين الذين لا يستطيعون دفع ثمنها. صحيح أن هذه مسألة ليس فيها شر أو أذى، ومع ذلك فليس من السهل فهم السبب في أن العشار غالي الثمن للغاية في دور السينما حيث لم أجد نقصاً في العروض من الفشار خارج دور السينما في آخر مرة تحررت فيها عن هذا الأمر. لهذا فربما يكون أول شيء نرغب في عمله هو التفرقة بين الأسباب المتعلقة التي تتسبب في غلاء سعر السلعة.

وفيما يخص نموذج ريكاردو، ينبغي أن نعرف الأسباب المختلفة التي تتسبب في ارتفاع أسعار الإيجارات، فمعرفة هذه الأسباب قد تكون شقة بعض الشيء حين نتحدث عن الأراضي الخصبة. (وإذا كنت مزارعاً حينها ستكون شقة للغاية). ولكن معرفة الأسباب تصبح مسألة في غاية الأهمية عندما يتعلق الأمر بمعرفة لماذا تبدو أسعار إيجارات الشقق السكنية باهظة للغاية. ما إذا كانت الحبوب تزداد علينا أم لا، ومع ذلك يمكن أن نبدأ بمسألة الأراضي

ليصير توزيع الدخل في النظام الاقتصادي بأسره، مثل كم الدخل الذي يحصل عليه العمال، والدخل الذي يحصل عليه ملاك الأراضي، والدخل الذي يحصل عليه الرأسماليون. ولكن لم يحقق هذا النموذج نجاحاً تاماً في مهمته: لأن ريكاردو تعامل مع القطاع الزراعي بأكمله وكأنه مزرعة واحدة شاسعة يملكها فرد واحد. فالقطاع الزراعي الموحد لن يستفيد شيئاً من تحسين إنتاجية الأرض عن طريق تعميم الطرق، أو تحسين الري، لأن ذلك الأمور من شأنها أن تقلل من ندرة الأرض الخصبة. ومع ذلك فالملك الفرد حينما يكون في منافسة مع ملاك آخرين سيكون لديه الكثير من الدوافع لعمل تلك التحسينات. وبسبب اشتغاله بالتفاصيل الضنية دون غيرها أخفق ريكاردو في إدراك حقيقة أن الألاف من ملاك الأراضي ينافسون بعضهم بعضاً مما يجعلهم يتخذون قرارات مختلفة وليس قراراً واحداً.

وهكذا هليس بمقدور نموذج ريكاردو تفسير كل شيء. إلا أننا نودع على معرفة أن النموذج بمقدوره تفسير أمر لم يتصورها ريكاردو نفسه. لا يصير هذا النموذج المبادئ الكامنة خلف مقاييس القهوة والزراعة فحسب، وإنما إذا جرى تطبيقه على النحو الصحيح، يظهر أن التسريعات البيئية يمكن أن تؤثر تأثيراً كبيراً على توزيع الدخل، ويضر السبب وراء تحقيق بعض الصناعات بطبيعتها للأرباح العالية في حين تعتبر الأرباح العالية في بعض الصناعات الأخرى دليلاً دامغاً على الاحتمال، وكذلك فهو ينسجح في تفسير السبب وراء معارضة المسلمين لهجرة أسلافهم من المتعلمين في حين تشكو الطبقات



هل ستبالي إذا

بيعته لك سلعة بئس أكبر بكثير من ثمنها الحقيقي؟



جوي وهو المقدار اللازم لتجدير القهوة الإسبرسو، ونفس النموذج قد يصبح نافعاً عند الحديث عن صفات النشيط، أو محركات الاحتراق الداخلي، واليوم لدينا ضاحك من التباينات البيئية التي تحدثها الطرق المختلفة للتخلص من بقايا النفايات في قاع الفحاح. وكل نموذج منها مفيد لأمر مختلف. أما السبب، الذي حاول أن يصف في أن واحد كلاً من التصميم والهندسة وعلم البيئة وعلم الاقتصاد فإنه لن يكون أبسط من فهم نفسه وبالتالي لن يصيب شيئاً لهما

ويصلح نموذج ريكاردو الاقتصادي لمناقشة العلاقة بين الندرة والوفرة المتناضبة حيث يذهب النموذج إلى ما هو أبعد من القهوة أو الزراعة ثم يفسر لنا في النهاية كثيراً من أمور العالم التي تحدث من حولنا. فندمنا بنظر علماء الاقتصاد إلى العالم برون أنماط اجتماعية مستترية. ننصح جنية فقط عندما نرى ركركم المراد على الخصبة الجوهريّة غير الظاهرة. ويدفع هذا التركيز النقاد إلى القول بأن علم الاقتصاد لا يأخذ في اعتباره الأعراس برتمته أو النظام بأكمله. ومع ذلك كيف لتلخيص عن الزراعة يعود إلى القرن التاسع عشر أن يكشف حقيقة مقاييس القرن الحادي والعشرين. بعض النظر عن إحصائيه في ملاحظة كل أنواع الصروق المهمة والجواب هو أنه يتنذر في الواقع فهم أي مسألة معقدة دون التركيز على عناصر محددة تقلل من تعقيد، فيفضل علماء الاقتصاد التركيز على أمور محددة، والندرة هي أحد تلك الأمور، وهذا التركيز يعمل أننا نلاحظ الميكانيكا التي تعمل بها ماكينة إعداد القهوة الإسبرسو. واختيار الألوان المستخدمة في تصميم المقاهي، وغير ذلك من الحقائق المثيرة الأخرى، ومع ذلك فهذا التركيز يسيئنا أننا واحد الأشياء التي نستفيد منها فهم النظام، الفهم، لنظام الاقتصادي الذي يعد أشمل كثيراً مما قد يظن الكنبريون

ومع ذلك فيلزمهما قوس جرس تحديد. فنتبسط النماذج الاقتصادية. قد استشر بأنه يصلح علماء الاقتصاد حتى إن ريكاردو نفسه كان من أوائل صحابيه هذا التبسيط. فقد كان يحاول أن يمد نموذجه الاقتصادي الساجع والرائع عن المزارعين وملاك الأراضي



المأهول حتى إن الآخرين ينصبون إلى العمل بالبنك يستعدوا منهم الخبرة. كل هذا يقود إلى ما أسماه جيبير الاقتصاد جون كاي John Kay (الذي يشير بوضوح إلى مودج ريكاردو) إلى الميزة التنافسية المستدامة، والتي تعني ذلك النوع من التميز التنافسي في التفاصيل الذي ينتج عنه تحقيق أرباح العام تلو الآخر.

دعنا نطلق على هذا السلك اسم «مؤسسة أكسيل المصرفية». ونفترض أن هناك بنكًا آخر، ولنسمه «بنك بوب» للدين والأثمان، وهو بنك لا يتمتع بكفاءة كبيرة. واسمه التجاري أقل تعلقًا، وبه ثقافة تنظيمية مقبولة. وهذا البنك ليس سيئًا، ولكنه ليس ممتازًا أيضًا. ونفترض أن هناك بنكًا ثالثًا ولنسمه «مؤسسة كورنيليلوس للإيداع»، الذي لا يتمتع بأي درجة من درجات الكفاءة، وسيمتد غايته في السوق، ويعامل موظفوه العملاء بمعاملة، ولا يوجد به أي نظام تحكم في النفقات. فكفاءة «مؤسسة كورنيليلوس للإيداع» أقل من كفاءة «بنك بوب للدين والأثمان». وتقدم على الإطلاق مقارنته «بمؤسسة أكسيل المصرفية». كل هذا يتكرر بأنواع الكفاءات الثلاثة التي تحدثنا عنها: من أراض خصبة تتمتع بكفاءة في إنتاج الحبوب، وأراض مغطاءات المشجيرات القصيرة التي تكفأ، وأراض عشبية وهي أمانها كفاءة. وتتنافس «بنوك أكسيل وبوب» و«كورنيليلوس» على بيع الخدمات المصرفية بإقناع الناس بفتح حسابات لديهم أو الحصول على قروض منهم. وبالطبع فإن بنك أكسيل غايته في الكفاءة حتى إنه قادر على المنافسة إما ببيع الخدمات المصرفية بتكلفة أقل، أو بتحويل الخدمات وبيعها بسعر السعر وهو نهاية كل عام يعني بنك أكسيل الأرباح الوفيرة، ويعني بنك بوب، الذي لا يقدم لعملائه نفس جودة الخدمات، ربحًا أقل من أرباح بنك أكسيل، أما بنك كورنيليلوس، فبالكاد يغطي تكاليفه.

دعنا نتناول النظام المصرفي كمثال. هب أن أحد البنوك يتشوق لتقديم الخدمات المصرفية بقطاعًا كبيرًا، ويتمتع بثقافة تنظيمية رائعة، وباسم تجاري ذي ثقل، ونجح في تطوير أفضل برمجيات مصرفية متخصصة. ويمثل به الموظفون

هل نلق ضحايا جشع الشركات؟

من إحدى مشكلات أن تصبح مخبرًا اقتصاديًا، أنك ستبدأ في رؤية «أحزمة خضراء» من أنواع مختلفة في كل مكان. فكري تفريق بين السلع باهظة الثمن بسبب قدرتها الطبيعية وبسبب السلع باهظة الثمن بسبب أسباب مصطنعة مثل التبرعات أو اللوائح أو الخداع؟ يمكن أن يفيدنا نموذج ريكاردو في هذه المسألة أيضًا. فنحن بحاجة لأن ندرك المتعامل المستردين الموارد الطبيعية مثل: الحقول والمواقع التجارية المزدهرة والشركات. فالحقول تقوم بتحويل بعض الأغراض إلى أغراض أخرى، فيها يتحول السماد والبنود إلى حبوب. وهذا ما تفعله الشركات أيضًا. فمعمسو السيارات يحولون الصلب والكهرباء والكوالات الأخرى إلى سيارات. ومحطات الوقود تحول المضخات وخزانات الوقود الكبيرة وأرض المحطة إلى بنزين. والبنك يحول أجهزة الحاسب الآلي وأنظمة الحاسبة المتقدمة والتقود إلى خدمات مصرفية. وبدون أن نعدتي كثيرًا على حقوق الملكية الفكرية، يمكن أن نستبدل بكلمة «إيجار الأرض» في نموذج ريكاردو كلمة «ربح». فالإيجار هو العائد الذي يحصل عليه ملاك الأراضي من أملاكهم. ويربح هو العائد الذي يحصل عليه ملاك الشركات من أملاكهم أيضًا.

دعنا نتناول النظام المصرفي كمثال. هب أن أحد البنوك يتشوق لتقديم الخدمات المصرفية بقطاعًا كبيرًا، ويتمتع بثقافة تنظيمية رائعة، وباسم تجاري ذي ثقل، ونجح في تطوير أفضل برمجيات مصرفية متخصصة. ويمثل به الموظفون

في لندن أعلى منها في مانهاتن، أو هي وسعد طوكيو، هي حقيقة الأمر فإن أسعار إيجارات المكاتب في منطقة وست إند هي الأعلى في العالم. ويجانب المكاتب تنصمر المنطقة أيضًا التصنيف العالمي في علاه أسعار المنازل حيث يوجد بها أعلى منزل في العالم الذي بلغ لثمنه ٧٠ مليون جنيه إسترليني (أي حوالي ١٢٠ مليون دولار)، ويرجع هذا إلى أن الحزام الأخضر تسبب في جعل الممتلكات العقارية في لندن نادرة مقارنة بـمى يرغبون في استخدامها، وبالطبع فإن القوة تأتي من الندرة.

والآن أن الأول أن كي تؤدي أول اختيار في علم الاقتصاد، فإذا بعد التحسين في جودة الخدمات والأسعار في القطاع الذي ينقل ريكابي إلى محطه بين، في نيويورك من الضواحي المجاورة، أمرًا يسر كل المستأجرين لممتلكات عقارية في مانهاتن، ولما ربما يكون ملاك العقارات في نيويورك أقل حماسًا فيما يتعلق بهذا التحسين؟

الإجابة هي أن النقل العام المطور يزيد من البدائل فيما يتعلق بمسألة تأجير عقار في المدينة. فمتد ما يقل زمن رحلة القطار ليعمى ساعة واحدة بدل من ساعتين، ويكون بوسع الركاب أن يمسوا على مقاعد في القطار بدلًا من الوقوف، يسرى البعض منهم عندئذ أنه من الأفضل توفير المال والانتقال للنحية خارج في مانهاتن. وعندها ستظهر بالأسواق الشقق الخالية، وتقل التكلفة، وتنخفض أسعار الإيجارات. وهكذا فتطور الخدمات المقدمة إلى الركاب القاصمين برحلات يومية هو أمر لا يقتصر أثره على هؤلاء الركاب فحسب بل إنه يؤثر على كل المتعاملين في سوق العقارات في نيويورك.



يصلح نموذج ريكاردو الاقتصادي لمناقشة العلاقة بين الندرة والقدره التفاوضية

أن الأمر يستحق أن تدفع مبلغًا كبيرًا من المال مقابل إيجار الأرض الخصبة لأن الحبوب التي تنتجها تلك الأرض مرتفعة القيمة. وثانيهما، أنها تستحق الإيجار المرتفع؛ لأنه ليس أمامك بدائل أخرى. وهذه النقطة قد تصعب بالبدشة أولئك القراء الذين يؤجرون في الوقت الحالي أي ممتلكات عقارية في لندن، وهي المدينة التي يطوقها «الحزام الأخضر» الأصلي الذي أنشئ في الثلاثينيات من القرن العشرين. فهل السبب في علاه تأجير أو شراء الممتلكات العقارية في لندن لا يرجع إلى أنها أفضل بكثير من البدائل الأخرى وإنما يرجع إلى أن تلك البدائل أصبحت ممنوعة بامر القانون؟

في حقيقة الأمر فإن السبب هو خليط بين هذا وذلك؛ فمسألة أن لندن مدينة فريدة هي مسألة صحيحة لأن جبال فيها، وأنها مكان أفضل لأن توجد به الشقق السكنية أو حتى المبانى الإدارية على نحو يعوق أماكن أخرى مثل سبيري أو كانساس سيتي Kansas City. أو حتى باريس. وترجع أسعار الإيجارات المرتفعة إلى ذلك السبب بقدر ما، ولكن السبب الآخر في أن العقارات في لندن باهظة الثمن هو الحزام الأخضر. صحيح أن أحد تأثيراته المحافظة على لندن من التمدد العمراني إلى المنطقة المجاورة وهو أمر يرى الكثيرون أنه جيد. ولكن تأثيره الآخر هو أنه ينقل كمية ضخمة من الأموال من جيوب المستأجرين في لندن إلى جيوب الملاك؛ فالأحزام الأخضر تسبب في إبقاء أسعار المنازل والإيجارات في لندن مرتفعة بكثير عن المستوى الذي ينبغي أن تكون عليه، وذلك بنفس الطريقة تمامًا التي يقي فيها حظر الزراعة على الأرض العشبية قيمة الإيجار للأرض الخصبة والأرض المغطاء بالمشجيرات القصيرة مرتفعة بكثير عن المستوى الذي ينبغي أن تكون عليه إذا لم يكن هذا الحظر موجودًا.

وليس هذا نقدًا لفكرة الحزام الأخضر. فهناك فوائد جمة من تحديد عدد سكان لندن عند ما يقرب من ستة ملايين نسمة بدلًا من أن يصبح ستة عشر أو ستة وعشرين مليون نسمة. ولكن عندما نقوم بتقييم مزايا مساوئ إصدار تشريع مثل تشريع الحزام الأخضر فمن المهم أن ندرك أن تأثيراته أكثر من مجرد الحفاظ على البيئة. فأسعار إيجارات المكاتب في منطقة ويست إند West End



«إيجارات» السواد

لا تقتصر الرعية في تجنب المنافسة والحصول على إيجارات احتكارية على ملك العقارات وأصحاب الشركات. فهذه الرغبة تدعو أيضاً كلاً من الثقافات العمالية وجماعات الصفوف ومن يدرسون للحصول على مؤهلات متخصصة بل وحتى الحكومات المحلية. فكل يوم يدعوا الناس من حولنا تجنب المنافسة، أو الحصول على نتائج جهد الآخرين الذين نجحوا في فعل هذا، يسمى علماء الاقتصاد هذا النوع من السلوك «خلق الإيجارات» والسعي وراء الإيجارات.

ليس من السهل فعل هذا، فالعالم مكان تنافس طبيعيته، ومن الصعب أن يعمل المرء فيه دون منافسة. وهذا أمر طيب لأنه إذا كانت المنافسة أضعف لبعضها فكلنا نستفيد عندما يتعامل مع الناس يتنافسون ليقدموا كل الوظائف والصناعات والاستخدامات بفعالية في مكان ذي طقس يبيع تماماً مثلما استفاد ملاك الأراضي في مثالا الافتراضى من المنافسة بين أكسيل وبوب.

يعتبر التحكم في أحد الموارد الطبيعية مثل الأراضي الزراعية أحد الطرق لتجنب المنافسة. صحيح أن هناك عدداً محدوداً من الأراضي الخصبة في العالم، ولكن بإمكان الثقافات الزراعية المتطورة أن تزيد من هذا الرقم. ولكن الأرض الزراعية ليست المورد الطبيعي الوحيد المحدود في العالم، فالتنافس مورد آخر محدود حيث تنافس بعض دول العالم بتكلفة منخفضة لا سيما السعودية والكويت والعراق ودول الخليج الأخرى، وعلى التنافس تتجه بعض الدول الأخرى بتكلفة عالية مثل الأسماك ونيجيريا وسبيري والبرتا. أما في أنحاء عديدة أخرى من العالم فترفع تكلفة استخراج النفط ارتعاشاً هائلاً حتى إنه لا يوجد أحد يفكر في استخراجه. وفي الوقت الحالي فإن الأماكن مثل البرتا هي المنتج «الحدى» للنفط.

يصلح تاريخ صناعة النفط أن يكون دراسة حالة عند دراسة نظرية الربيع لريكاردو. فعلى عام 1973م كالمعروض العالمى من النفط ينتج بواسطة دخول النفط الخصبة، التي توجد في أغلب

الصناعة يصعب عليهم إحداث صجة إعلامية عن منتجاتهم. كما يحدث في كثير من الأحيان أن تضغط الشركات نفسها على الحكومة طالبة الحماية من المنافسة، ولذلك نجد العديد من حكومات العالم تمنح تراخيص احتكارية، أو تجدها تضع القيود الصارمة على دخول سوق الصناعات الحساسة، مثل البترول أو الزراعة أو الاتصالات. ولكن تعددت الأساليب والتأثير واحد: تحصل الشركات الراسخة في السوق وهى في بعد عن المنافسة على الأرباح العالية. وفى حقيقة الأمر، يطلق علماء الاقتصاد كثيراً على هذه الأرباح اسم «الإيجارات احتكارية» monopoly rents نظراً لوجه الشبه بين الإيجار الذي يفرض على الأرض في ظل وجود عدد قليل من البدائل والأرباح التي تحصل عليها الشركات في ظل وجود عدد قليل من المنافسين. قد يكون مصطلحاً محيراً، ولكن يمكنك أن تفكر باللوم على نموذج ديفيد ريكاردو وعلى نقص القدرة على التحليل عند علماء الاقتصاد منذ ذلك الحين.

إذا أدركت معرفة ما إن كنت قد وقعت ضحية شئ متاجر البقالة، أو البترول، أو شركات الأدوية، يمكنك معرفة كم تجنى تلك الشركات من أرباح. فلو كانت تجنى أرباحاً عالية، أبداً أشك في أمرهم. أما إن كان من السهل إنشاء شركة جديدة تنافسهم في مجال عملهم، فسيفعل شئ محوهم. وهذا يعنى أن الأرباح العالية ترجع إلى الندرة النسبية، بعلمى العالم نالفل قلبه عدد المؤسسات المصرية الجديدة ونحن نعلم أن المؤسسات المصرية القديمة تنفق على كفايتها كثيراً عن نظيرتها السنية.

وبوب الكثير من النقود. (أما بنك كورنيليوس الذي يعد بمنزلة البنك الحدى فيسبني ربحاً ضئيلاً.) وسيكون عندئذ يوسع الكتاب في الصحف أن يشتتكو من التسبب المفرط لهذه الشركات. أما لو كان العملاء يهتمون بالخدمة الممتازة بقدر فضيل، فسبني أكسيل وبوب أرباحاً تزيد قليلاً عن تلك التي يجنيها كورنيليوس (الذي لا يزال يعتبر البنك الحدى ولا يزال يجنى الربيع الضئيل). وسيصبح متوسط الأرباح منخفضاً، وعندئذ سيصمت الصحفيون رغم عدم تفسير دوافع وإستراتيجيات الصناعة حيث إن الأمر الوحيد الذي تغير هو أن العملاء أصبحوا يهتمون بالخدمة الممتازة بكم كبير. وهكذا فليس لدينا سارق أو مسروق وإنما يكافئ كل من أكسيل وبوب لأنهما يحرصان شيئاً يتميز بالندرة والتقدير الكبير لأهميته في أن واحد. ولكن تلك الأرباح العالية لا تتحقق دائماً على نحو عادل، فأحياناً يكون غضب الصحف له ما يبرره. هناك تفسير آخر للأرباح للشركات، فمماذا لو كان هناك حزام أحقرى مصرقى يمنع بنك كورنيليوس من دخول السوق ممناً تماماً؟ يوجد بالفعل على أرض الواقع العديد من الأسباب التي تجعل الشركات الجديدة عاجزة بعض الأحيان يكون العملاء أنفسهم من الدخول إلى الأسواق والمنافسة، وفى بعض الأحيان يكون العملاء أنفسهم سبباً في هذا، فهم لا يتعاملون إلا مع المنتجات ذات الأرباح الراسخة في السوق. ولماذا تجد الشركات الجديدة صعوبة في دخوله، يفيد جون كاي أن بعض الشركات، بالمرحبة، مثل العازل الطبي والظوظ الصحية تجنى الكثير من الربح لأن الداخلين الجدد إلى تلك

ويكون تكرار كل خطوة من خطوات التحليل. يمكن أن ندكر نحننا بأن إيجار الأرض الخصبة جرى تحديده عن طريق المقارنة بين إنتاجيتها وإنتاجية الأرض الخصبة الحديثة. ونفس الطريقة فإن طريق بنك أكسيل سيجرى تحديدها عن طريق المقارنة بينه وبين بنك كورنيليوس، البنك الحدى، الذي نعرف أننا ينبغي أن نتوقع منه أن يجنى الأرباح القليلة، أو حتى لا يجنى أرباحاً على الإطلاق فأرباح الشركات مثلها كمثل إيجارات الأرض تحديدها البدائل، فالشركة التي تواجه منافسة قوية ترحب أرباحاً أقل من الشركة التي تواجه منافسين غير أكفاء. قد نلظن أن هناك شيئاً في هذه المقارنة، فقد نقول إن الهدنة الأرضية الخصبة عدها معدة، ولكن الشركات يمكنها أن تنمو. ولكن هذا ليس صحيحاً تماماً، فالشركات لا يمكنها أن تنمو بين عشية وضحاها دون أن تكتشف سمعتها وسعة الطموحات الأخرى التي دفعها نحو النجاح - من ناحية أخرى، بينما يستحيل أن يتغير عدد الأفئدة، فإن التمييز بين الأنواع المختلفة من الأرباح سوف يتغير بمرور الزمن من تطور نظم الري ومكافحة الآفات وتقنيات الأسعد. إن نموذج ريكاردو، الذي يتجاهل تلك التغيرات التي تحدث بمرور الزمن، سوف يفسر الاتجاهات في أسعار المنتجات الزراعية على مدار العقود وليس على مدار القرون. ولكنه سوف يفسر ربحية المؤسسات على مدار السنين وليس على مدار العقود. وهذا التحليل شأنه شأن الكثير من النماذج الاقتصادية سويدي وظيفته جيداً عندما يطبق خلال فترة زمنية محددة، وهى كالتنا هذا، تكون النظرية الجديدة على المدى القصير أو المتوسط أما بالنسبة إلى الفترات الزمنية الأخرى، فهناك نماذج اقتصادية أخرى تقطع في هذا الصدد.

كل هذا رائع ... ولكن ما علاقة هذا بجيش الشركات؟ كثيراً ما نجد الصحف تتحدث عن الأرباح التي تجنيها الشركات وكأنها تعتبر هذه الأرباح علامة على أنها تش المستهلك. فهل هذه الصحف محقة؟ ليس دائماً. يقول تحليل ريكاردو إن هناك سببين ربما يدفعان متوسط الأرباح إلى تحديدها صناعة مثل صناعة البترول إلى الارتعاش. فلو كان العملاء يقدرون حقاً قيمة الخدمة الممتازة والسعة الطيبة، فسبني بنك أكسيل



العالم مكان تنافس طبيعيته. ومن الصعب أن يعمل السرد فيه دون منافسة





معالى فيها للمطاعم كطريقة لتريح المال. والصيب واضح بالطبع، فالمطاعم على وجه الخصوص معرضة لوقوع ضحية لانتزاع الأموال لأنها لا ترغب في أن تجلب لنفسها جليدة تزيد عنها الزبائن. وفي الوقت نفسه تعالى تلك المطاعم في أسعار خدماتها حتى تستطيع أن تدفع منها الضريبة التي تدفعها للمنافيا مقابل الحماية. في العادة تجتذب الأعمال المريحة المنافسة، ولكن في هذه الحالة فإن المنافسة تؤمن بوجود وجود وسيلة أكثر أماناً لكسب العيش.

وهذا يعني أن هذا النوع من العنف ليس هو الذي يهتج الأرباح المستدامة ويخلق حواجز لمنع دخول الأسواق، ولكنها هامة إلى النقطة التي يملكها بذلك. ويفتقر إليها تلك كورنيليوس، تماماً مثلما تقتصر عليها عصابات المافيا السوارة العادية. ويتمتع عصابات المافيا بالكثير منها.

مؤامرات ضد عوام الناس

لحسن الحظ أنه يمكنك في الأماكن الراقية في العالم المتقدّم الاحتفاء بمن يستخدمون العنف لمنع المنافسة، ولكن هذا لا يعني أن الناس لم يتطوروا وسائل أخرى للتحقق من المنافسين.

والنقايات المعالية مثال جلى على هذا. فالعارض من النافذة هو مع العمال من منافس بعضهم بعضاً على فرص العمل حتى لا تنخفض الأجور وتذهب ظروف العمل. فعمل زائد مثلاً الطلب على الكهربائين مع قلة من يتقنون تلك المهنة، سيصبح من يتقنونها قوة مستمدة من تدريهم. ومن ثم، يحصلون على أجور وظروف عمل ممتازة، سواء كان ذلك في ظل وجود أو عدم وجود نقابة لهم. أما إن ظهر في السوق المزيد والمزيد من الكهربائين، فستنهار تلك القوة وسيؤدى الكهربائيون الجدد نفس دور المزارع بوب الذي تحدثنا عنه من قبل.

صحيح أن وظيفة النقابات العمالية هي التفاوض باسم العمال جميعاً، ولكن من وظائفها أيضاً سد الطريق أمام دخول العمال الزائدين عن الحاجة إلى المهنة. ومع دخول الآلات في الصناعة بشكل كبير في القرن التاسع عشر كان دافع الناس لتشييد النقابات له مبرراته. فقد كان العمال

تكون بمنزلة عنصر إغراء يدفع العصابات الأخرى لمحاولة السيطرة على أرضها. وسيكون هناك كثير من المنافسين. استطاع كل من خبير الاقتصاد ستيفن ليفيت Steven Levitt وعالم الاجتماع سوبر فينكاتيش Sudhir Venkatesh تقصى المكايب التي تجتنبها إحدى عصابات الشوارع الأمريكية واتضح لهما أن «جود المشاة» هؤلاء ينجون أحياناً مكسباً ضئيلاً قد يصل إلى ١٠٠ دولار في الساعة. وهناك بالطبع احتمالات لزيادة هذا الأجر نظراً لانخفاض التكاليف في عدد افراد العصابات، فمنهم من يتركب العصابة، ومنهم من يقتل، وهذا يحدث طوال الوقت؛ ولكن حتى مع تلك الاحتمالات يبقى متوسط مكسب الفرد منهم أقل من عشرة دولارات في الساعة. وهذا ليس بالمبلغ الكبير بالنظر إلى أنه في فترة عمل تستمر أربعة سنوات، يكون من المبلغ أن يخلقه عليه النجار مرتين، ويعتقل ست مرات، واحتمال بنسبة ٢٥، أن يتعرض للقتل.

وتحقق بعض التنظيمات الإجرامية نجاحاً أكثر من هذا. فمعصابات المافيا غالباً ما تتهنى أعمالاً مشروعة مثل تنظيف الملاهي على اختلاف أنواعها. وهو مجال يمكن أن يحقق أرباحاً طائلة فقط لو منع المنافسون من دخوله. وقد حقق ذلك بترتيب المنافسين، وهو أمر في غاية السهولة حيث إن العشور على الشاحنات التي تحمل الملاهي وتديرها أو حتى تدمير المخالف نفسها، أسهل بكثير من العثور على كمين من الكوكايين وتدمير. ومن السهل أيضاً ترحيب الزبائن، فالتعاون لمسلح ذا سوبرانو The Sopranos يخلصون أن عصابات المافيا توفر خدمات الفصيل بأسماء

ساعات في تسعينيات القرن العشرين. كان إنتاج النفط المستخرج من أرض الحفول في السعودية والكويت تكلفة إنتاج تبلغ مئمة دولارات للبرميل، بعد مكسباً صافياً.

متى تفيد الجريمة؟

لا يرتبط جانب كبير من الاقتصاد العالم ارتباطاً وثيقاً بالموارد الطبيعية المحسودة. ويمتد هذا إلى البشر عليهم إيجاباً وسلباً أخرى لمنع المنافسة.

ويعد الجيود إلى العنف أحد الوسائل الشائعة وعلى الأخص في تجارة المخدرات وغير ذلك من ضروب الجريمة المنظمة. يفضل تجار المخدرات عدم وجود منافسين يدفعون أسعار المخدرات للانخفاض. ومن الممكن أن يؤدي قيام عصابة إقليمية بقتل عدد كاف من البشر أو إجرامهم ضريباً مبرحاً أن يتسنى للعصابات المنافسة من الدخول إلى السوق لتتمتع تلك العصابات بالأرباح الطائلة. وهذه المصروفات غير قانونية بالطبع، ولكن هذا الوصف ينطبق أيضاً على تجارة المخدرات؛ فهو كنت ستحاطر بدخول السمين في كل الأحوال، لا يوجد مخزى من استخدام أنصاف الحلول. فهو أراد تجار المخدرات التمتع بقوة تمنحها لهم القدرة، فعملهم فعل كل ما في وسعهم حتى تكون المنافسة ذائرة. وبالطبع ليس من المحتمل أن يشكو زبائنهم للشرطة من جشع تجار المخدرات.

ولسوء حظ عصابة المخدرات البتة والعداينة أن العنف قد لا يكفي لجنى الأرباح؛ فالعصوية تكمن في أن كلا من الأسلحة والرجال عنواني السلوك متوفرين بكثرة. فأى عصابة تكسب جيداً

الأرباح في الشرق الأوسط، وبالرغم من أهمية النفط الهائلة للاقتصادات الصناعية، كان سعر النفط منخفضاً جداً - أقل من عشر دولارات للبرميل - في حقبة المولار اليوم. وذلك لأن النفط آنذاك كان متوفراً بكميات كبيرة وبسعر ضئيل جداً. وفي عام ١٩٧٢ قررت منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) التي تجلس على معظم حقول النفط الخصبة، أن تدع بعض من حقولها دون عمل، من طريق توجيه الأمر إلى كل الدول الأعضاء بها بأن يقللوا من إنتاجهم. وعندئذ قفزت أسعار النفط إلى أربعين دولاراً للبرميل، ثم إلى ثمانين دولاراً بعدها. وذلك حسب قيمة الدولار اليوم. وفي سعر النفط مرتفعاً لسنوات وذلك بسبب قلة وجود موارد بديلة للنفط على المدى القصير آنذاك (يعادل هذا في مثال ريكاردو الافتراضي التوقف فجأة من زراعة الأرض الخصبة الأمر الذي يترك فترة زمنية قبل أن يتم تشذيب وحرث الأرض العشبية، مما يتسبب في نقص المياه في الحبوب إضافة إلى زيادة عدد الريح).

ومع ارتفاع سعر برميل النفط إلى ثمانين دولاراً، بدأت العديد من البدائل أرخص ممناً نجاً إليها الشركات لسنوات، مثل توليد الكهرباء باستخدام الفحم عوضاً عن النفط، وتصميم سيارات جديدة أكثر كفاءة في استهلاك البنزين. والتشجيع من النفط في أماكن مثل البرتا والاسكا. ومن ثم حث المزيد والمزيد من مصادر الطاقة البديلة بالمشروبات الخفيفة، وموارد الطاقة البديلة بالاعتماد، وإفراط أسعار النفط مرتفعة، اضطرت الأوبك OPEC إلى قبول أن يكون لها حصص أصغر من السوق العالمية للنفط. وفي النهاية أعلنت السعودية تمرداً على ذلك النظام عام ١٩٨٥ وازدادت من إنتاجها من النفط حتى انهارت الأسعار عام ١٩٨٦. وبخسعة أعوام مضت كان سعر النفط يغطي بالحد تكلفة إنتاج حقول النفط الحديثة في أماكن مثل البرتا التي تتراوح بين خمسة عشر وعشرين دولاراً للبرميل. وفي السنوات القليلة الأخيرة أصابتها الهلوس بسبب مزيج من الإرتفاع المبالغى في الطلب على النفط من جانب الصين، ومشاكل الإنتاج في السعودية والعراق ونيجيريا وفنزويلا. وقد تسبب كل هذا في ارتفاع أسعار النفط إلى أكثر من خمسين دولاراً للبرميل. ومع ذلك، فحتى مع الأسعار المنخفضة التي



ما زال الجدل مستمرا في التمحور حول نفس السؤال القديم: هل يسرق المهاجرون وظائفنا؟



تعييدات الحياة اليومية غالباً ما تخفي الاتجاهات الكبيرة الكامنة وراء الأحداث، مثلما يحدث عند



حاجة إلى العمالة الرخيصة وذلك كجزء من عملية إسرائيلية تضيق إلى الحياة الاقتصادية والتنافية لكل دولة. في حين يرفض جيل المعلمين جيداً أي حجرة جديدة لهاجرين يعملون في أعمال لا تحتاج إلى مهارات خاصة، متلهفين بالقول إنهم يسرقون وظائفنا، ربما يتصف هذا القول بكثير من المبالغة ولكنه يبدو منطقياً من وجهة نظر أصحاب المصالح.

وباعتباري أحد العاملين في أعمال تحتاج إلى المهارة فإنني استاء من معارضة قدوم المهاجرين، بل أرغب في رؤية المزيد منهم. ولكن لو كنت من الجانب الآخر، هل كان هذا سيصبح رأيي أيضاً؟ إن احتاجت الدولة إلى عمالة تبحر الأعمال الناعقة في وظائف تتطلب أو لا تتطلب المهارة، فمن مصلحتي المبشرة أن أرى هجرة مزيد من العمالة غير المهارة إلى دولتي، الأمر الذي يضر بطريقة مباشرة أيضاً بالعمالة غير المهارة بأفضل.

تحليل أثنى أنا وغيري من المواطنين الحاصلين على تعليم عالٍ كملك لا للأرض، ولكن استبدل بكلمة «الأرض الخصبة» كلمة «الشهادة الجامعية»، فهاراتي وطاقاتي تعد مورداً شامناً شأن الأرض الخصبة. ولكن في مهاراتي متبحر مهارة لا تحتاج دوراً، فها نحن المهارات التي يفترض أن انتعج بها) بالعمل الجاد للبلدين المساعدين بالتجارة ومنظمي الضريبة على الأرباح تكون قد أصبحت قريباً منتجاً، أما من هنا يحصل على العوائد، فهي أمر يعتمد على أن تتمتع مهاراته بالندرة. فإن نقصت بالدولة العمالة غير المهارة ممن يعملون في تنظيم الضريبة على الأرباح، يجب عندئذ أن ترتفع أجورهم حتى تجتذب مزيداً من الناس للعمل في هذه الوظيفة. أما إذا نقص عدد المديرين المهرة وامتلأت الدولة بمنظمي الضريبة على الأرباح غير المهرة، فسأحصل على أجر مريض بسبب هبة ندرتي مثلما يحصل مالك الأرض على إيجار مريض بسبب ندرة الأرض التي يملكها بمجرد أن يظهر العدد الكافي من المزارعين.

يعزو البعض سبب معارضة الطبقة العاملة لهجرة الأجانب إلى العنصرية. وهناك نظرية بديلة أكثر إغتنافاً تقول بأن

التقدمين كل عام، فالعديد من المنظمات التي تتوقع منها حمايتنا من أصحاب المهن غير المهنيين، هي في الواقع تسعى للحفاظ على الرواتب العالية التي يحصل عليها «المؤهلات» الذين يزاولون المهنة بالفعل. وبالفعل كثير منا لا يمانع أن يحصل على استشارة قانونية من المحامين ذوي الخبرة حتى وإن كانوا يفترضون إلى المهلات الرسمية، بل إننا نحصل أحياناً على الاستشارة الطبية من طلبة كلية الطب، أو الأطباء الأجانب أو العالجين بالطب البديل. ولذلك يبدل القانونون على استئجار الأرض البور أو الأرض العشبية. لا عجب إذن في وصف جورج برنارد شو George Bernard Shaw للمهن بأنها «كلها مؤامرات ضد عامة الناس».

والآن ننقل إلى شيء مثير للجدل

دائماً ما كانت الهجرة قضية مثيرة للمناقشة في أمريكا، ومع أن الأمن القومي أصبح مدعاة للقلق مؤخراً، فما زال الجدل مستمراً في التصحور حول نفس السؤال القديم: هل يسرق المهاجرون وظائفنا؟ ربما يكون أحدهم قد سرق وظيفة، أو أطفيتك، أو وظفيتك فلم يسرقها أحد.

يرحب بالهجرة كل من العمال المتعلمين ذوي الوظائف التي تتطلب المهارة والتدريب، وكافة الأعمال ممن في

أما في الصناعات الأخرى فليس تنافس الطلب هو الذي يحد من قوة النقابات ولكنه العمال المناهرون. ففي الولايات المتحدة مثلاً تتمتع شركة Wal-Mart بقدرتها تفاوضي هائلة، فقد كان هناك فرعان لشركة فقط، يتبعان للنقابة في أمريكا الشمالية في صيف ٢٠٠٤ م عندما أعلن المسؤولون بالشركة أن أحد هذين الفرعين في مقاطعة كويبيك Quebec الكندية سيغلق: لأن النقابة كانت تدمر نموذج عملها. وفي المملكة المتحدة يحصل المعلمون على رواتب منخفضة بالرغم من حقيقة أن هناك نقصاً في المعلمين الأكفاء. ويرجع هذا إلى أن الحكومة، وهي رب العمل الوحيد بالدولة، لديها قدرة تفاوضية هائلة. ففي العادة عندما يوجد نقص في الأيدي العاملة الخاصة بمهنة ما تتسبب المنافسة بين أرباب العمل في رفع أجور العمال، فقط رب العمل الذي يحتكر مجالاً ما هو الذي يمكنه المحافظة على وضع ينقص فيه بشكل حاد عدد المعلمين في حين لا ترتفع الرواتب استجابة لذلك النقص. فالمدارس يمتلئون ببعض القوة التي يستمدونها من ندرتهم. ولكن في تلك الحالة تتمتع الحكومة بقوة أكبر.

ولقد تمكن أصحاب المهن الأخرى كالأطباء وخبراء التأمين والمحاسبين والمحامين من المحافظة على أجورهم العالية، بطرق أخرى غير النقابات العمالية حيث صنعوا «أحزمة خضراء» تفاوضية المصنع من الصعب على المتعلمين الحصول على دخول إلى السوق ومزاولة المهنة. وتتضمن هذه الأحزمة الخضراء الاقتصادية فقرات تأهيل طويلة للغاية وضرورة موافقة الهيئات المهنية على قبول أعداد محدودة من

أنداك كالسلعة المشهورة بغزاره، وكانوا يتركزون جميعاً في المدن. ويمكن إحلل بعضهم مكان بعض بمنتهى السهولة وبدون النقابات، كانت سطل الأجور منخفضة للغاية أما في وجود النقابات، فصار من الممكن تجنب دخول المفاوضين إلى السوق، وارتفعت أجور العمال الذين مكنتهم حظهم من الالتحاق بالنقابة. أدرك أنه في الولايات المتحدة كان هناك قانون يصدى للنقابات العمالية، قوانين مكافحة الاحتكار Antitrust laws التي سنت لتتحول دون تواطؤ الشركات الكبيرة بعضها مع بعض في عمليات احتكار؛ استخدمت أيضاً ضد النقابات، ولكن مع تغير المناخ السياسي، أثبتت تلك القوانين عدم قابليتها للتطبيق، وزارت قوة النقابات العمالية.

ولكن إن كانت النقابات العمالية تحقق هذا النوع من النجاح البهر، فقد تتوقع أن يتمتع الموظفون المناهرون للنقابات بالأجور الضخمة. مثلما كان الحال في صناعة السيارات بالولايات المتحدة خلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. عندما يكون للنقابات تأثير ملموس، ولكن الواقع أن النقابات العمالية تواجه العديد من العوائق التي تحول دون تحقيقها لهذا النوع من النجاح. فمثلما نطرق على النقابات العمالية على أنها تطالب بمطالب مبالغ فيها متسببة في زيادة الأسعار إلى درجة لم تقبلها قطاع عريض من الناس الذين، بدورهم، مارسوا ضغطاً على رجال السياسة لإعادة تنظيم النقابات العمالية. وأحياناً أخرى تهدد المناهضة الدولية النادرة التي تتمتع بها تلك النقابات، مثلما حدث مع مصنعي السيارات بالولايات المتحدة الذي كانوا يتمتعون بالرواتب المرتفعة والاستقرار الوظيفي إلى أن استخدم مصنعو السيارات اليابانيون طرقاً أكثر فعالية ويدعوا إلى وضع مصنعي السيارات الأمريكيين تحت المصط.

وفي حالة الصناعات الأخذة في الانكماش مثل صناعة بناء السفن في بريطانيا أو صناعة السيارات في الولايات المتحدة، تختفي فرص العمل بمعدل يجعل النقابات العمالية عاجزة عن الحفاظ على قيمة ندرتها، حيث لا يمكن أن تهدد النقابات وتقليل العروض من العمال بنفس السرعة التي تتمكن بها من مواجهة تنافس الطلب.



هوامش الريح الجيد لا يرجع إلى جودة السنين أوطاقهم العمل



كتاب الزاوية



شعراء الصوفية «المجهولون»

عند ذكر الشعر الصوفي، لا يتبادر إلى الأذهان إلا ابن الفارض.. وأحياناً، الحلاج وابن عربي؛ وذلك يعكس جهلنا بكثير من شعراء الصوفية الذين لا تقل مكانتهم عن هؤلاء المشهورين. ولذا، جاءت فكرة هذا الكتاب «شعراء الصوفية المجهولون» (دار الشروق ٢٠٠٨) للباحث المدقق يوسف زيدان، وذلك كمحاولة لتعريف بأولئك المجهولين من شعراء الصوفية.

ولما سبق، فهذا الكتاب لن يتناول شعراء الصوفية الذين نالت أشعارهم شهرة، ومُطبعت دواوينهم. محققة أو غير محققة. وهؤلاء هم: الحلاج، الشبلي، الجيلاني، ابن الفارض، ابن عربي، التلمساني، النابلسي.. فقد رأيت أن دواوينهم المنشورة، تكفي لمعرفةهم وتؤكد شهرة أشعارهم.

الاقتصادى للهجرة. وهذا حقيقى. فعلم الاقتصاد يشبه الهندسة إلى حد بعيد، أى أنه يخبرك بكيفية عمل الأشياء، وما قد يحدث لو غيرت هذه الأشياء.. وبإمكان رجل الاقتصاد أن يشرح لك كيف يساعد السماح لعدد كبير من المهاجرين من العمالة الماهرة فى تصديق الهوية بين أجور العمالة المدربة وغير المدربة، فى حين أن هجرة العمالة غير المدربة تفعل عكس ذلك. أما ما تفعله المجتمعات وولاة أمورها بتلك المعلومات فهذه قضية أخرى.

ومع ذلك فإن حقيقة أن علم الاقتصاد فى حد ذاته أداة للتحليل الموضوعى لا تمنى أن علماء الاقتصاد يتناولون القضايا من وجهة نظر موسوعية دائماً. فهم يدرسون السلطة والفقر والنمو والتنمية. ومن الصعب السيطرة على التمازج الاقتصادية التى تكمن وراء هذه الأمور دون التأثير بالعالم الحقيقى الذى يحورها.

لهذا تجد علماء الاقتصاد غالباً ما يتحججون عن دورهم كمهندسين للمسيبة الاقتصادية ليصبحوا أصحاب قضايا. فمثلما كان يصفيد ريكاردو من أوائل المؤيدين للتجارة الحرة، كما شجعه رفيقه جيمس ميل James Mill على ترشيح نفسه فى البرلمان حتى إنه صار عضواً عام ١٨١٩ عندما أيد إلغاء التعريفات الجمركية الباهظة فى بريطانيا على الحبوب المستوردة من الخارج والتى كانت تصرف بقوانين الحبوب Com Laws، التى حجت بشدة من استيراد الحبوب. وأوضحت نظريات ريكاردو أن قوانين الحبوب كانت تحثو حبوب ملاك الأراضي الزراعية بالنقدود على حساب باقى المواطنين. لم يرض ريكاردو بمجرد ملاحظة تأثيرات قوانين الحبوب بل إنه رغب فى الغائنها

واليوم يصل علماء الاقتصاد إلى نتائج مشابهة عن قوانين الحماية، التى تحمى. كما سترى فى الفصل التاسع. الجماعات الضاغطة التى تتمتع ببعض الميزات على حساب باقى الناس، فى العالم المتقدم والناس على حد سواء. فقد ينتفع مليارات البشر من السياسات الاقتصادية الجيدة فى حين يصبوت الملايين من السياسات السيئة. فى بعض الأحيان يكون منطق علم الاقتصاد مقتنعاً للغاية بحيث يكون من المستحيل على علماء الاقتصاد عدم اتخاذ موقف. ■

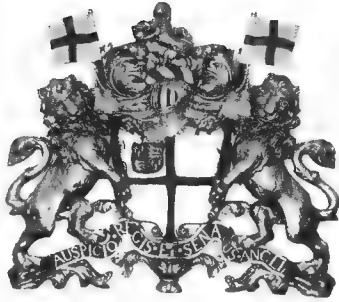
كل إنسان يتصرف وفقاً لمصلحته الشخصية. فظهر العمال الجدد يصب فى مصلحة من يملكون الموارد التى ستصبح نادرة نسبياً سواء أكانت تلك الموارد أراضى خصبة أم شهادات جامعية. ولكن من المفهوم أن ظهورهم أمر يهتبه نظراؤهم العاملون بالفعل. وفى حقيقة الأمر فإن المهاجرين القدامى هم أكثر من يتأذون من الهجرة الجديدة ويجدون أجورهم قد انخفضت انخفاضاً هائلاً. وتدعم الحقائق تطبيق نظرية ريكاردو على الهجرة. فالمهاجرون العاملون فى وظائف تحتاج إلى مهارات خاصة يقللون من أجور العاملين من أبناء البلد فى مثل هذه الوظائف، وكذلك المهاجرون العاملون فى وظائف لا تحتاج إلى مهارات خاصة يقللون أجور العاملين من أبناء البلد فى مثل هذه الوظائف. وقد طلت أجور الممرضات فى الخدمات الصحية الوطنية NHS بالملكة المتحدة منخفضة بسبب تدفق ثلاثين ألف ممرضة أجنبية، فاحتسب حمل شهادة جامعية يزيد عند المهاجرين عن مواطنى المملكة المتحدة بنسبة ٥٠٪. وعلى العكس، فى الولايات المتحدة التى تستوعب نسبة من المهاجرين العاملين فى وظائف تحتاج إلى مهارات خاصة، أعلى بكثير من مثيلتها فى المملكة المتحدة، نجد أن أجور العمالة فى وظائف لا تحتاج إلى مهارات خاصة هى التى ظلت منخفضة، إذ لم يتحسن دخل العاملين بتلك الوظائف منذ ثلاثين عاماً.

ما الذى يجدر بهلما؟

الاقتصاد فعله؟

لقد كنا ن فكر ضاماً مثل علماء الاقتصاد طوال هذا الفصل. ولكن ماذا يعنى هذا؟ لقد استخدمنا أحد النماذج الاقتصادية الرئيسية لتصديق فهمنا لعدد من المواقف المختلفة. انتقل للمصل من التحليل الذى يبدو عليه بعض الموضوعية فى بعض من يجنون المال من تجارة الكابوتشينو؛ إلى مسألة سياسية خطيرة عن تنظيم القديود والهجرة.

قد يزعم بعض علماء الاقتصاد أنه لا يوجد اختلاف بين تحليلهم الاقتصادى لإيجار القاهى وبين تحليلهم



أحمد بهاء شعبان

عندما تبني الشركات إمبراطوريات

كيف

هيمن الغرب على العالم؟

تفيض بها صفحات الكتاب، على دول آسيا وحسب، بل إنها -بحذاظيرها- تكررت في إشارات عديدة أخرى. على رأسها أفريقيا وأمريكا اللاتينية، بل والقارة الأمريكية ذاتها، التي شهدت إبادة منظمة بالعة الوحشية لعشرات الملايين من سكانها الأصليين. (الذين سماهم الإنجليز الهنود الحمر)، حتى يستقر قرار المستعمرين البيض، ويطلب لهم المقام في هذه القارة البكر الغنية. كما أن بلادنا العربية، ومصر في مقدمتها، كانت مسرحاً لحملات مشابهة، وما قصة «شركة قناة السويس»، و«دورها» الاقتصادي والسياسي، وقصة حفر القناة ذاتها. بما استنزفت فيها من أموال وصرق ودماء مئات الآلاف من المصريين، إلا تكرار مشابه لما حدث في بقية العالم. فالاستعمار كان ولا زال، ظاهرة «كوكبية»، منذ موجات «العولمة» الأخيرة، التي نجح تأثيراتها، ويلفحها هيبتها، وتدفع ضوئها أشماتاً باهظة، وقرباناً على منابيحها!

الأخر، والتبايع لسياسة فرق تسد، وما أدى ذلك من أساليب المكر والخداع، مما أدى إلى تنمية مالية واقتصادية، ومن ثم ثورة صناعية وما نجم عنها من مصادر للقوة، ونهم شديد للمواد الأولية، ثم حاجة مماثلة للأسواق الضرورية لتصدير الفائض الإنتاج، وهو ما ترتب عليه اجتياح مسلح متصاعد ومتفاقم لقارات العالم. ولم يقف في وجه هذا الاجتياح عائق من منطق أو أخلاق أو حق، بل استباح الغرب، كما تعرض صفحات الكتاب، تدمير القومات البشرية للشعوب بلا رحمة. ودفعها إلى أتون الموت والجاعات والأوبئة والزلازل، مع تضييقها عن الواقع وبنز الخلفات والشقايات فيها، واستفاد طاقاتها فيما يضر ولا ينفع. حتى تظل مستكينة لـ «قديريها، المحتوم، المزعوم، راضية بمصيرها البائس، عاجزة عن التمرد على واقعها القترى، أو الثورة على غاصبيها!

لم تقتصر القصص المريرة التي

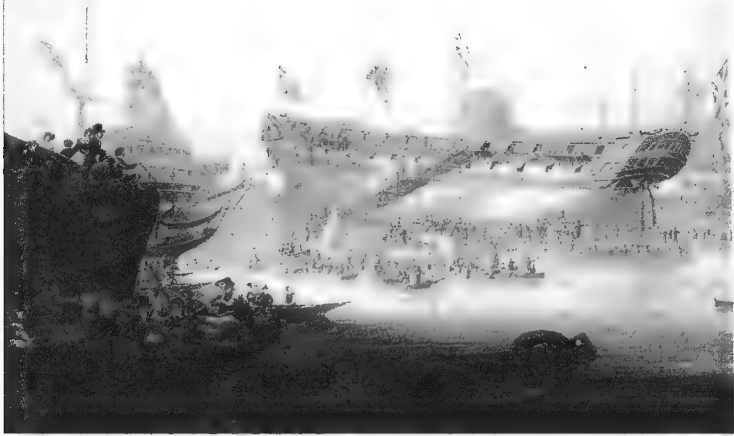
والوثائق، التي عرضها «ملك روينيز»، ومكنته من أن ينهض، عن جدارة. بهمة مركبة. تفكيك وتحليل وشرح، دور ومسار واحدة من أبرز الظواهر الاقتصادية في تاريخ العالم شركة عملاقة، بحجم دولة كبيرة، زحفت بمخالبها وأنيابها حتى أخضعت عملاقى قارة آسيا. وتحكمت في شعوبها، أصعلت فيها أسوأ أشكال النهب الاستعماري، والعنف العنصري الهمجي المنهوج، بهدف استنزاف خيراتها، واسترقاق شعوبها، وتقديم مقاومتها الإنسانية!

واسم «شركة الهند الشرقية البريطانية»، التي يحكى هذا الكتاب وقائع صعودها الأسطوري، إلى عتاش السماء. ثم انحدارها حتى نهايتها المحتومة، يلخص قصة الاستعمار الغربي كله، الذي نسف هيمنته على العالم، في القرون الماضية، مستنداً إلى نفوق عسكري، ونزعة لا نهائية لاستباحة

■ ■ ■ تعلمنا مقولة فرانسيس بيكون، «المعرفة قوة»، القيمة الحقيقية لخلل هذا الكتاب المهم، الذي يضع بين أيدينا قدراً وافراً من المعلومات، المدعمة بالخرائط التاريخية والأسانيد المكرية، والمستندات

متى وكيف هيمن الغرب على العالم الشركة التي غيرت العالم ملك روينيز ترجمة كمال المصري مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٩

The Corporation That Changed the World
How the East India Company
Shaped the Modern Multinational
Nick Robins
Plato Press, 2006



الحقيقي لهذه الشركات الحديثة، بما قدمته من البات للعمل، وما استحدثته من نظم للحركة، وأهمها فصل الملكية عن الإدارة وتداول أسهم الشركة في البورصة، وإدارة الأعمال على الصعيدين العالمي، واستخدام وسائل التنظيم والإدارة والاتصال الجديدة.. إلخ والأهم من ذلك، أن هذه الشركة كانت النموذج للدور المستقبلي الذي لعبه الرأسمال والتجارة التي يحلو للفرد أن يسميها الحرة، وهي في الواقع تجارة بالاجبار، أو من جانب واحد، هي غزو واستعمار العالم، الشر الذي لا زال ممتدًا حتى الآن. وإن كان بصور أخرى، فهي - كما يذكر المؤلف - مثلت في أواخر عهدها، دور «حاملة راية حكمكم المال» Moneyocracy. بل والدمش أيضًا أنها جسدت المساوئ القاتلة، حتى لنظام الرأسمالي نفسه، قاتلصماد الذي كان مصاحباً لكل خطواتها، منذ الميلاد وحتى الوفاة.



لشركة الهند الشرقية البريطانية، باعتبارها النموذج، «The Model»، الأول، أو ما يطلق عليه المهندسون والفنانون الـ «Blue Print»، أو الطمعة الأولى، للشركات بشياكلها على الاقتصاد العالمي الراهن، وتملك قدرات هائلة تنتشر على مستوى العالم أجمع، وحجم أعمال بعضها يفوق ميزانيات عشرات من الدول التي يحيا بين ظهرانيها مئات الملايين من البشر، وهي من جانب آخر تعتبر «الجد،

الذاكرة، المقصود»، الذي يخيّم على المور الذي لميمته شركات كبرى مثل شركة الهند الشرقية في خلق العالم الحديث...، ولذا تم محو تلك الشركة التاريخية على نحو تام، هكذا، من فوق وجه لندن؟... ولذا يتم تدمير تراث هذه الشركة، في بلاد حريصة على تراثها، ممتزة بماضيها، وهو أمر مريب بلا ريب، «يتبر الشكوك» - كما يرى المؤلف - إلى أهمي حد.

يهتم هذا الكتاب بالتاريخ الدامي

ويقدم هذا الكتاب ملامح الكتابة العربية الحديثة، التي تفيض بالمعلومات والأرقام والإحصاءات والوقائع، بحيث يبعد القارئ عن الملل، ويسمك بتلابيبه حتى الصفحة الأخيرة، لكنه أيضا يحتاج مشاركة نقدية وأعية من القارئ. وإعمالاً للعقل، وعياً عميقاً بخلفيات القضية المطروحة، ودلالاتها الراهنة، حتى يمكنه استخلاص النتائج الحقيقية، وهو، كما يذكر المؤلف، اتخذ «شكلاً روائياً»، يتحرك بين الماضي والحاضر، أي أنه ليس كتاباً في التاريخ وحسب، وإنما هو درس «معاصر» أيضا، يلقي بظلاله على المستقبل وتوجهاته، ومن هنا فهو يحاول استجلاء غوامض تاريخ الاستعمار الغربي للعالم الشرقي، الذي يتعثر عمليات طمس متممة، حتى يغيب عن الأنظار بشروعه وكوارثه، وحتى تستبعد من ذاكرة الشعوب دروسه وخبراته، وهو ما يجعلنا نذكر مغزى تساؤلات الكاتب المدهشة حول «فقدان

هذه الشركة كانت الأنموذج للدور المستقبلي الذي لعبه الرأسمال والتجارة التي يحلو للفرد أن يسميها الحرة



هذه الغاية تحويل ثلثة التجار، الذين يقتصر دورهم، العائد، على عمليات التبادل التجاري التقليدية المرفوعة، إلى حكومة عسكرية مخفية في الهند، كما طالب سير جوزيا تشايلدر، أحد أهم المبرزين التنفذين للشركة، عام ١٨٦٨، وهو ما دفع، ويليام ميرديث، السياسي البريطاني البارز في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، للإقرار بأنه، لم يوجد أبداً مثل هذا النظام الذي يؤمن بمبدأ واحد هو الجشع التجاري، ويستخدم وسيلة واحدة للحكم هي القوة.

ومس الطبيعي، والحال على هذه الشاكلة، أن يزداد عدد أفراد جيش الشركة، إلى عشرة أضعاف حجمه تقريباً، في المدة الجاهزة بين عامي ١٧٣٣ و١٨٠٥ (من ١٨ ألف جندي إلى ١٤٤ ألف جندي)، ويحدث أصبحت «المغامرة العسكرية في السبيل الوحيد المختوح أمام الطموحين لتحقيق الثروة في الهند، كما يدرك الكتاب، وبواسطة العمل العسكري، أسقطت إمارات ونهبت كنوز وسلبت غنائم لا حد لها أو عد.. وبعثت سباتيكها اعتمدت المصرايين على الوطنيين البؤساء واحتكر إنتاج وتوزيع الأقمشة والملح والتبغ والأخشاب والتوابل والقهوة والغصن، وأغصبت الأرض، وقامت الشركة، فعلياً، بخلق العمال الزراعيين، وحولتهم إلى ما يندبه العبيد، وكان جنود الشركة يخطفون الأطفال من أقاليمهم بالقواصم لتجنيبهم من الصراخ، ويلبسون العلامات التي تميز طيقتهم الاجتماعية من على ألباسهم..» ووقع هذا الوضع العديد من الاستعصيات المرفوعة، إلى أنباء حياتهم طواعية، حتى لا يعيشوا ويروا عجزهم عن تخفيف الألام طاعاهم الذين يموتون، كما ذكر سكان، كاداً تاداه من مظلمتهم إلى الشركة..» لم يحدث أن عائلاتهم ولا أجدادهم، من تلك المظالم، أو صرنا في مثل تلك الحالة القاسية من العوز الشديد، ونحن لا نستطيع التحمل أكثر من ذلك!

لقد ضررت الفاقة والأوبئة والمجاعات الهند، بأكملها، بفعل هذا الاستغلال غير الأدمي للبشر والثروة، وهو أمر لم يستطع الحاكم العام البريطاني، «ويليم بيتلنك، أن يتجاهله، ولا يوجد في تاريخ التجارة برأس مثل هذا الجور: إن هؤلاء الهند يغطيها اللون الأبيض لعظام نساءي القطن،!

البريطانية على إطلاق يد الضخام الخاص في الانتفاع بثروات الشرق، والوقوف بقوة خلف هذه الشركات، ومنحها امتيازات، شبه سيادية، من بينها: حق سك العملة الخاصة بها في فروعها الخارجية، والأضطلاع بالسلطة القضائية في المستعمرات، وحق تكوين الجيوش المسلحة، والأهم: حقها في شن الحرب!، فعند البداية، كما يقول الكاتب، كانت القوات المسلحة عاملاً أساسياً لتمكين الشركة من كسب الأسواق الآسيوية والعمل فيها..» التجارة وسيفك في يديها!



ولم تأخر «شركة الهند الشرقية البريطانية، أبداً، في استخدام هذا الحق لاحتلال ما أصبح يعرف بـ «درة التاج الإمبراطورية»، ومفخرة «الإمبراطورية التي لا تقرب عنها الشمس»، الهند، التي كانت بمثابة «المنتجع العالمي»، وكانت تنتج حوالي ١٧٥ ألف مصنعاً في العام عام ١٨٠٠، في حين كانت بريطانيا تنتج ١٠٠ ألف فقط، والقيم، التنبال، التي ولجت صيربه الشركة إلى شبه القارة الإمبراطورية المغولية، حيث وصفها الإمبراطور المغولي، «أورالجزير، بأنها «جنة الشموه»..» فعاداً صارت عليه أحوال هذه «الجنة» بعد أن وقعت فريسة بين أيديها «الشركة»!

مسامة، كما يقول المؤلف، كانت الشركة تنظر إلى الهند، وفي القلب منها «البنغال»، على أنها «عزبة ضخمة أو مرتعزة كبيرة يجب الخروج بأربابها (منها)، وإيداعها في خزانة أوروبا، وإنجلترا في القام الأول..» واحتاج تحقيق

فقد لعبت هذه الشركة أدواراً رئيسة في احتلال الهند، وتدمير الصين، وتخريب ونهب البصرة، ويندر عيها، وأخضعته لهيمنة مدها وأصفاهاً عديدة في اليابان وسنغافورة. وغيرها من البلدان، في عصر كانت الأقاليم يتاج فيه وتشتري.. شأنها شأن السلع! وقد بدأ نمو الشركة بتواتر سريع، بعد فترة وجيزة من إنشائها، إذ إنه بحلول ١٦٢٠ كانت الشركة تدير أسطولاً يحمل عشرة آلاف من الأطنان، يقوم على تشغيله أكثر من ألفين وخمسمائة من البحارة، ويعمل على صيانتها خمسمائة من نجاري السفن، قبل أن تقدم الشركة إلى استئجار سفن الشركات المتخصصة الأخرى، وهو ما يدل على الحجم الهائل لأعمالها التي شهد تقدماً غير مسبوق، وانتشاراً غير ملحوق، حتى من كبريات الشركات المنافسة، وفي مقدمتها الشركات البرتغالية، ثم «شركة الهند الشرقية الهولندية المتحدة، والشركات الفرنسية الأخرى، والتي أجبرت على الانسحاب من أمام المخلوق الأكثر رعباً من أي من الجيوش الفخرية، التي تفرغها من معبد «سالييت» بالقرب من مومباي، وخلال هذا المسار المستند، توسعت أعمال الشركة وامتد تأثيرها حتى أصبحت، كما يقول المؤلف، تنفوق، إذا ما قارناها بـ «الجوش الماليتي، الكبير، في عصرنا هذا، تفوق شركة «رول مارت، في قوتها السوقية، وشركة «إنرون، في سنامها، وتفوق شركة «يونيون كاربيد، في تدميرها للبشر!

وعلى عكس الاستراتيجية التي اتبها رواد التجارة الآسيوية الأوروبيون الآخرون، مثل البرتغاليين، الذين استخدموا استراتيجية الاعتماد على الدولة بشكل مطلق، والهنود الذين بنوا شراكة وثيقة بين القطاع الخاص والدولة، نهضت الاستراتيجية

والمارية، والجداج، والتحايل وغيرها من الممارسات، فضلاً عن ذلوعها الهينوي للاحتكار والعنصرية، في مواجهة الخصوم، التي كانت آتت منها، وتلك التي نشطت فيها، أمر تشهد مثيلاً له كل يوم في بلدان عديدة!

يل إل الهند ذاتها، التي كانت مسرحاً لنشاط هذه الشركة، كانت أيضاً مسرحاً لنشاط، حفيده، من حفيدات هذه الشركة، في ثمانينيات القرن المنصرم، وهي شركة «يونيون كاربيد»، التي تسببت في مقتل ٢٢ ألف مواطن هندي، وهربت بجرميتها البشعة دون عقاب أو تعويض، وأيضاً فيمكننا، في عالمنا العربي، أن نشهد الهيمنة الإجمارية لشركات على هذه الشاكلة، ودور شركة «إنرون، على سبيل المثال (ويضع مسئوليتها كانوا من مخططي العملية تدمير العراق واحتلالها، مثل «ديك تشايلدر، نائب الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن)، غير خاف أو مجهول!

ولدت «شركة الهند الشرقية البريطانية»، عام ١٦٠٠، واستمرت في النمو والتوسع والسيطرة حتى عام ١٨٧٤، حين انتهت من الوجود، أي لما يقرب من قرنين وثلاثة أرباع القرن، بصورة مستمرة غير انقطاع، وهو امتداد زمني ضخم منها من امتلاك نفوذ اقتصادي هائل، وتأثير سياسي خطير، حتى أن «باتاينال سبيت - رئيس الشركة، اعتك القوة لكي يطل بالبرلمان البريطاني، عام ١٧٨٤، بتقديم مساعده مؤقته وهورية، للشركة، مخذراً من أن الفأخر في إنجاز هذا الأمر، سيستلزم في حدوث انهيار مالي آخر في جميع أوروبا..» وهو أمر يدرك بما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية، أواخر القرن الماضي، ولأزالت توبعه تشرى أمام نظريتها الأولى، مسببة أخطر انهيار اقتصادي على المستوى العالمي، في إشارة صريحة إلى «دولة الأزمة الرأسمالية ومخاطر ترك، اليد، السوق، وحدها تستأثر باقتصاديات الدول والعالم..» وما أشبه الليلية بالبارحة، فسقاعة شركة البحر العنصرية، التي هربت الولايات المتحدة والعرب بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون!

وفي خلال هذا العصر التحويل الهبي «مجد، هذه الشركة انتافدة، التي وصمها «جورج كورنوال لويس»، عضو البرلمان البريطاني، باعتبار أنه «لم يوجد، على وجه الأرض نظام حكم محصور أكثر فساداً، وأكثر خيابة، وأكثر جشعاً! منها،

لم يوجد أبداً
مثل هذا النظام الذي
يؤمن مبدأ واحد هو الجشع التجاري،
ويستخدم وسيلة واحدة
للكم هي القوة،



برغم بشاعة صور الاستعمار والاستغلال، فإن شعوب اسيا

التي كانت واقعة تحت نير الاحتلال

البريطاني، استقلت وتقدمت



واستخدمته هي، في سبيل إنتاج الكميات الهائلة المطلوبة من الأفيون، كما ينكر، «تقاريره براكاش سينها»، «كل أنواع الإكراه والقهر لإجبار المزارعين على زراعة الأفيون رغم أنفهم». وعلقت مساحات شاسعة من الأراضي المزروعة بالذرة بالقوة، لكي يتم زراعتها بالأفيون المطلوب تهريبه إلى الصين. رغم عدم قانونية تهريب الأفيون إلى الصين، لم يجد أحد كبار موظفي الشركة خصاصة في أن يعلن: «نحن لا نتروء في الإعلان صراحة أن تجارتنا تعتمد، في المقام الأول على الأفيون»، الأمر الذي أدى إلى تهريبه من الصين في «الوحد الأجني»، والذي زاه زيادة مستمرة خلال عشرينيات القرن التاسع عشر. ومثل الدخل العائد لهذه التجارة المميتة، بالنسبة للحكومة البريطانية، «الوسيلة الوحيدة لتوفير الأموال اللازمة لداروات الشاي» الذي كانت البلاد تحبه حباً شديداً (١)، والتي كانت يديرها جهازاً شرعية وبجربة من القاعدة الصينية لحزينة الدولة عن طريق الرسوم الجمركية على الواردات. ولم تتحرج دعاية «التنوير، والديمقراطية، المزمعون، وعلى رأسهم، «بنامين دراليل»، (١٨٠٢، ١٨١١)، رئيس الوزراء البريطاني، من حث الحكومة البريطانية على استخدام القوة لإجبار الصين، كما يذكر المؤلف، على قبول هذا «الصفقة المستترة، الخاص بالتجارة الحرة في جميع البضائع، وحتى في الأفيون» (٢). وانقصى الأمر إشمال حريين، حتى يتسنى فتح موانئ الصين بالقوة، واستيلاء بريطانيا على «هونغ كونغ»، وتشريع «تجارة الأفيون» (٣).

أما في الصين، فقد صار «إيمان الأفيون بتفاهقه، ولغى الواسع من الصينيين حقهم في القرن التاسع عشر نتيجة للأفيون... وهي جريمة لا يعترف أحد، حتى يومنا هذا، بأنها كانت من صنع البشر». واحتاج الأمر اتخاذ إجراءات عديدة حارمة، بعد انتصار الثورة الوطنية التي قادها الزعيم الصيني ماوتس تونغ، عام ١٩٤٩، حتى يمكن السيطرة على هذا البؤس، ووضع علاج صارم لولايته.

ما هي المحصلة العامة، إذن، المترتبة على رحلة «شركة الهند الشرقية» إلى الصين، وعمازمتها، الآسيوية التي استمرت ما بين عامي ١٦٠٠ (عام أسبانيا) و١٨٧٤ (عام تقصيتها)؟ المحصلة المؤكدة، على المستوى الاقتصادي، «تغيرت

الشركة وجالها المحبة فرحاو يتاجرون في الحبوب التي احتكروها وبيعوهو أسعارها، وحينما عرض البعض هذه الاتهامات على مجلس الشركة... كان رد العمل هو.. التفتحات العالية».

لقد وقعت علاقات باكملها فريسة، كما يقول كوريم علي، مؤلف كتاب «مطر ثامة»، تحت «برائن من لا يرحمون».

وكان من الطبيعي والوضع هكذا، إلا تبقى هذه المثرة من حياة الهند، «مجرة تاريخ قديم، كما يذكر، جواهر لال نهرو،



في المرجع المشار إليه، بل على العكس، فقد ظلت «الأساس الذي بنيت عليه الهند الحديثة التي نعرفها اليوم. هذا أدركه معرفة الهند اليوم، هليليان أن تعرف العوامل التي صنعت الهند، في إعمارها أو دمارها... وهذه هي الطريقة السليمة التي نتكئنا من خدمة الهند ومعرفة السيليل الذي تسير عليه خدمتها».

ولم يقف الدمار الذي أشاعته «شركة الهند الشرقية البريطانية، في محيطه سيطرتها الحيوي، مفصورا على الهند وحدها، بل امتد أثره إلى العلاقات الآسيوية التالية، الصين! فضلاً عن تجارة الشاي الذي احتكرت الشركة تصديره من البنغال إلى كاتون، بالصين، والذي كان يبلغ ملايين الأطنان سنوياً، صدرت الشركة إلى الصين الفضة، في أن تتهار كالة السود أمام زحف طوفان، أفيون، باتنا، Patan... والذي كان يتم تهريبه في صناديق تحمل بغطاء «الغلة المميزة للشركة. كما يقول مؤلف الكتاب:

٢٢ مليون جنية أنعابا لكلايف، جاءت بلا كد:

وراحت الشركة تتحرك في سعار لاحتلاب الهند بلا هوادة، فضغظت على «الثأ علم» إمبراطور الملوك، لكي يمنحها حق الديواني (حق جمع جميع الضرائب من السكان المحليين) في البنغال، وهو ما عني حق «السيطرة على جمع الضرائب على أكثر من ١٠ ملايين نسمة»، واتسعت أعمالها القائمة على النهب المنظم والمسلح المكثف، وتحالفت مع قطبها الطبيعي، من الجفاف إلى

بل إنه، وحتى بعد مرور ما يزيد على القرن وثلاثة أرباع القرن على احتلال المسفل، وقهر أهلها واستنزاف مقدراتها، لاحظ الزعيم الهندي «جواهر لال نهرو»، في كتابه «دلائل من تاريخ العالم، أن المناطق الهندية التي كانت أكثر خصوعاً للاستنزاف البريطاني، لازالت هي المناطق الأكثر تخلفاً وفقراً، في الهند التي كانت تجاهد لنيل الاستقلال، والتي كانت تعيش «تحت سيطرة آلة ضخمة، شجعة، تعصر وتسحق الملايين من الهنود. هذه الآلة هي «الاستعمار الجديد»، الذي ولده رأس المال الصناعي،

ومن هنا، فليس مستغرباً، والحال هكذا، أن يفاخر «روبرت كلايف»، مؤسس جيش الشركة العسكري، بامتلاكها «أكبر ثروة في العالم»، التي تقدر بحوالي ٣٨ مليوناً وأربعمئة ألف جنية استرليني، ما بين عامي ١٧٧٧ و١٨٧٠، جلبها تم جمعه بالقهر من اعتصار الهند والصين وغيرها. وهو الأمر الذي أصبحت معه الشركة مصدراً لتحقيق مآلقات إضافية لإنجلترا المنخفضة الدخل قبل عصر الثورة الصناعية، فقد مثلت الشركة «مؤسسة لا يمكن الاستغناء عنها، بسبب القروض التي كانت تمنحها للتاج البريطاني»، وحينما خرجت بريطانيا، وهي على وشك الإفلاس، من حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣)، اعتبر رئيس الوزراء «ويليام بيت الكبير، ضرائب الديواني، (الجلوية بفعل القهر من ولايات الهند إلى إنجلترا)، بمثابة، «هدية إلهية ملأه الفضة المنقصة في الخزائن العامة»، بينما اعتبر البعض الآخر أن الهند منح بريطانيا ملك إقليم البنغال، هو «الرب الذي يصرف الأمور».

ويغفل هذا الاستغلال المكثف انظمت الأوضاع في الهند ومقاطعاتها، رأساً على عقب، فبعد أن كان الميزان التجاري مع كل الدول، لصالح الهند، قبل معركة بالاسي (١٧٥٧)، التي نتجت فيها قوات الشركة بقيادة كلايف، من هزيمة ثواب (حاكم) الهند، بواسطة القوة والغدر والخيانة، تم نهب خزائنها، المقاطعة التي ملأت حمولة أكثر من مائة مركب من الذهب والفضة، وهو ما عني، أن كلايف، حقق ثروته بصصرية واحدة ورحاً صافي تقدر بـ ٢,٥ مليون جنية، وحققت لنفسه ربحاً يقدر بـ ٣٣٤ ٠٠٠ جنية، وهذا الكسب يساوي اليوم ما قيمته ٢٢٢ مليون جنية استرليني من المكسب المدهش (٤) أعاء فيه،



المسألة..

كان عام ٢٠٠٠ هو العيد الأربعمائة لتأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية، وكان هو أيضاً العام الذي جثت فيه للعمل في مدينة لندن، حيث ظل المقر الرئيسي قائماً لمدة ٢٧٥ عاماً في عصر الشركة. ومن كثر لأخر شكل مدينة لندن أحد المحاور الرئيسية للأعمال المالية والدولية، ومع دخول الألفية الجديدة، كان نشاط السوق مازال بادياً، على الرغم من بلوغ قاعه «الدوت. كوم» ذروتها في آخر يوم من عام ١٩٩٩. لقد كنت داخلًا، آنذاك، إلى عالم الاستثمار الاجتماعي عندما بدأت هذه الموجة من المضاربات في التصجر كأشعة عن سوء تصرف على نطاق لم ير مثله منذ عام ١٩٢٩ (وهو العام الذي شهد بداية الكساد الكبير في القرن الماضي - المترجم)، ويحذر أن بدأ تدهور قيم الأسهم، استمر في ذلكو الشكاشة ويتأرجح أسعار الأسهم إلى نصف قيمتها في ثلاث سنوات. وفي كل لحظة كانت علامات تدهور على المستويات التجارية، وعبر العالم كله، تم إجراء الأبحاث لاكتشاف ما إذا كان هذا الانهيار مجرد قفلة من «التفاحات المطيبة» في الأسواق الزنون، وورد لكم، وتايكو هي التي يمكن إلقاء اللامة عليها، أم أن صندوقاً رأسمالية المؤسسات ذاته هو المنيب؟

ورغبة في الإتيان من شاشات حاسبات التجارة ذات الألوان الحمراء التي كانت تدير عن الأنهار المستمر للسوق، فقد قمت باستطلاع الشوارع التاريخية في ميدان مايل، عبر البورصة المالية وبينك إنجلترا، وجنوباً في حارة المبادلات، حيث كان سمامسة الأوراق المالية يتجمعون إلى الألف في المقاهي ليتبادلوا الشكاشة ويتأرجحوا في الأسهم. وفي أحد الأيام، مشيت نحو الشرق أبعد من كل مرة فأصدا شارع ليندون بهيف زلزال المقر الرئيس لشركة الهند الشرقية، قبل أن أرجع للعمل بعد ذلك، وعندما وصلت إلى الركن الواقع في شارعني ليندون ولأم سترت، حيث بقي مقر الهند الشرقية لأكثر من مائتي عام، لم يكن هناك أي شيء - لا علامة ولا شارة ولا أي شيء - فخيرنا بحقيقة أن هذا المكان كان الموضع الذي كانت تقع فيه أقوى الشركات المساهمة الكبرى في العالم في يوم من الأيام. ولقد حيرني هذا الغياب، خاصة في بلد تشتهر ثقافة التراث؛ لماذا تم محو تلك الشركة التاريخية على نحو تام هكذا من فوق وجه لندن؟

هذا الكتاب هو محاولة لإجابة على هذا السؤال، والأهم أنه محاولة لإعادة فحص مبنى الإرث الذي تركته الشركة للاقتصاد العالمي في القرن الحادي والعشرين. وبالتنقيب عن أصول هذه الشركة منذ عصر التنوير، أصبح من الواضح أنها لم تكن مجرد شركة من الماضي، بل مؤسسة ذات ممارسة مالية على نحو متدهور، فلقد أسس إدارة الأعمال الحديثة. وفي سعيي أناني لكسب الشخصيات، حققت الشركة وعديروها التقنيين في تلك الولاية السيطرة على السوق في آسيا، وحكمت عصابات كبرى في الهند بحثاً عن الربح. وكانت الشركة صدمت صعرها أيضاً ببدئي الفساد الذي خلفه مديرها التقنيون، والإفراط في سوق الأوراق المالية، وقمع البشر، وحسباً هذا، حيث تفوق شركة ومبارت في قوتها في السوق، وتفوق شركة إنزون في الفساد، وتفوق بوبيون كارييد في تعمير البشر.

ثم كتب لا حصراً لها تسرد تاريخ شركة الهند الشرقية، إلا أن أيًا منها لا يبحث في سبيلها الاجتماعي كشركة مساهمة كبرى، وهذه فجوة يشد كتابنا هذا سدّها، مستفيداً في سياق ذلك فجوى الصراعات الشريرة على المسؤولية المشتركة التي أثارها الهند الشرقية في القرن الثامن عشر. الأهم من هذا هو أن الكتاب ليس ممارسة لتطبيق قيم القرن الحادي والعشرين على عصر سابق عليه، فلقد بحثت العقلانيات المستقيمة البرازية في عصرها ماركسك أن الشركة وجدها غير لائقة، إذ تجد أن آدم سميث، ولدموند بيرك، وكارل ماركس قد اتحدوا جميعاً في تقديم - لأسباب مختلفة - لهذه الشركة المسيطرة القاهرة. ومن بين الطوائف السياسية أي لا يساهم تجد أن أولئك الذين علشوا في عصر الشركة كانوا ينظرون إليها على أنها مؤسسة مثقلة في جوهرها؛ فيلنسية لسميت كانت الشركة واحدة من أكبر أعداء السوق (الاقتصاد) في حين كان بيرك يرى أنها تمثل تهديداً دورياً لنظام القائم الثابت في بريطانيا والهند. ولقد أظهرت الشركة أيضاً سقطات أخلاقية ذات

«عولة، الرئيس الأمريكي، الفاضل في البيت الأبيض، التي يفاضل فيها على مستقبل البشر بسمنويشتات (الماكدونالدز، في الوجه «الحداثي، لعولة القرن المنصرمة، عولة شركة الهند الشرقية البريطانية، على طراز الملك، جورج، التي كان فيها، كجزء من تجارة العبيد الأفريقية، سريعة النمو، تتم مقايضة الأطفال الهندي، كفضاعة حيوية، بالحمولات البشرية من أولئك العبيد».

وعندما زالت الشركة، كان الاقتصاد الأوروبي قد زاد حجمه ليصبح ضعف اقتصاد الصين والهند(١). وهو عكس الوضع الذي كان سائداً في عام ١٦٠٠. ومن المكد، يقول المؤلف، إن شركة الهند الشرقية البريطانية، هي أحد العوامل الرئيسية التي تسببت في ذلك التحول الكبير في التطور العالمي الذي كان يمثل بداية مولد العصر الحديث. كانت القوة الغاشمة في وسيله «الشركة، لا غشاصك كمال من الهند والصين، عن تدبير صحة الشعب الصيني بأفريقيون، وفرض أولياتها - بالتهمر - على المجتمعين الشرقيين، اللذين كانا من الممكن أن يكشفا، طريقتهما الخاص للتقدم، وهو ما حدث فيما بعده، فلو بقيت بريطانيا والغرب بعيداً عن الهند، كما عبر الزعيم، جواهر لال نهرو، لكان من الممكن أن تقوم فيها صناعة ألية بفضل التطور الطبيعي، ولارات القوة الغاشمة، كذلك، هي وسيله «الشركات، الاحتكارية المصارعة، لا غشاصك شروات العالم، ولندمير صحة مواطنيه، ويكفي، في هذا السياق، أن نقرأ، بعد نحو أربعة قرون من المواقع الدائمة، التي شرحتها بالتفصيل هذا الكتاب، مقولة الصحفي والكتّاب الأمريكي، توماس فريدمان، نصير «الموتعة، (في العيد الخفية للسوق أن تمصل أيضاً بدون قبضة خفية، ولا يمكن أن يتحقق الإزدهار. ماسكونلد، دون وجود، ماسكونلد دوجلاس، التي قامت بتصميم طائرات (١٥، «العسكرية» مرة أخرى، «التجارة باستخدام القوة الباطية»، هي القانون الناظم لعمرك راس المال الجشع، المتلفظ، في عصر «العولة، والنيوز ليرالية، لريد من الدم والأرباح والموت والقتل».

وهو لم تتحرر البشرية من هذا النظام الاجتماعي - السياسي - الاقتصادي، الشكاشة النظام، مستط

«عولة، الرئيس الأمريكي، الفاضل في البيت الأبيض، التي يفاضل فيها على مستقبل البشر بسمنويشتات (الماكدونالدز، في الوجه «الحداثي، لعولة القرن المنصرمة، عولة شركة الهند الشرقية البريطانية، على طراز الملك، جورج، التي كان فيها، كجزء من تجارة العبيد الأفريقية، سريعة النمو، تتم مقايضة الأطفال الهندي، كفضاعة حيوية، بالحمولات البشرية من أولئك العبيد».

د لا يوجد في تاريخ التجارة بؤس مثل هذا البؤس،
إن سهول الهند يغطيها اللون الأبيض
لعمام نساجي القطن،»

كتاب الزاوية



شعراء الصوفية المجهولون (١)

سمنون المحب
(المتوفى ٢٩٧ هجرية)

أفديك بل قل أن يفديك ذو دنف
هل في المذلة للمشتاق من عار
بي منك شوق لو أن الصخر يحمله
تفطر الصخر عن مستوقد النار
قد دب حبك في الأعضاء من جسد
دبيب لفظي من روعي وإضماري
ولا تنفسست إلا كنت مع نفسي
وكل جراحة من خاطري جاري
(البسيط)

وكان قلبي خاليًا قبل حبكُم
وكان بذكر الخلق يلهو ويمزح
فلما دعا قلبي هواك أجابه
فلمست أراه عن هبابك يبرح
رُميت ببين منك إن كنت كاذبًا
إذا كنت في الدنيا بفيرك أفرح
وإن كان شيء في البلاد بأسرها
إذا غبت عن عيني بعيني لمح
فإن شئت وأصلني وإن شئت لا تصل
فلمست أرى قلبي لفيرك يصلح
(الطويل)

والساسة

طبيعة جذرية، إذ قال بيرك للبرلمان: إن كل روية من الريح منعتها رجل إنجليزي قد ضاعت لأبد في الهند، وبالنسبة لماركس، الذي كان يكتب بعد ٧٠ عامًا من خطاب بيرك أمام البرلمان، فقد كانت الشركة في أواخر عهدها، حاملة راية -حكم المال - Moneyocracy، في بريطانيا، وكانت مطوقًا أكثر رعبًا من أي من الوحوش المقدسة التي تقزعنا في معبد سانسيت بالقرب من بومباي. إلا أن ما يجعل قصة الشركة ملهمة على هذا النحو هي الطريقة التي كان يقابل بها شخصيات مثل هؤلاء طلبها التكرار للحصول على سلطة اقتصادية غير محدودة وكفاحهم لجعلها خاضعة للمعاسبة. ونتيجة لذلك فإن الشركة توفر درسًا خالدة في كيفية مواجهة (وعدم مواجهة) إفراط المؤسسات الكبرى من خلال الإصلاح، والاحتجاج، ورفع الدعاوى القضائية، وإصدار القوانين المنظمة، وفي النهاية من خلال إعادة تصميم المؤسسة. ولكي استعيد دعوى الوجود المادي للشركة، قررت أن أجري البحث خارج الدوائر العلمية والثقافية، ورؤية مناطق الشركة الأساسية في بريطانيا والهند. وكنت أمل بزيارة مقرها الرئيسي ومخازنها ومنازلها وأرضياتها من أجل إلى فهم أكثر اكتمالاً لشمسية الشركة. يتخذ الكتاب شكلًا وائيًا ولكن يتحرك بين الماضي والحاضر. ولكن أسعد القارئ، قدمت في أول الكتاب تسلسلاً زمنيًا لأهم الأحداث في تاريخ الشركة. وبعد ذلك يتعمق الفصل الأول في إرثها المظنون فيه، ويستكشف الطرق المختلفة التي يتذكر الناس بها الشركة في أوروبا وآسيا، ويتبع ذلك تحليل في الفصل الثاني لكيفية عمل الشركة وإدارتها، بالإضافة إلى الصراعات المتعاقبة بداخلها والتي أدت في النهاية إلى انهيارها.

ويعالج الفصل الثالث عملها باعتبارها «تاجر توابل» من القرن السابع عشر، إلى جانب مناقشة المواقف الكاركية لطلبها الأول للحصول على السيادة على السوق في تسعينيات القرن السابع عشر، ونجاحها في النهاية في هندسة الاستيلاء على البنغال في منتصف القرن الثامن عشر. ويتناول الفصل الرابع أسباب ونتائج هذا الحدث الجلل.

ولكن مثل الكثير جدًا من الشركات العظمى في تسعينيات القرن العشرين تخطت الشركة إمكانياتها، ويوضح الفصل الخامس كيف اتحد الإهمال مع عدم الكفاءة لإحداث انهيار في سوق المال، ولإحداث واحدة من أسوأ المجاعات التي ضربت الهند. ولقد خشي الكثيرون في بريطانيا أن تستخدم الشركة ثروتها حديثة العهد في إنهاء الحريات التي نالتها إنجلترا بنق الأنفس. يعرض الفصل السادس نقد آدم سميث اللاذع للشركة العظمى، ويضعه في سياق حركة أوسع من الاحتجاج الشعبي، والنشاط البرلماني ضدها. وثورة آتية سرية كان هدفها هو إنهاء انتهاكات الشركة في سبعينيات القرن الثامن عشر. ولكن العدالة لم تكن قد أخذت مجراها بعد، لذا يبحث الفصل السابع كيف حاول إدموند بيرك أن يضع المسؤولية في قلب مرسوم تأسيس الشركة. إلا أن أوامر الإمبراطورية وليست أوامر الأخلاق هي التي كسبت تلك الجولة. يستكشف الفصل الثامن كيف جعلت الدولة البريطانية في تحويل الشركة لتتخطى - على نحو متزايد - عن وظائفها التجارية، وتصبح وكيل مصالح التاج البريطاني في الهند. وقد مثلت الثورة في الهند عام ١٨٥٧ نهاية وضع الشركة المظلم تاريخيًا، ووضعها في منطقة حمرة الغروب قبل أن تقرب تمامًا في يونيو من عام ١٨٧٤. وأخيرًا ينظر الفصل الثامن في كيفية تحقيق مواجهة أكثر أمانة لترات الشركة. وما هي الدروس التي يمكن استخلاصها من المواجهة مع المؤسسات الكبرى في العالم المعاصر.

هناك فقدان ذاكرة جزئي غريب يخيم على الدور الذي لعبته شركات كبرى مثل شركة الهند الشرقية في خلق العالم الحديث، وأمل أن ينبع هذا الكتاب بطريقة ما في كشف كيف أثرت شركة واحدة فقط في تشكيل الماضي العالمي، وكيف يمكننا أن نستخدم هذه المعرفة في جعل قطاع المؤسسات المساهمة الكبرى في عصرنا خاضعة للمساءلة في الحاضر.

ولكي أعطي شئون الشركة أهمية أكبر، قمت بتحويل بعض من الإحصاءات المالية الأساسية إلى القيم الحالية. ولهذا الغرض استخدمت الخدمة الفورية على الإنترنت والتي توفرها جميعة موارد التاريخ الاقتصادي على شبكة الإنترنت في موقعها (www.eth.net)

نك روبينز

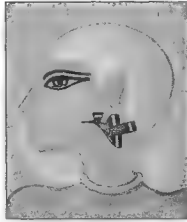


الشمس.

ريت على قماش 2008 مقاس 80 X 100 سم



«ذات الضفائر»
زیت علی قماش مقاس 60X 70 سم



«حلق الهدد»
زیت علی قماش مقاس 60X 70 سم



«الشقيقتان»
زیت علی قماش 2009 مقاس 85 X 70 سم



«حاملة العشب»

ريث على قماش 2009 مقاس 80 X 100 سم

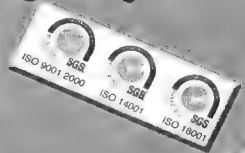
دواسات حمام

متواجد في مراكز بيع بواقي ال

قطع موكيت



سجاد أطفال



مدير المنتشرة في كل ارجاء مصر

شرقي

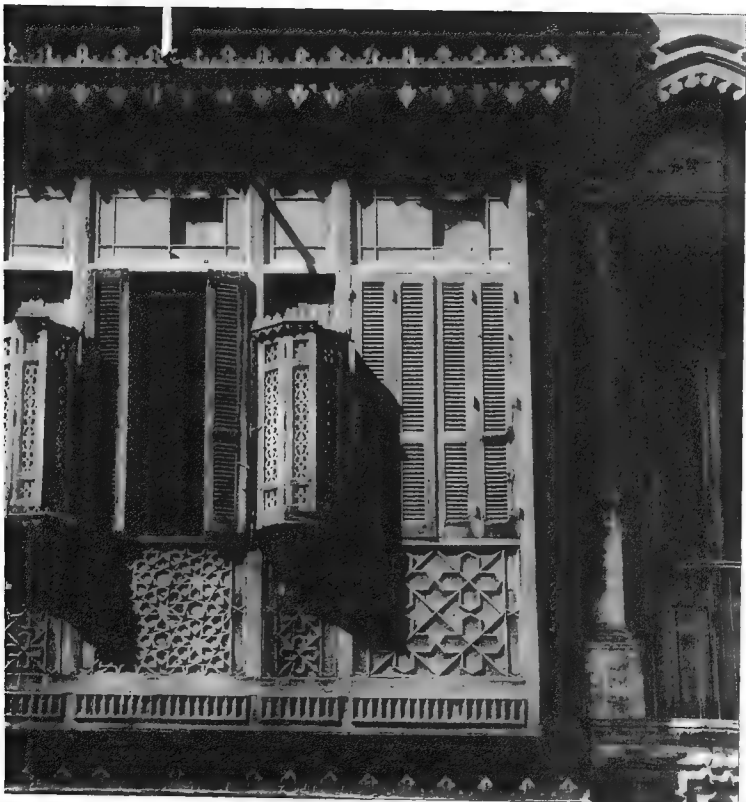
مطبوع

مشايات

دقة صلى

www.maccarpel.com

”بيتي قلعتي“ .. هسؤلاء



المدافعون عن منازلهم

ناصر الرباط

العمارية والمدينة تكاملها العمراني وتركيبها الاقتصادي والاجتماعي. فالمدينة ككل. بما فيها مناطق وسط البلد وعابدين وجاردن سيتي والمنهر والزمالك التي نشأت وتطورت في فترات متقاربة وفق مخططات مثالية أو نمعية مختلفة. ومازالت من دون أي مخطط عام أو حتى تصور مبدئي ينظم عمليات الترميم وإعادة التأهيل أو الإسكان فيها. والمباني القديمة نسبياً فيها (أي مباني القرنين التاسع عشر وبداية العشرين والتي لم تكن أصلاً استجابة للدوق السائد حالياً ولا لمعطيات سوق الاستهلاك السريع) مازالت تعاني من تضارب القيم الاجتماعية والثقافية التي تحكم استخدامها والصورة العمارية والمالية والقانونية التي تحكمها والانهيار السكاني الحاد الذي يخنقها وازدياد حدة المشاكل الاقتصادية التي تهدد كل البنى العمارية والتحتية، والتي تطلّ المجتمع والأفراد وتقدمهم إلى مزيد من الاستغلال العشوائي للمدينة ولبانيها. ليس هذا الخوف مبالغاً فيه، فالكثير من هذه المباني المهمة تاريخياً وعمارياً إما مهجورة أو مساء استعماله إلى درجة تشويبه إما صمداً أو مع النوايا الحسنة التي تروم انقاده أو استغلاله أو تحويله بما يتلاءم ومتطلبات العصر. هذا هو التحدي الكبير الذي يواجه مخططي مستقبل القاهرة الحديثة ومبانيها المهمة اليوم والذي لابد من مجابهته بنسبتي الوسائل الممكنة والحلول المتاحة لئلا نجد أنفسنا وقد انقذنا بعض المباني بضمها لقائمة الآثار وتحويلها لمتاحف ومراكز ثقافية تخدم نخبة صغيرة ولكن العابية المعظمى من المباني والمدينة نفسها بمعصية وقصيصها قد صاعت علينا.

هذا لايعني بالطبع ترك الأمور على عواهنها الآن من دون أي تدخل رسمي أو حكومي بانتظار حل شامل مانع أو بأمل عودة الوعى أو نموه في صفوف سكان المدينة التاريخيه لكي يتكلموا هم أنفسهم بعملية إحيائها والحفاظ عليها. ومع

■ كل دارس للعمارة لابد أن ينهل من ثراء القاهرة بالنامذج المعمارية الفذة التي تعود إلى القرنين التاسع عشر والعشرين، عصر الحداثة والتغريب والانفتاح على الأسواق العالمية والتجارب الاجتماعية والاقتصادية المختلفة التي بدأ المنظرون الطوباويون التقليديون في الأونة الأخيرة بالنظر إليها أنها غربية وغريبة ومغربة. وبالتالي لاعلاقة لها بتاريخ البلاد الوطني أو قرائها الإسلامي من وجهة نظرهم. وكل زائر للقاهرة لابد أن يصدم مما آلت إليه معظم هذه المباني السامقة والبديعة معمارياً في بداية القرن الواحد والعشرين، عصر ما بعد الحداثة، عصر راس المال الدولي والاستثمارات متعددة المصدر ومتعددة النفع، والواصلات الآنية والالكترونية صوتاً وصورة وفعل من جهة، وصهر الضياع الفكري والثقافي والتكسب السكاني الهائل ونمو الحركات الانعزالية المتشددة وضعف البنى التحتية وانخفاض مستويات الميشنة والخدمات انخفاضاً حاداً من جهة أخرى فهذه النماذج العمارية التي تنتمي بفالبيتها لطراز «الفى الجديد، والطراز الإسلامي الجديد والأرت ديكو وبعض الباروك والكلاسيكي، تعاني أكثر من غيرها من المباني التاريخية في القاهرة التي دخلت رسمياً ضمن «القرارة» أي تلك التي مضى على إنشائها أكثر من قرن - ذلك الرقم العتباتى الذى لايعنى شيئاً بالنسبة لأهمية العمارة، والتي أصبح لها بالتالى بعض أمل من صيانة وترميم واستثمار. فعمارات القرنين التاسع عشر والعشرين يحكم عمرها وموقعها وطرازها ووظائفها وأهواء أصحابها وملكانها وقيماتها العنصرية والاقتصادية مازالت ضمن سوق العقارات تخضع لمتطلباته ومضارباته وتدفع نمناً لذلك من مكانها أو وظيفتها أو أحياناً وجودها كله. ومع أن هذه الإشكالية ظهرت إلى السطح مع تغير التركيب المجتمعي والهيكل الاقتصادي والتوجه السياسى للبلاد إثر ثورة يوليو، فهي مازالت موضوعاً ساخناً وورقة مفتوحة وميداناً للجدال والصراع والتنافس من دون أي ياقه من الحلول الواضحة والمؤثرة التي تحفظ لهذه المباني وقارها الشكلى وشخصيتها





مقومات هذا الانتماء الاقتصادية والمحيشية والصحية والترفيهية وما إليها ولعل في تجربة مؤسسة الأغا خان في ترميم وإحياء الأحياء ضمن سور القاهرة في منطقة الحرب الأحمر المحاذية لبارك الأزهر الذي أقامته المؤسسة على كامل مساحة الكيمان الممتدة على طول السور الشرقي للقاهرة التاريخية، مجالاً لدرس ميداني مهم حيث إن البارك نفسه خارج النسيج العمراني التاريخي ولكنه موزل له ومؤثر فيه ومتعلق منه، وبالتالي فهو امتداد عمراني وسكاني له وإن خلا من الأبنية التاريخية، على حين يفرض الحرب الأحمر وتفرعاته بأبنية تاريخية تمتد من بداية الفترة المملوكية وحتى بداية القرن العشرين النعش مرمو الأغا خان في المحافظة عليها وإحيائها وابتدائها أيضاً بإشراك سكان المنطقة نفسها في برنامج الترميم العمراني الكبير من خلال السعي للحصول على مساهمتهم الفعلية والمادية في ترميم وإحياء الأحياء وسط هذا المحيط التاريخي وإعادة تأهيله للرفق بحياتهم أنفسهم فيه. ومع أن التجربة مازالت محدودة المدى والنتائج، فهي قطعاً وأعدة إذا ما استمرت مؤسسة الأغا خان أو خليفتها في المنطقة بضغ السبولة المالية اللازمة لضمان استمرار المشروع.

هناك أيضاً ضرورة مهمة أخرى فلما انتفت إليها: تثقيف المواطن العادي

إدراكاً بأن سكان المدينة التاريخية هم الدعامة الأساسية لبقائها والحفاظ عليها فحن لا يممكنا ترك هذه المدينة من دون ضوابط قانونية واضحة ومباشرة توطئ العيش فيها بما يتلاءم وحالة المباني الهشة فيها والرغبة العامة بالحفاظ على تلك المباني. فهناك مثلاً حالة المرور الحرة في شالبيه الأحياء التاريخية التي فقد الكثير منها رصفه القديم وحلت محله طبقة سميكة من الأسواخ والقاذورات ككتها العريات وأقدام المشاة دكا بحيث أصبحت هي أرضية الشارع. وهناك الوظائف المضرة بالمباني العمرانية والمعمارية كالمعامل والورش الصغيرة التي تقع للمواضع حولها والتي تخلق ضغطاً للتضييق ببعض المباني التاريخية حولها لكي يتسلسلها مخازن ومستودعات وورش جديدة، وهناك حالات لا نهائية من البناء العشوائي وإضافة دور جديدة فوق عمارات قديمة ربما لا يمكن لدعائياتها وأساساتها من تحمل الوزن الإضافي، وهناك كعسر سكاني ربما كان سببه الأول غياب الضوابط العيشية والقانونية في هذه الأحياء. كل هذه المشاكل وغيرها تتطلب تدخلاً مباشراً وجريئاً ومنه أن واحد: تدخل يعمر ويحافظ ويوقف عمليات ضارة. ولكنه أيضاً يقترح ندائل معيشية ملائمة لكل حالة ضارة مما لا يتسبب بالحفاظ على الناس أو بموارد رفاههم في سبيل التضييق على العمارة أو العكس. ولنا هنا في مدن الأندلس المعاصرة المثال الملائم حيث إن العديد منها، كقرطبة وغرناطة، قد حافظت على السكان في أحيائها القديمة بل إنها ربطتهم اقتصادياً ومعيشياً بمهد الأحياء وجعلتهم الأكثر حرصاً على المحافظة عليها لإرتباط مستوى معيشتهم إرتباطاً مباشراً ووثيقاً بها. ولو أن القاهرة أكبر وأبعد من أن هذه المدن والقترح حلول مناسبة لتساكنها الإدارية والسكانية بتعطل دراسات عمرانية واقتصادية وسوسولوجية متكاملة تتجاوز الحلول المجترأة وتنتظر للفرغ العمراني ككل بحيث أنها تدعم وتنشيط من البنى الاقتصادية المتعاضدية والتكاملية الموجودة على الأرض في غالب أحياء القاهرة القديمة. كما أكدت دراسات العديد من الأنثروبولوجيين المصريين والأجانب، وتستخدمها في شدة الشعور بالانتماء وتجديده من خلال خلق

المقيم في القاهرة التاريخية ثقافة تاريخية وعصرية تجعله يشعر أن انتماءه لبلدته مصدر فخر له ومنيع رضا واحساس بالسنوئية. ولئن يمكننا الوصول إلى هذه النتيجة بفرض القوانين الصارمة والغرامات الباهظة فقط كما يقترح البعض، وإن كان بعضها ضرورياً ككناج وكحل أخير. يجب الشروع ببرنامج تثقيفي شامل يطل كل السكان ويتغلغل في حياتهم عبر القنوات الموجودة والمتعددة: المدرسة، الجامع، البيت طبعاً، وحتى القوة، ذلك الملتقى الشعبي المفضل. وليس الأمر بحاجة لجهد كبير أو كوازئات ضخمة وإنما يكفى البدء بتثريتهم ببعض الأفراد المهتمين والمترزمين، كخريجي المعاهد والجامعات الذين لا يجدون عملاً في المؤسسات الحكومية المكنتة، لأن يكونوا قدوة ومثالاً ومرسعين في الأحياء الشعبية لينضخوا في المواطن والمواطنة حب مدنيتهم الفضلى، ذلك الشعور العام الذي يفمر قلب كل قاهرسي وقاهرسي، والذي لن يتكتمل حقاً إلا باهتمامها بها وحفاظها على معالمها وطرقها ونظافتها وما إلى ذلك.



والمواطن العادي حساس ومستجيب إذا وجد أن الحرس أو المثل مخلص وصديق. وهذا اليوم العنصرى من المؤسسات الأهلية والجمعيات غير الحكومية المصرية والأجنبية. كمؤسسة الأغا خان في مصر وجمعيات مثل الجمعية المصرية لعمارة الأرض، التي بدأت بجهد فردى أعطى ثماراً وأعدة على الرغم من صغر المشاريع وتفرقها وانعدام الغطاء القانونى اللازم لتأطيرها أو الرؤية الشاملة لتعميم تجربتها.

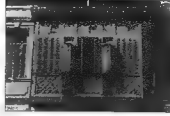


إن أي محاولة للحفاظ على العمارة يجب أن تتبع من سكانها



ولكن هنا لن اتوسع في تحليل الطواهر الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية الشاملة التي تهدد العمارة القاهرية الحديثة أو في فقد الحلول المطروحة اليوم، بل سأركز على مبدأ واحد صغير من مبادئ العمارة الحية، مبدأ تتواءم الكثيرون في سعيهم لحلول كبيرة وفاعلة ودائمة، هذا المبدأ هو أن «العمارة بسكانها»، أي أن أي محاولة للحفاظ على العمارة يجب أن تتبع من سكانها، مستعملين، ملاكها، الناس الذين يعيشون فيها ويعيشون منها ويرتبطون بها كمسكن أو مكان عمل، أو مؤثر ذكرياتى والذين يرون فيها الإنسان الفراغى الذي يستجيب لمتطلباتهم ورؤاهم وفهمهم، أما الحلول التي يقدمها من لا صلة لهم بهذه العمارة إلا باعتبارها ميدان بحثهم لا ملعب حياتهم فهي ستكون حتماً فاقصة أو محترجة أو طوبائية وغير قابلة للتنفيذ. من هذا المنطلق يمكننا أن نلاحظ أن جزءاً كبيراً من مشكلة عمارة القرنين التاسع عشر والعشرين في القاهرة اليوم نابع من فقدان هذه المباني لسكانها بالبنى الشامل الذي أقصده، فهي قد صممت وبنيت في الأساس لناس من زمن مضى، ذوى توجهات معينة، وإساليب محددة، رؤية أخلاقية واجتماعية خاصة. جارت عليها عوادي الزمن لتستبدل بسكانها الأصليين أمثال جدها ذوى تعلقات مغايرة وإساليب عيش مختلفة وضرورت ملححة مستعارة تصام المتعارض مع ما بنيت هذه العمارة لأجله أو تماثلته أصلاً. ولذا طبعاً لا أريد أن أجزم أن للعمارة حيزاً اجتماعياً واحداً لا يتغير بتغير الظروف، ولا أن العمارة في أي فترة على التألف مع تغير في الوظيفة والبنى والمستخدم، على العكس من ذلك، فالعمارة واحدة من المعطيات الثقافية الأكثر تألقاً مع التعبير في حياتنا الانسانية، ولكن لكل تألق حدود، ولكل عمارة طاقة على الاستيعاب تظهر عليها بعدد مظاهر الجهد والإرهاق. وبعد ذلك يحمل العجز عن استيعابها وخدمة المعطيات الجديدة وتنفذ العمارة وظيفتها الاجتماعية. وبمعنى هذا حصل للعمارة العشرين التاسع عشر والعشرين في القاهرة مع التغيير الحاد في ظروفها وشروطها ومحيطها العمرانى والاجتماعى-

فعل واحدة من أنجع الطرق هو أن نحاول التوفيق بين العمارة وبين مستخدميها



وفارق من السكان فيما عدا ساكن واحد
مشاكس ومقاوم بكل ما للكلمة من معنى.
رحمن، صلاح الدين علي إبراهيم، يقيم
وحيداً منذ أكثر من سنتين في الطابق
الثالث في شقة إسبرغية في حين تقيم
أسرته في مكان آخر خوفاً من سقوط
البنين، الذي انهار جزء من سقف طابقه
أولاً بتدبير عامد، وبعداً عن مشاكله
حيث إن مالك البنين يحاول يشتري
الوسائل للحصول على قرار بالهدم.
صلاح الدين، خريج كلية الآداب وعمل
في هيئة الكهرياء إلى أن تقاعد، وهو
مولود في هذا المنزل الذي فيه أيضاً ولدت
والدته وتزوج فيه جده حسن عبد الكريم
التركي الأصل وجدته، اللذان مازالت
صورة زفافهما الهيبية في بداية القرن
العشرين مؤطرة في غرفة جلوس
حديثة.



استقبلنا السيد صلاح الدين الرجل
الجميل والبالغ من العمر سبعين سنة
هاضاً وياضاً ونزل كل الطبقات الثلاث
ليفتح لنا القفل الذي يحبس في المبنى
ويحبس البنين عن كل من تسول له نفسه
التسلل إليه (ولو أن هذا القفل لم يمنعه
سابقاً في ظلام الليل من فك وسرقة لوح
خشبي محفور بالأرابيسك في أسفل باب
الدخول ومحاولة سرقة كمرّة خشبية في

من عمره والتي أصبحت الآن معرضة
لخطر الإزالة
هذا النموذج الفذ من العمارة الحية.
بل والمكافحة في سبيل البقاء، مبنى
سكني يحمل الرقم (٠٠) في منطقة
الدرج الأحمر في حارة الغربية المتفرعة
عن شارع تحت السور، وهو عمارة قبل
مثيلها تذكرنا بالأبداء المعماري الذي
وصلته القاهرة نهاية القرن التاسع عشر
عندما تسكن المصممون استيعاب
جماليات العمارة الملكية والعثمانية
وتلويعها ببادئ الفن الجديد التشكيلية
والفراغية. المبنى مكون من ثلاث طبقات
للسكن ويقع على ناصية خلف ريع
رضوان الكريم (ترميمًا سطحيًا
للأسف) تتيح له واجهته على الشارع
تقاطعات في زاوية متفرجة مما يضفي
على المبنى انطباعات بالانحلال والسمّة
مع أنه في الحقيقة صغير المساحة
لايحوي سوى شقة واحدة في كل طابق.
هذا المبنى تحفة من تحف التصميم
المعماري القاهري الهجين السائد في
مباني نهاية القرن التاسع عشر وبداية
القرن العشرين بطرزه المخلطة من
الإسلامي الجديد Neo-Islamic
بعضرياته وزجاجة المصق وأقواسه
الدائرية ذات النصب المتطاول المتقاطع
مع تأثيرات كلاسيكية محدثة وبعض
الفن الجديد في زخارفه وكسوة فتحاته.
هذا المبنى الذي لم استطع معرفة
بانيه وصاحبه وتاريخ بنائه على وجه
الدقة ينسب لعائلة المادلي التي لم تكن
غالباً مالكة الأصلية، وهو يعود إلى
الأغلب إلى أول القرن العشرين (ربما)
عندما تحولت المنطقة من منطقة فيلات
تحيط بقصر العباسية وبغيره من قصور
أسرة محمد علي تحت القلعة إلى
منطقة سكنية اختيار وكبار موظفين
استأوا بالقول بالإقامة في شقق بدلاً
من منازل منفصلة. وهو اليوم مهجور



أحمد البنداري يقي

هو وحده يجاهد يشتري الطرق المتاحة له
في سبيل بقاء عمارته



الاقتصادي في نصف القرن الماضي
وعليه فتح ساحة لإعادة الطرح مع
تعاملنا مع فكرة المحافظة على هذه
العمارة (أو ترميمها أو إعادة استخدامها
أو تحويلها لاستخدامات أخرى)
بطريقة تأخذ بعين الاعتبار العتبة
الإجهادية التي لا تستطيع العمارة
اجتيازها في محاولتها التكيف مع
الشروط الجديدة من دون أن تفقد
صفتها كعمارة ومحيط حياة إنسانية.
وبالعكس من ذلك، علينا أن نفتش عن
أنجع الوسائل التي تسمح لنا بالمحافظة
على هذه العمارة بتوطيها بطريقة
قريبة أو مسايرة أو موافقة لما صممت
عليه في الأساس.

ولعل واحدة من أنجع الطرق هو أن
نحاول التوفيق بين العمارة وبين
مستخدميها بحيث يقارب هذا التوفيق
مكانة عليه القصد عندما ننيت هذه
العمارة واستعملت في الأساس، بمعنى
آخر: إذا كانت العمارة سكنية أساساً
فأفضل طريقة للحفاظ عليها هو في
استخدامها لأغراض سكنية أو شبه-
سكنية (فندق مثلاً)، وإذا كانت العمارة
طاهرة وأصلية للحفاظ عليها هو
في استعمالها لاستعمالات متعززة من
قبل مستخدمين قادرين على القيام
بنقذات هذا التمييز. هذه كلها طبعاً
بدیهيات، ولكن هذه المقاربة تتوصلنا
لاستنتاج جد منطقي وجد بسيط وإن
كان نادراً مايدخل ضمن نقاش
المخططين والمهندسين، أفضل طريقة
للمحافظة على العمارة هو أن يكون
مستخدموها الأقرب لطريقة ونواظ
واستخداماً لن صممت لأجلها أساساً،
وربما أفضل مقاربة هي أن يسكن في
عمائر التراثين القادريين عشر والعشرين
في القاهرة أناس يتمتعون بنفس طبقة
مستخدميها الأول، أو بهم أنفسهم أو
بأبنائهم وبأحفادهم، أو بمن يرغبون
بالتشبه بأسياد حياتهم من مواطني
اليوم وهم قاديون عليها، هذا الأمر تبين
لي واضحاً في مثال رائع من أمثلة
المحافظة على العمارة قايبلناه خلال
جولاتنا (فريق صغير من المهتمين بعمارة
الحدائق في القاهرة) كل يوم جمعة مع
أحمد البنداري، سيد سماني متواضع
يقدم وحده متفرداً في عهده من ثلاثة
أدوار هجرها كل ساكنها ويقي هو وحده
يجاهد يشتري الطرق المتاحة له في سبيل
بقاء عمارته التي عاش فيها حيزاً كبيراً

اعلاه قبعتها صلاح الدين بمسامير
غلاظ).

تتميز واجهتا الطابق الأرضي من
المبنى بمصراة كلاسيكية وحجر نحيبت
ونوافذ مؤطرة بخطوط كلاسيكية تشبه
إلى حد بعيد القصور المدنية الإيطالية
من عصور النهضة والباروك، ولكن
الصرامة الكلاسيكية تختفي في
الطابقين الثاني والثالث لتحل محلها
خفة دم إسلامية محدثة. مشربيات ذات
خشيات وأصعدة دقيقة مزدوجة وأهاريير
من الزجاج الملون متناغمة في تشكيل
جميل فوق درفات خشبية مزوّقة
بالرسومات الهندسية المحصورة. أما
الداخل فهو لا يقلل حسن ذوق معماري
عن الخارج، خاصة في ابتكار رائع في
الحمام الذي يغوده سقف مكون من قبة
مسطحة فيها كوكس الزجاج الملون التي
عرقناها في الحصانات الإسلامية
القرنوسية تخفي على المكان طابعاً
خاصاً. ولكننا هنا في عمارة سكنية من
ثلاثة طوابق فكيف يدخل النور إلى هذه
القباب؟ يدخل عبر الفراغ الذي أمته
الحمام بين سقف الطابق الأدنى وأرضية
الطابق الأعلى مما يسمح بمرور الضوء
لكي يتسرب إلى البعد بعد ذلك عبر
الكوكس الملوّنة. مسطحة القبة عثمانية
متأخر تقليدي من طراز «الصوفا» أو
الردهة التي تستعمل كموزع على نالقي
العمر، من بعض من تحويلات ذائعة على
الأعلى من شكل الأرض المستطيل التي
أقيم عليها المبنى ومن المساحة المحبوبة
الاطلة على الشارع في واجهته.

ولكن أهم ما في المبنى رقم (٠٠) في
حارة الغربية هو ساكنه الوحيد صلاح
الدين علي إبراهيم، فهو والعمارة التي
يسكنها صنوان، وهو يشهر مع العمارة
التي يقيم بها وحيداً لتأسبب إلا
للمحافظة عليها من اعتداء الطامعين
الذين يريدون إما إزالتها أو أقل تدبير
الاستفادة من العناصر التزيينية فيها
التي يمكن أن تبايع يثمن باهظ في سوق
الأنثيكا، هذا الرجل يشعر أن لديه رسالة
خاصة وفي الحفاظ على هذه العمارة وهو
فخور بها. حريص عليها، متوجس من
مستقبلها، ويفتش عن مساعدته في
تأمين بقائها وإعادة رونقها، وهو، على
ما يبدو لي، لا يروم من وراء ذلك القيام
بصفة مالية كبيرة فهو لم
يتوقع من ترداد رغبته بأن

الإنسانية الخاصة والاجتماعية العائقة بالهضى والدكرى.

ولكنى لن أبقي فى تحليلى وفى اقتراحاتى مقتصرًا على المستوى التحليلى أو على الملاحظة العجيبة، على أهميتها فى الإشارة إلى ما هو إيجابى وفى التشجيع على استخلاص بعض الحلول الممكنة للحفاظ، على عمارة القرنين التاسع عشر والعشرين أو على بعضها على أقل تقدير ومحاولة النهوض بالمستوى العمرانى لحيطتها فى مناطق وسط البلد وعابدين وجاردن سناسق وماجلة أو على الصعيد الإنسانى أو الاجتماعي، ما أسفرت إليه على ختام حديثى هنا هو التفتيت إلى حقيقة كلنا ندرِكها عن القيمة الرأسمالية للعمارة فى وسط البلد وغيرها من الأحياء الحديثة

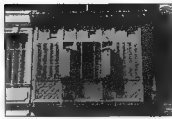
والصراع ما بين مردها كعمارة قائمة وكأرض بناء خضاه يمكن أن تستخدم بطريقة أكثر اقتصادية ويمكنها أن تدبر عوائد أكبر على مستثمريها. ولن أتقرب من هذه الحقيقة التى تشكل الخطر الأول والأهم بالنسبة للعمارة التى ادعو هنا للحفاظ عليها، بل إلى ساستحدها لتأكيد على إمكانية التعامل مع هذه العمارة الرائعة تعاملًا يظهر الترابط التحليلى والمادى بين القيمتين الفنية (الثقافية) والقيميتين العريض لمفهوم الثقافة (لهذه العمارة.

ولكى عمارة بحقيقة الأمر - من جهة قيمتها المادية من جهة أخرى التى لاتخصم فقط لقيم السوق، بيمديه المالى والاجتماعى ورؤيته الاستهلاكية، وتبذيرها كما يبدعه الاقتصاديو الخصخصة، بل تخضع أيضًا لملافاات إنسانية واجتماعية ومعنوية مهم، أيضًا. وربما تجرأت على التأكيد بأن القيمة العائلية لأى عمارة بنهاية الأمر هى محصلة عدة عوامل منها المادية والاستهلاكية ومنها الثقافية والتاريخية والجماهيرية، وأن العلاقة بين هذين الجانبين هى علاقة معقدة وربما جديدة، أى أن محصلة القيمة المعمارية مختلفة عن القيمة الفنية والقيمة المادية معًا. ولكننا نتاج علاقتها وتفاعلها مع بعضهما البعض. وقد برأى هو المدخل النظرى الأمل لتقديم المحافظة على القاهرة التاريخية، تلك الرائعة المعمارية التى نحب، كمشروع رابع اقتصاديًا واجتماعيًا ومعماريًا وسائليًا. ■

وطويل الأجل. فهما كانت العناية التقنية والمعمارية دقيقة بترميم الأبنية نصها أو بالحفاظ عليها (وهى ليست كذلك اليوم فى غالب الأحوال)، فهى ستكون ذات أثر ضئيل إذا كانت النظرة إلى الأبنية محصورة بمدىها العمرارى الشكلى والاستثمارى من دون التطرق إلى معناها فى محيطها العمرانى والاجتماعى ووظيفتها العنوية كمكمل للذاكرة بكافة درجاتها من الخاص إلى العام. ومن العمى إلى الاجتماعي، ومن الفردى أو العائلى إلى المجتمعى فالوطنى أو القومى ثم الإنسانى العام والمشارك.



فالمعمارة الحقيقية بالنسبة لتضرده وللجتمعت ككل تحترق، فى المقام الأول، على أخاق للمعنى تسمح لكل فرد يتعامل معها بأن ينسج علاقاته الخاصة النافذة بها وأن يخلق صلتها الحميمة بها من خلال تركيب ذكوريته من دون أن تفقد خيال من رزقيتها العنوية والعائلية والجمعية. فربما أمكننا أن نتعلم من الأشخاص المتميزين مثل صلاح الدين على إبراهيم لتفصيل تحمل مسئولية المدينة لسكانها ومساعدهم لتقديفها ومادياً ومعنوياً على المحافظة عليها والاهتمام بها، ولتغيير اللوائح الكتيبة التى لاتأخذ بعين الاعتبار الصورة الكلية والوظيفية الفعلية للمباني. فالعمارة قد وجدت لكى تستخدم ولكى تروى الناس وأهلهم ومطامحهم وهواجسهم ومشاكلهم الصغيرة والكبيرة التى سرعان ماتخذ لنفسها مآوى وتغيرها فى العمارة التى يسكنونها أو يعملون بها بما أنها فى المحصلة الأخيرة غلاف الحياة



به قطاعات كبيرة من التلى الواعين لتاريخهم ولروعة تراثهم العمرارى لا أن يكتفى الواحد منا بالقول أن المؤسسة الحكومية الشاغلانية أو الإدارة الملاندية مضمرة فى واجبيها أو أن سكان بعض الفلانى مطعونون ومسخوفون يركضون وراء الرغيف مما لا يدع لهم وقتاً أو فكرياً للاهتمام بالحيط العمرانى التاريخى الذى يقيمون فى جنباته، وأن المنتمين الجشعين أو ملاك الأراضي الشريرين لا يدعون فرصة للكسب إلا ولتبعوها وأن أدى ذلك إلى تدمير مبنى أو إخلاء منطقة تاريخية. فكل هذه الشكاوى صحيحة وحادة، ولكنها بحاجة لحلول اقتصادية وتنظيمية وفائتة قد لا يكون إنجازها ممكنًا فى الوقت الحالى ومن المؤكد أن نتائجنا لن تكون بادية للعيان، إن حصلت، إلا بعد زمن طويل قد لا تتمكن المباني التاريخية المهمة من الصمود خلاله فتتهوى تحت ثقل الزمن والإهمال والحسوبيات والصراع على الأرض السكنية فى مدينة حصلت مؤخراً (فى نهاية) على تميز عالمى مشهود ألا وهو كونها المدينة الأكثر كثافة سكانية والأكثر تلوّناً فى العالم. هذه المعطيات الانسانية والاجتماعية والمادية والداركترية تمثل الاطار غير المادى المهم واللازم لأى مشروع ترميم وإعادة إحياء عمارتى ناجح

يساهم فى ترميمه وإنه والوقوف على العاملين على هذا الترميم لكى يتأكد بنفسه من أنه لايشذ عن الأصل. وكان يصيف كل مرة بأنه لايتعامل مع أن يفادر المبنى، مع تعويض معادل لما يأخذ منه، لآجل ترميمه على أن يعود إليه زائراً بعد ترميمه ليشاهده فى جلوته المعمارية. وهو يقول أيضاً أن هاروق حسنى سيكون ظهوراً يوماً ما بأن يدعو زواره لتمتد هذا النموذج الرابع من عمارة القاهرة الحديثة وهنا ملاحظة مهمة وهى أن صلاح الدين ينظر إلى مينة القاهرة لتجاوز كونه بيته ومأواه. لنظرة تسمى أهمية المبنى الجمالية والمعمارية مما يجعله يقبل طواعية بمعاذرة المبنى إذا كان ذلك سيؤدى إلى ترميمه وإحيائه، وإن لم يتمكن هو نفسه من العودة إلى شقته وحياته فيه. هذه النظرة الغريبة ولكن الواعية معماریاً تأترة الوجود، ولا ظن أن الكثير من سكان المبنى التاريخية فى العالم كله يتسمتون بهذه الدرجة من الحس الجمالى والمعمارى الذى تستلهم من رؤية المنفعة العامة من ترميم المبنى التى غالباً ماستوى إلى إجلالهم منه واستعدادهم للقول بذلك طواعية بغض النظر عن المنفعة المادية المتأتية من ذلك.

لأعرف ما إذا كان هذا النموذج الفذ من سكان القاهرة التاريخية استثنائى أم أن مثله كثر، ولو أنى استبعد ذلك إذا ما نظرنا إلى مال العديد من المباني المهمة من القرنين التاسع عشر والعشرين التى لم تجد من يهتم بها أو يدافع عنها فانزلت فى غياهب النسيان أو وقعت تحت ضربات معاول الهدم صلاح الدين على إصرار نموذج جسد فى إرادته وفى قراره البقاء فى منزل نشأته عظمى متميزة تنظر إلى العمارة من منطلق غير مادى، منطلق هو فى الآن نفسه جمالى وذاكرتى وحسنى رومانتيكى إلى حد ما، لأن مسكنه من المباني التى يجب أن يحافظ عليها بمعمارها المميز وتاريخها العائق. وهذا هو بالضبط ماتحتاج إليه القاهرة التاريخية، أن يكون لمباني أهل يقيمون بها ويرعونها ويحافظون عليها ويمسكونها من حيواتهم معنى ومبرراً للبقاء، وخاصة تلك التى تقع ورائها المعمارية على تخوم التاريخ فى بلد يعتد تاريخه إلى آلاف السنين وطلمح بالأوابد المهمة مما يجعل من مهمة الحفاظ على هذا التراث واجباً وطنياً يجب أن نهتم

لأعرف ما إذا كان هذا

النموذج الفذ من سكان القاهرة التاريخية استثنائى أم أن مثله كثر



”إزیدورا“ سلمانوی

به بمسها إزیدورا منذ آلاف السنين
تجمع بينهما بشرية واحدة ومبدع واحد
وإن تباعدت بينهما الأسيا ب والسنوات
لكن الصحف وأصلت اهتمامها بتضيته
بعد هذا التطور المائج الذي ما كانت
تحلم به فيهدات في الأسبوع الأول
تحدثت عن وفاته وهل كانت انتحارا.
وفي الأسبوع التالي كانت هناك
تساؤلات عن ظروف وفاته، وفي الأسبوع
الثالث تناولت حجم شروته، وتختتم
القصة بهذه الجملة التي تربط بدايتها
بنهايتها ”ولأن الرجال المهيمن تبقى
سريتهم بعد رحيلهم، فقد كانت هناك
دالما بقية في الأسبوع المقبل، (ص ٣٠)
من المؤكد أن إزیدورا وحاسبي لو كانا
يعيشان في القرن الحادي والعشرين
لكانت لقصتهما بقية في الصحافة كما
كانت لأحد مليونيرات القرن العشرين
أوالحادى والعشرين.

وهكذا فإن تجاور القصصين في
المجموعة - سواء قصد محمد سلمانوي
أو لم يقصد- يسر لنا أن نكتشف أن
نهايتي بطلان القصة الفرعونية وبطلان
القصة المعاصرة واحدة وهو الانتحار،
لكن لأسباب مختلفة تماما، كما أن ما
بعد النهايتين مختلف اختلاف زمني
بينهما أما سنة.

أما قصة كوبرتوتو الناي إحدى
قصص ثلاث في المجموعة أبطالها من
عير الإنسان، فهذه القصة قصة حياة عود
من أعود الغاب ولمواجهته لم تتحقق
بل أصبح ينتظر مصيره، حين يترك
مكانه في ذلك المنزل الأنيق بالقاهرة لن
يكون للعودة إلى موطنه السابق على
ضفة النيل، بل ليلقى به في القمامة،
(ص ٤٠)، ويتساءل القارئ لماذا فضل له
ميدحه هذا المصير المأساوي من بين أكثر
من مصير محتمل، بل بعد أن لوح لنا
بمضار أفضل لأعواد غاب مماثلة حين
بدأ يشعر بالحنين لصوت الناي الحزين
الذي كان يأتيه من القوارب المارة في النيل
بينما يشكل قبضك الضعيف الخفيف
الإيقاعية لذلك اللحن العذب الأصيل
(ص ٤٠) مصير ليس أفضل من انتحار
بطلان القصصين السابقين وإن كان يبدو
غيره لا يبدو.

قصة أخرى لبطلتها شجرة جميز
عتيقة، ومصيرها ليس أفضل من مصير
زميلها في عالمها المقتل بعد الغاب
السابق، ويبدو أن هذه المأساوية، إن صح
التعبير، هي النافع الإبداعي
عند محمد سلمانوي، فقد



يوسف الشاروني

يستخدم سلمانوي أكثر من شكل من أشكال الكلاسيكية القصصية

قصة أي عاشقين تفصل بينهما سلطة
تفرض رؤيتهما ولا تقويم للمواظف وزنا.
وبدلا من أن تكون إزیدورا بيس ذراعي
حبيبها حاسبي فإنها تفصل بين ذراعي
النهر، حاسبي، فاطماتني موجهة على
العور وانزلتني بى إلى باطن النهر،
(ص ١٩). وتختتم القصة بهديان حاسبي
”يقولون إنني جنتت. لمت مجنونا، هي
معى وستظل دالما معى، (ص ١٩)
ومن الحقيقة الفرعونية تقفز إلى
إنسان معاصر مأزوم مطعون في دمه
المالية ليتنوى أيضا عرفا لكن في حمام
السباحة بالقرصر الكبير، نمس ما أنهب

في رزق بالنيل حتى قبيل الغروب (أي
أنه هيا لهما هذا الجو الرومانسي الذي
يحبها حاسبي) وبعد ذلك لا
يتقبل والدها التنازل التي دير لها بنفسه
مقدماتها بل يعاقبهما بالفصل بينهما،
ونستمع إلى صوتي حاسبي وإزیدورا
بالتبادل، وترق شكوى حاسبي مما نزل به
حتى تتناهي إلى لغة الشعر حين نقرا
له، ماذا أتم لك يا إزیدورا؟ كتبت اسمك
على أجنحة الحمام عله يصل في طيرانه
إليك، كتبت اسمك على رمال الصحراء،
وعلى حوائط معبد الكرنك بحروف
سرية. (ص ١٧) وتنتهي القصة كما تنتهي

تتكون المجموعة القصصية، إزیدورا
والأوتوبيس، محمد سلمانوي من ست
عشرة قصة قصيرة، وكما جاء في تقديم
الناشر أنها مختارات من مجموعاته
القصصية الست السابقة بالإضافة إلى
بعض القصص الجديدة التي لم تنشر
من قبل، وناشرها الدار المصرية اللبنانية.
ولمحمد سلمانوي تاريخ إبداعي مع
ثلاثة أنواع أدبية: القصة القصيرة،
والرواية والمسرحية. لهذا كنت أود أن
ولتختتم الكتاب بتصرف موجز للكاتب
وقالمة إبداعه، وهو تقليد أود أن نلتزم
به دور النشر الفالدية المزوجة على كل
من الكتاب وقراءه.

ملاحظة أخرى كنت أود أن يثبت أ.
محمد سلمانوي تاريخ كتابة أو نشر كل
قصة حتى تتابع من خلال هذه التواريخ
تطوره الإبداعي في القصة القصيرة لأن
إغفال هذه التواريخ يدهشنا إلى البيت
من ملاحم عامة تقصص المجموعة، وهو
ما يتعدى الوصول إليه إذا كانت المنتخبات
من ست مجموعات سابقة أدهمها كاتها
في مراحل متطورة لكتابتها القصة
القصيرة.

على أية حال واضح أن القصة
القصيرة عند محمد سلمانوي ما تزال
صوموا في شكلها، لكنه يستخدم أكثر من
شكل من أشكال الكلاسيكية القصصية،
فيبدأ قارة إلى الحقيقة الفرعونية في
قصته الأولى إزیدورا وحاسبي مما يذكرنا
بروايات نجيب محفوظ الأولى
الفرعونية، وهي تتعامل القضية الشهيرة
فضية الفصل بين جيبين لعل أشهرها
مسرحية روميو وجولييت لتفسير التي
انتهت بمصرع الحبيبين انتحارا. وفي
هفتنا نسمع إلى أكثر من صوت، صوت
الراوي أولا يقدم لنا ما كتبه الحاكم
الرومانى على مصر ووالد الشاب إزیدورا
على مصريين يحرصان باب العرفة
المفوفة فيها موميأها. بعدها نستقبل
فانتازيا إلى طيف إزیدورا تقص حكايتها
مع حبيبها الضابط المصري حاسبي (وهو
اسم عربي أيضا من أسماء النيل) من
حرس الفلك الرومانى حين جمع بينهما
رئيس الحرس- متجاهلا النتيجة
المرجحة لتصرفه- وذلك بأن أمر حاسبي
باصطحاب إزیدورا ابنة السابعة عشرة

”إزیدورا والأوتوبيس“

محمد سلمانوي

الدار المصرية اللبنانية

القاهرة ٢٠٠٨

هناك ثلاثية أخرى مختلفة في مجموعتنا القصصية ما أطلق عليها ثلاثية الصراع العربي الإسرائيلي



العربية. قص الأثر بمعنى تتيهه وقص بمعنى حكى. فروي لنا عن الأقدام التي تخفى على متلقى التهاتين. وإذا كان الطفل محمد الدرة ضحية واضحة للعدوان الصهيوني حيث أنه في عمر لا يسمح له بأي نشاط إيجابي، فإن جهاد المسرحيات كان ضحية لتصرف أكثر إيجابية، حيث أنه تحدى تعليمات الاحتلال الإسرائيلي في مخيم «عسكر الجديد»، لأجشيش بضواحي نابلس بالامتثال عن إضفاء الأهمية والترتيب لإيقاظ سكان المخيم لتناول سحورهم الرمضاني. ومما دعا جهاد للاحتلال إلى إعلان حظر التجوال في نابلس وضواحيها. غير أن إصرار جهاد المسرحيات على مواصلة مهمته كان خرقاً لحظر التجوال الذي إلى إطلاق النار عليه سقطت على العور غارقاً في بركة من الماء. حتى سيارة الإسعاف منوها من دخول المخيم بدوى أن حظر التجوال يجب أن يحترم (ص ١١٧). (ولا يحترم إنقاذ إنسان) تنتهي القصة بملو لمضى وأسروى على المساء حيناً في بركة هذه الجملة التي اختتمت بالكلتين أو اللطيفين اللذين يجمع بينهما معنى متشابك، «وحيث جاء عبد الشطر بعد انتهاء شهر رمضان المبارك فإن مخيم عسكر الجديد بنابلس كان قد خيم عليه حزن مقيم، لكن سكانه كانوا قد صحو جميعاً وأخذوا يستعدون للفلاح - للفلاح». إن هاتين الكلمتين الختاميتين قد أملتاً ما أطلق عليه النشوة الإبداعية التي تقطع لنا إذا كانت القصة قد انتهت فإن الحق لا يزال متواصلاً تعبر عنه هذه الجملة الختامية.

أما مصرع وهاء الأثر فكأن ذروة القصص الثلاث، لأنها لم تنته بظرف ليافجتها العدوان كما حدث في مصرع الطفل محمد الدرة الضحية المسلمة السلبية أو المسرحيات الضحية المسلمة الإيجابية التي تحدى تعليمات المحتل، بل تجاوزتها بحركة أكثر إيجابية في أقصى الطرف، وذلك في عبيلة كانت تترك أن فيها نهايتها لكنها تقصص مسبقاً من قاتلي شعبها دون أن تتجنبهم سعادة الانتقام لأن جسدها تنزأ اشلاء.

ثلاثية ثالثة يجمع بينها ضمير المتكلم وهي برج العرسلان وأبو، وهي متولوية متصل والعرض الأخير. أما «برج العرسلان» فتشكي قصة طيب له

التجول التي أعلنها العدو. فإن مصرع الطفل محمد الدرة غير المشارك في المعارك التي فوجئ بها في طريق عودته مع والده يعد أن فشل في شراء سيارة سوارو مصراة تحقيقاً لحلم الطفل بما في ذلك اليوم. أقول إن مصرعه كان يرمز لألاف الأطفال الفلسطينيين الأبرياء الذين راحوا ضحية ذلك الاستيطان العدواني المتواصل منذ آلاف السنين، منذ اعترفوا على توراتهم، على نحو ما نقرا في سفر يشوع على سبيل المثال عندما استولى جيشه على مدينة أريحا، وقتلوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، وطفل وشيخ، حتى البقر والغنم والمير بعد السيف، (يشوع، أصحاح ٦، عدد ٢١) بينما نجت رحاب الزانية (هكذا لقبها في التوراة) التي خانت قومها وأوت جواسيس إسرائيليين قبيل المعركة التي أبادت شعبها. وهكذا تنتهي قصة محمد سلامو المساوية التي يحتشد فيها الواقع والرمز يتساؤل الوالد واحتجاجه، ما ذنب ولد؟ كل ما كان يريد هو سيارة حمراء. كما يمكن أن يكون حيا الآن. لو كان عندهم رحمة. قليل من الرحمة (ص ٢٠٢)

وقد استطاع محمد سلامو في القصصين الآخرين المعنوتين باسم بطليهما «وهاء إدريس» و«جهاد المسرحيات» أن ينقلنا من التاريخ إلى الفس حين اقتنع كلا منهما بنهايتها: استشهاده «وهاء إدريس» أثناء قيامها بعمليتها الاستشهادية، وأغتيال مصاصات الاحتلال الإسرائيلي لجهاد مسرحيات مدينة نابلس. كما مضى بقص «بعين الصنا» ما خلف هاتين النهايتين. أو هاتين الحلفتين لما سبقهما وما يليهما. بدأ بالخبر المثل من وسائل الإعلام ليجعله مجرد باب مغلق منه إلى ما وراءه حيث يزدهر دور الفنان. فقد قام بعملية قص - بعينين لها في لغتنا

لكن مبدعنا محمد سلامو يأبى أن يكون هذا هو مصير الجواد. يقصد الإنسان - المتميز فما يلبث أن يخرج من الأكل أكلًا ومن الجافى خلوةً مستخدماً ما يتجعله له الإبداع أداة من حرية الانتقال من الواقعية إلى الخائيلية. فما لبث أن نقرأ أنه مع فجر اليوم التالي كان قد ظهر على جانبي الجواد خناخن كبيران بدا يتحركان في يده إلى أعلى وأسفل حتى ارتفعا بجسده الهزيل عن الأرض شيئاً فشيئاً وما إلى ذلك لحظات حتى كان هناك فوق قمم المأذن وفوق ظهر السحاب وفي السماء صاهده الناس بين يعضير المأذن والقباب والدور والنزهور والرياحين من كل نوع ولون (ص ١٠٦) معلناً عن تميزه حتى في استشهاده.

ويتساءل القارئ هل تختلف كثيراً نهاية «رحيل جواد أشهب» عن قصصنا السابقة: الأميرة الفروغونية «إيدورا» والمسيويز القاصي العشرين أو الواحد والعشرين المصري. وعود الغاب، وشجرة الجميز، تعددت المسالك وتوحدت النهايات



هناك ثلاثية أخرى مختلفة في مجموعتنا القصصية هي ما أطلق عليها ثلاثية الصراع العربي الإسرائيلي وهي بعنوانين أبطالها الثلاثة امرأة ورجلان مستمدة من تاريخ هذا الصراع (وهاء إدريس، والطفل محمد الدرة، و«جهاد المسرحيات») ولكن قلم محمد سلامو نقلها من التاريخ إلى الفن، ما وقع إلى ما يحتمل أن يقع.

إذا كان مصرع كل من وهاء إدريس صخرة لعملية فدائية قامت بها، و«جهاد المسرحيات» لخالفتها لقوانين منع

كان مصيرها بعد حياتها المحايلة انهيارها على أثر صدمة أسفل جذعها من سيارة يتوقدها شاب مخمور هوجج بسيارة نقل قادمة تجاهه فاندفع إلى الجانب الآخر حيث شجرة الجميز فصرحت من الألم صرخة سمعتها بقية أشجار الضاحية (ص ٨٣) في هذه المرة لم تصرخ فلم يكن بها صوت (٨٣). ومبعد القصة لا يحرص على أنسنة شجرة الجميز فقط بل على أنسنة الطبيعة كلها. فالأرض تعبد للشجرة المنهارة الحديث الذي كانت تحبه لكنها لم تكن جيب، بينما ريت أشعة الشمس الدافئة على أغصان الشجرة عليها تنطق لكنها ظلت بلا صوت ولا حركة (ص ٨٣) لهذا انتحيت الأرض، واحتجبت الشمس وراء سحابة سوداء لتندارى دموعها. بينما سقطت حدائق الحي زهورها حزناً على شجرة الجميز. وتُفتمت القصة ونحن نستمتع لأحد سكان الضاحية يقول وهو ينزل من البيت ويهم بركوبه سيارته، لماذا لا يقتلون تلك الأشجار القديمة التي لا تافدنا منها. وهكذا تصمد الأحداث حكم الإعدام على الأصالة وهو ما سيكتفون في أكثر من قصة ثانية، صحيح أن بطلنة قصة شجرة وليست إنساناً، لكن مبدعنا الأنسنة.

أما القصة الثالثة «رحيل جواد أشهب» فإن بطلها كما هو واضح من عنوانها من عالم الحيوان وليس من عالم النبات كالقصتين التابيتين. وقد امتدت الأنسنة هنا إلى عالم الجماد المحيط بجواندا «أشهب» فيه يبياس عالم كالسحاب، وترزين جيبتها غرة مبيضاء كأنها التاج الملكي، بينما الجياد التي من جونه والحافدة عليه كانت نضاً كالحة أو سوداء داكنة. هنا نشعر بحس القرارة أننا لنسنا أمام أنسنة الحيوان بقدر ما نحن أمام حيونة الإنسان. وكأننا نقرأ قصة من قصص، كليلية وطرية، لاين المحقق. فهي تعكس على دمنه هذا الحصان المسافر ما يلقاها الإنسان المتوق من حقد قاتل من الحورميين مما يتنبه به، فلا عجب أن حدث في ليل يهيم بينما كان الجواد الأشهب نالماً، لتبلى إليه بعض الجياد السوداء (لا لاحظ العزى المتعرق عليه ليويد اللوح من الاعتذار لإخواننا الأفارقة) فلم يتبينها أحد في جنج الليل، ثم غرس أحدهم لاحق ضمير العقال البشري) فخرجه السموم في كبده وفارق جميعاً هاربين

استطاع محمد سلامو في القصصين الآخرين المعنوتين باسم بطليهما «وهاء إدريس» و«جهاد المسرحيات» أن ينقلنا من التاريخ إلى الفن





الأخير.. أم أنك أنت أيضا لن تأسى كالأقباط.. ففى ليلة ليست كالبقية السابقة لأنها ختام لياليه المسرحية أى حفل وداع.

وتتضمن هذه القصة القصيرة بقدا من هذا الزميل العابر من المشعلين بالمسرح للمشتغلين به حاليا حين نسمع نعلنا يعل أن شخصه المسكين لم يعد يقوى على تحمل عذاب المسرح أكثر من ذلك.. عذاب المسرح الذى لم يعد مسرحا.. بل شئ آخر لا أعرفه.. (ص ١٦٨). لعلها يقوى على تحمل فكره لتستطيع أن تلاحق تطورات العداوة.. ولعلها كلمات وذاعية تبطل مسرحى لأحدى المحجبات بفنه شيخوخة فكر لم تستطع أن تلاحق طبعها.. ماضيتها كشعبة الشمال التى تؤكد للنوأتى أنه على الطريق السليم.. (ص ١٦٨) برهان آخر يؤكد أن ثقافة محمد سلموى تطل من خلال ما أبدعه من شخصيات.



بعد هذه الشالاهيات الثلاثة نقرأ قصتين مختاريتين إحداهما رسائل العودة، وهى خمس رسائل، والأخرى باب التوفيق، أعزل قصص المصمومة وتشكون - مثل بعض القطع الموسيقية - الغربية من ثلاثة أجزاء والأدق ثلاث حركات.. ملحن حزين.. لم معتدل حالم.. وأخيرا سريع متلاحق.. يعود إلى رسائل العودة، وهى تتكون من خمس رسائل كلها تتناول العودة علاقات مقطوعة.. الأولى يتناول فيها الحبيب عودة حبيبه التى على قهده قوله أخوها بعدة السام.. ويربط عودتها بحواث جسام استمعدو تشرق فى السعد الأندلس.. استمعدو الجوان.. وتنتهي فلسطين وتحطم وتنتهي قوبرها.. وتنتهي القصة والشارى فى شك هل موت حبيبه التى الذى فصله عنها لا قد يفتح قصته هذه الكلمات العاصمة لاند أجترت لا فتانى شاطئ الحياة إلى البر الآخر عودى إلى ولا هسارتك هذه الدنيا وأسى إليك حيث أنت

والقصة الثانية رسالة من صديق إلى صديقه الذى أبعده عنه غربة معانديه.. لا أريد أن أتخيل كيف تكون

التي وضعها محمد سلموى بين قوسين أن اتصاله مفزعه عودته إليها برغم أنها فى بداية حديثها معه.. تقول له.. لقد تصورت طوال الوقت أنك سأسارت.. ثم أتخيل أبدا أنك فى نفس البلد أو حتى نفس الدنيا (أى أنك شادرت الحياة). تعرفنا معا تركك عندي (ص ١٣٢). ولأن معلم أبطال قصتنا مشتقون فإننا نسمع إلى بطلتنا وهى تعلق لحبيبها السابق ولقراءه قصتها على السواء أنها تفضل لحنه دعوته على العشاء عن الغداء لأن العشاء لا يكون إلا فى الليل.. وللليل يسدل ستارا على كل متاعب الحياة ولا يعود الإنسان يرى إلا ممتعة الذى يجلس أمامه على مائدة العشاء.. صاما كما فى المسرح الأسود.. الذى يخفى من فوقه جميع المظلمين ولا يرى الجمهور إلا ما يحملون من أدوات بوضاء (ص ١٣٢). عاشقة يشكرها كاتب هذه السطور لأنها تقدم له معلومة عن المسرح الأسود كان يجدها.. وكانت قد أعلنت أثناء حديثها أو شررتها التليفونية أنها سعيدة فى حياتها الجديدة التى التقت فيها بشخص آخر.. وجدت أنه يحسنها كبيرا وأنا سعيدة معه الآن.. (ص ١٣٢) لكنها سرعان ما تراجعت معلقة.. حبيبى أنا اعترف لك بشيء أنه شخصيات

حدثك عنه الآن لا وجود له.. لقد اختلفت هذه القصة لأحفظ كرامتى أمامك.. (ص ١٣٢). إننى لم أر أحدا منذ تركتني.. لم يدخل أحد حياتي.. كنت أعرف أنك ستعود.. (ص ١٣٢). وتختتم القصة بهذه المفاجأة حين يعلن أنه لم يعودوا لعرسه.. فيعود إليها الصداق الذى أعلنت فى بداية شررتها أنها كانت مصابة به فى البداية.. صدام مرزق لكن تقابل بعد ذلك وبعدت إلى الحياة مرة أخرى.. (ص ١٣٢).

فالمنجاة فى نهاية القصة وريط نهايتها بدموعها من الأساليب الشكلية المتداولة فى الإبداع القصصى.. والتي أجاد محمد سلموى استخدامها فى هذه القصة.. أما القصة الثالثة التى استخدم فيها محمد سلموى ضمير المسكلم فى هذه المجموعة فهى عنوانها.. العرض الأخير.. وهى مصادفة فى اتجاهها للقصة السابقة لأن ضمير المسكلم هنا هو ضمير الحب الذى يخاطب إحدى المحجبات بتاريخه المسرحى متساللا هل ستوكونين معى هنا فى هذه الليلة.. فى العرض

الطبيب ينتهى ويصبح الخالص الوحيد للمريض من الأامه هو حين يقضى الله أمرا كان مفصولا.. (ص ٩٦). فهو لا هى أغوته ولا هو نجح فى هديتها.. وهو موفق مختلف عن معظم العداوات المماثلة فى أعمال أدبية سابقة إما نجح الرجل فيها فى هداية المرأة وإما أن المرأة نجحت فيها فى إغوائها للرجل الذى حاول هدايتها كما فى رواية أناتول فرانس.. أو القس مع العمياء جروتر لأندريه جيد فى روايته.. السيمفونية الريفية.. عندما استعادت بصرها بفضل مجهوداته ووجد القس نفسه معرزا بها.. وقصة.. شادى طومسون.. من رجل الدين فى رواية.. الماطر.. وسمرست موم الذى يحاول إغواء الغانية وهى اللحظة التى يكد يتحقق فيها هدفه يكشف أن محاولته لم تكن لإغواء روح الغانية بقدر ما كانت وسيلة لمقاومة رغباته الدفينة التى ما تلبث أن تنتصر عليه.. أو ربما مواقف أخرى مكسبة لاند نجح فيها الرجل فى هداية المرأة على نحو ما نشرها فى رواية.. جسر الشيطان.. لعبد الحميد جودة السحار.. بينما فى رواية.. الرباط المقدس.. لتوفيق الحكيم انتهت العلاقة بين راهب الفكر والسيدة التى رآته فى بيته دون أن توفيه ولا أن يهبها.. (انظر فى بهم السس.. وقد عرضت منه محاسن إلى ملهى من الدرجة الثالثة أملا فى ألا يعرف مكانها فلا يلاحظها.. لكنه يتكشف الملهى الجدي وأنها تقابل فيه جميع معارفها القدامى.. وبالرغم من ذلك حيث سيطرت محاسن على حياته بحيث يعترف أنها يخجل من سره تفاصيل يومه بقدرة حلقها بالصحف تحت برج السرطان (ألاحظ استخدام القصة السابقة بعمان ثلاثة فطيل لمصطفى طيب المرض جسديا وعلاقته بالغانية.. سرطان عاطفى.. والتطلع إلى برج السرطان لقراءة حلقها) وهذا التلاشى أحد مكونات الوحدة - مضمونا وشكلا للقصة.. لهذا يعترف بهزيمته فى ختام القصة.. ويبحثه مستخدما مصطلحات تخصصه وعزواجا بين مهنته وصعته.. لم يجد العلاج.. لم يجد الاستئصال.. لم يجد النقطة.. لقد فشلت العملية الأولى فى حياتي.. نسية حقائقة طبية مهمة إلى فى بعض حالات السرطان المتقدمة.. فإن الجراحة لا تقضى على المرض.. وإنما على العكس.. تنتقل.. وهى مثل هذه الحالات فإن دور



القصة الثانية ما أطلق عليه ثلاثية ضمير المسكلم والأيقونة المتكلمة فى قصة.. ألو.. لاند مجرد حديث تليفونى من إنسانة مجهولة الاسم (وإغفال اسم بطل القصة أو بطلتها ساء فى كثير من القصص المجموعة) ودأ فى مكانة من حبيبها السابق عادل (ذكر اسم البطل الثانوى سمة أخرى) الذى توحيما صلتها بها منذ سنة وسبعة وعشرين يوما بالضبط.. (ص ١٣٦). لكنها.. من جانبها لم تقطع صلتها العاطفية به.. لهذا حين بنا زده توجيه دعوة لها.. لم تهله ليكمل ما بدأ.. بل اندفعت تسبق بيقية مكانته.. وطبقا لحماها فى راب علاقته الهزيمية المأزومة كان أساس كلماتها.. (عالم خارجى.. وهاجسا.. عالمها الداخلى)

قد تمزقت أوصال الوطن العربي وكتبها يستغيث بشخصيات من التاريخ الفرعوني والعبري والحدديث



لحبكت واثلك لا تردى إلا ذلك الجلباب القصير الذي لا يمت لميسك بصلة، (ص ٤٩) من مرسلات أو أصابعك مكرود (ص) وكانت طئوني وأسفاه كلها في محلها فقد وقع لك حادث ومرضت وأصاملك يتروقه إنه الحادث المباحث الذي لم يكن مكرود. أهو المرض الخبيث الذي لا يأتي إلا خلسة، وهو المكروه الأكبر الذي يستولى على كيان شاب في مقتبل العمر كان دائما مقلتا على الحياة (ص ٥٠). وإذا كان انقسام العلاقة الأولى على أساس عاطفي إن لم يكن قلبيا فيما يبدو، والعلاقة الثانية على أساس فكري، فإن انقسام العلاقة الثالثة بين أمومة وبنوة ووعلى، فالأبنا من مصطفى وشريف أودعا أهمها الفلسفية دارا للمسلمين وانفصال عنها، شريف طبيب لا يكاد يراه من يعيش معه في بيت واحد، ومصطفى رحل. ترك البلد كلها وسافر، وفي تعانين في بيت المسلمين مع زميلاتها إحداهن تشكو هجرة القرى فلم يرها أحد منذ ثلاث سنوات، والأخرى التي كانت تترك في السراير الملاصق لسرايرها ماتت أول أمس (ص ٥٢)، والشرع في المدرسة أخبرتها أن أمها ستة أشهر على الأكثر حافظت بذلك إرعاها على إنزعاجها، فمن وكلفتهم من مناجاتها نفسها كم نحن لوطنها الذي أرغمت على تركه، يأتى الأهل والأصدقاء لزيارتها من القدس وحيفا ونابلس والخليل، وما تلبث أن تكثف أبعاد الانفصال في قصتها حين تدعو السيدة المجوز التي على شفا الموت مطالبة: أعد إلى بيتي القديم. أعد إلى وطني الذي على كل ما أخذته منى عنوة دون وجه حق أعد ولو ساعة واحدة قبل أن تأتي لتأخذ حياتي (ص ٥٣) واضح أن محمد سلموى مهموم بفضية فلسطين نراها تتسلل في أكثر من قصة قصيرة له، وهي رويته المميزة "الخرز الملون"، (١٩٩٢) حين يظلها فلسطينية مسرير تهاجر وتموت في مصر رسالة رابعة من حبيبة إلى حبيبها الذي هجرها بعد ثلاث سنوات أمضاها تنظر إلى عينيها، كلمات التقينا، وبيس أحمده التي طالما اكسها فدنيا على حد تعبها في راساتها بل إننا تعزو إليه أوديتها، لابلت الذي صنعها بيديك، بشمتيك، يدراعيك، بأفكاسك، بقبالاتك، (ص ٥٤) وفي تعاقبه لأنه من يذوق عناء أم ولدته أن تزوجه ابنه

شريكه (ص ٥٥) ثم ما تلبث أن تكشف ثقافة البدع من خلف بطله قصته حين نسعها نقول: هناك من الناس مالا يمكن تخبطه. كيف تتخطى البشرية خروج آدم من الجنة؟ كيف تتخطى خيانة صلب المسيح؟ كيف تتخطى عار مقتل الحسين؟ كيف تتخطى كراهة ميروشيما وناجازاكي وتكمير عظام أطممال الانفاضة في فلسطين؟ (ص ٥٦) وذلك رغم ما تال هذه الكلمات من تبرير يرد على لسان كاتبة الرسالة حين تقرأ أن ما فعله الطبيب النفسي الذي أخذتها معها رغم عنها إليه، هو أنه جعلني أعاشير مع الإنسانية فقط كم تعلم الإنسان أن يتعايش مع كبريات مآسى التاريخ، (ص ٥٨)، ونواصل الاستماع إلى ثقافة مديده محمد سلموى حين تقرأ أن علاقتها بحبيبها كانت هي الخفاء وحركات القارة الوطنية التي تتخطى تحت الأرض لغزوة لكنها تعود لتنتقل بيد ذلك تحرير الأوطان من الظلم والهوان. نهذا تحصر الحب في هضم مغلق كالجسم المازن، وعصيت الأوطان وحركة المقاومة ما زالت مخنوفة تحت الأرض والأوطان لم تتحرر، ظلت الأرض محقة وظل المعصيب مغصبا، وظل ذلك معقورا. لم يأت الحلص، أما ذلك الذي عاد إلى فقد كان المسيح الدجال، (ص ٥٧). وتنتهي الرسالة لا بمناشدته العودة التي لم يعد أمل فيها. بل بتبريره، كيف تصورت أنك يمكن أن تعود إلى بهذا الشكل كالصورة المزهرة التي ضاعت منها دوزة التركيز بعد أن اهتزت الكاميرا أو في الصور العصيد الجبان وكان يجب أن تعود إلى نفسك قبل أن تعود إلى (ص ٥٨).

أما آخر الرسائل فهي تكشف عما جاء مضمرًا ومتناشرا في الرسائل السابقة، وهي بعنوان "مضى العودة إلى وطن، وهي تلتقي معنى سياسي على الرسائل الأربع السابقة وتجعلها رموزا مبهدة لهذه الرسائل الخاتمة وليست مجرد ترويضات في رسائل يطالب كل صاحب من أصحابها عودة من يهجم الأحر. فقد تمزقت أوصال الوطن العربي وكأثيرا يستغيث بشخصيات من التاريخ الفرعوني والعبري والحديث، ميذا وأحمس وصلاح الدين وعبد الناصر: فمن يدعون الإسلام صاروا يقتلون أشقاءهم في الجنوب. وبما من حملتنا

أما الحركة الثانية فهنوفا يدل على مضمونها، من حيث حاله، في بداية هذه الحركة يقدم لنا محمد سلموى مشهدا فانتازيا حين يستمع محمد إلى طرق أن متكرر يوقظه من نومه ثم يتشجع أن مصدر الباب الأثري الذي استضافه في غرقه، لعله دلالة على مدى سيطرة هذا الباب على عقل محمد وانشغاله به. تقول القصة إن محمد عبد الفتاح عندما يستيقظ في الساعات الأولى

الفاصلة بين الليل والنهار شعر أن حياته تبدأ من جديد، وقد أكد تعامله حين استقبله بواب المدرسة معلنا صرف منحة له بسبب إشرافه على نشاط الطلبة في نهاية العام الماضي (ص ١٥١) وبذلك حل ملقنا مشكلة دين عم صابر المستحق لحسن. كما تلقى دعوة لحضور حفل ميلاد طالبة توفيق (لاحظ اسم الطالب واسم الباب وهل سيلازم بطلنا التوفيق أم سيحل محل عنه) وهو الوحيد من الأساتذة الذين ضمت دعوتهم كما كانت عزه الوحيدة من بين المدرسات ما أتاح لها فرصة لقاء عاطفي لثقة علاقة حميمة بينهما (الليس اسم الطالب توفيق؟) بذلك فبشرت حياة محسن عبد الفتاح. أحسن أنه يعيش حياة أخرى غير تلك التي كان يحياها، (ص ١٥٢) وقد دفعته تلك العلاقة الحميمة إلى علاقة أخرى حميمة مع باب التوفيق فمضى ينظفه من أمام ومن خلف.

أما الحركة الثالثة، سريع متلاحق، علاقة محسن عبد الفتاح بزميلته عزه وأصبحت ردة، وكما أنه ليس لدينا الجبروت لموقف الجفاء الذي كانت تقفه عزه، ولا كذا تطورت علاقته به إلى الأفضل. فإننا لا نعرف أيضا لماذا انكسرت هذه العلاقة، فلا بد من أن الرواية أية مبررات، العلاقات تتهور وتنتزع ثم تعود فتشتت في تألف مع الجو، فمحسن ساهل كما يتسائل قراء قصته، ماذا حدث وهل حل الشفاء فجأة، أصبح أنا في الأسبوع الأخير من سبتمبر لكن الجو لا يتطلب فجأة هكذا بين يوم وليلة يسبق محمد سلموى قراءه في الاعتراف بأن هذا الانقلاط العاطفي حدث فجأة وبدون أن يكشف لنا أي مبرروا. وهكذا انقلبت علاقة عزه- محمد كالجو- بين يوم وليلة بحجة الوضع الذي نحن فيه، هل لي برك ما شغل لتأمين مستقبلنا، (ص ١٦) كأنما لم تنبئ إلى هذه الحجة إلا الآن، وكأنما معظم الأرواح لا يبدؤون حياتهم إلا بعد أن يكونوا قد كوتوا أنفسهم على حد التعبير الشعبي وقبل أن نلجج فإن محمد سلموى يسبقنا حين يصنع على لسان بطلته ما يبدو عقل قاربه عندما يسأل محسن عزه: ماذا حدث؟ لقد تغيرت. فتجيبه: نعم تغيرت، وتكون الإجابة الاستنكافية الاستهائية: هكذا بين يوم وليلة؟



قصص من الريف والمدينة ترجمة د
انور لوفى هيئة القسم العربى بكلية
الآداب، القاهرة، (١٩٥٠).

وأضيف: لكن الاستمتاع بهذه
المجموعة - كما أرجو - ليس له نهاية.

وختمنا نستطيع أن نخلص من هذا
العرض إلى السمات الآتية للمجموعة.

- أنها تتضمن ثلاث ثلاثيات إحداهما
تجمعها شخصيات غير إنسانية، عود من
أعواد الغاب، شجرة حمير، جواد، والثانية

يجمعها صميم المتكلم، سرج السرطان،
أبو، العرض الأخير، والمجموعة الثالثة

يتصاعد فيها الصراع العبرى
الإسرائيلى: الطفل محمد الدرة (لقى

مصيره مجاناً) وجهاً المسحراتى (لقى
مصيره إقامته السليمة) ثم وفاء

إدريس (هاجمت قبل أن تبدأ) هذا
فضلاً عن قصتين إحداهما قصة "رسائل

المودة"، وتتكون من خمس رسائل،
والأخرى "باب التوفيق"، أطول قصص

موسيقية، بطيء حزين، andante، ثم
معتدل حالاً، وأخيراً سريع متلاحق

في حركة إيقاعية، السيمفونية يكون
مبهجاً رائعاً أما في قصتنا فهو مزدهر

بالصباح.

- تنتهى معظم قصص المجموعة
نهايات مأساوية.

- معظم القصص يمكن قراءتها
كقصص واقعية وأخرى يشف الرمز من

حلالها.

- تتميز بعض القصص باستخدام
اللفظ الواحد بأكثر من معنى مما يسبب

لونا من الوحدة الشكلية التي تشرب
بين سطوحها مثل كلمة السرطان في

قصة "سرج السرطان"، وكلمة التوفيق في
قصة "باب التوفيق".

أن ثقافة الكاتب تلمس من خلال
شخصياته في أكثر من قصة تماماً كما

تلمس ثقافة النقاد بحكم العودى - من
خلال رؤيته

وأخيراً ألاحظ أنى اقتصر على
قارئ واحد الشئ، ألا يكون قد قرأ

المجموعة فالحمد له حظوظ رئيسية
يمكن منها متابعة ما يقرأ، ألا يكون قد

قرأها فاضيف إليه بعض ما أخصبت
وجدانى قرائى لتقصي المجموعة.

إن المجموعة كانت من الشراء بحيث
استدعت قراءات سابقة - أما عديد لها
بعضها واستعاد بعضها

هجرة الصفاط والعيش بعيداً عن هذه
الواوخر التي كانت كل فاحورة منها

تملؤ شعوراً بالصخر (ص ١٢٣)
المسيرة المظلمة المظلمة بين صفته

القضار - وانكاساتها على شخصيته -
الصخر والقضار - وأرباطها معاً بحرف

الحلقة - وهى إحدى المميزات الأسلوبية
عند محمد سلماتوى في أكثر من قصة،

وحيث علم بنية المسؤولين هذه الفواخر
وتمليك أرضها لشركة أجنبية سقيم

عليها مشروعاتها حاول الدفاع عما
يمتلكه عمله الذي يوقى عائلته التترارى

على أى مشروع حدثى، بدأ بخبر
فالحفاظ الذي فشل في لقائه، حتى

عندما جاء الأجاب لتنفيذ مشروعهم
ولم يكن مع صالح يعرف لمتهم، وشل

في التناغم مع المصرى الذي يرافقه
بل كان نصيبه التهديد وانتهامه مع العمل

ضد مصلحة التهرب، ويختتم محمد
سلماتوى قصته وأصابع بطحا مع صالح

قد تسنحت وهى تقبض على الشربة
بعيث أن الحوكب عندما عاد مرة أخرى

إلى حيث وقعت الميراثات، كان وميض
مع صالح قد انطلق في التراب، دون أن

يلحظ أحد ذلك (ص ١٢٠)، مصير
ماسأوى آخر كمصير معظم أبطال

قصصنا السابقة.

وتذكرنا هذه القصة بأخري للكاتب
الفرنسى، الفونس دوييه (١٨٤٠ - ١٨٩٧).

دسر المعلم كورنى، فى مجموعته
القصصية رسائل من طاشوتى، وتذكر

حول مأساة المعلم كورنى صاحب إحدى
الطواحين الهوائية التي لم تستطع

مقاومة محاربي البخارى أقيم حديثاً
لتعلم إنجاز طواحين الهواء المسكنة

التي حاولت أن تخلص بعض الوقت من
اليفار كان الأقوى مما اضطرها أن

توقف لمعها واحدة بعد الأخرى رغم
أن المعلم كورنى كان يخذل أهل قريته من

النجوى إلى الطحن البخارى لأى
الجار رخص من عمل التناقص بينما

أنا ألاحظ بربيع التشمات تسمية الله
الكريم، لكن أحداً لم يستمع إليه.

وتنتهى القصة بهذه الجملة، ودات
صباح مات المعلم كورنى، النفس ضلقت

مع صالح صاحب الفاحورة فتوقفت
عن الدوران، آخر طاشوتى لنا، وتوقفت

هذه المرة إلى الأبد. فإن لكل شئ فى
هذه الدنيا نهاية - (الفونس دوييه،

بينما الرجل الصبرى الذى يرى ما
لا يراه المصورون، يعلن: لا تضيق وقتك

يا منى ولا تبس طاقات الناس مع هذه
المسيرة السريعة - هل هى مجرد سيرة أم

مرحلة من مراحل المجتمع - لهذا فقد
غادره جميع ركابه وكان الكمسارى أخرم

ليحاولوا دفعه إلى الخلف لإخراجه من
هذا المنحنى الخطر وإعادة عجلاته على

الطريق - ألاحظ إعادته للخلف، لكن
المجوز الأعشى (فلفندر العراف الأعشى

تريزياس فى أسطورة أوديب الذى أعلن
أن وياه المدينة بسبب زواج أوديب من أمه)

قال على الفور ناصحاً: لا تضيق وقتك
يا منى ولا تبس طاقات الناس مع هذه

المسيرة الجارية. فكان البديل الثانى هو
التخلص من هذه العقبة وفتح الطريق

أمام السيارات وألا فستواجه المنطقة كلها
أزمة ضارية عندما يطلع النهار (ص ٧٢)

وما هى إلا دقائق حتى كان التوبيش
يتدرج من فوق قمة الجبل ليحلح

بسانده، ونظر الركاب إلى الطريق
فوجدوه سالكا تماماً، صورة رمزية إلى

التخلص من حطام الماضي لفتح الطريق
أمام مستقبل تخلص من يشده إلى

الخلف. أعتقد أن هذه القصة تستمد
قيمتها من رمزيتها.

أما قصة العواخير فى أيضا قصة
استثمار الجديد على القديم، لكنه

الجديد القضى على القديم الأثرى.

فأقدم فواخير الفسفاط فى فاحورة
مع صالح (ص ١١١). أمضى سنوات

حياته التى تجاوزت الشماطين يصنع
الأوتى الفخارية مع بين قلل وأزهار

وقدرو، ويتحدث الراوى لإبلاغنا
بمعلومات لا يعرفها مع صالح معتزلاً

بذلك حين يبدأ ثلاث فواخير له بسبق
لم يكن مع صالح يعلم، تصوير صناعة

الفشار على جذران مقبرة أحد أمراء
سفارة، وأنها بقايا إزهار لم يسبق له

مثيل فى صناعة الفشار خلال العصر
الإسلامى، وأنها أقدم الصناعات اتصالاً

بتاريخ الحضارة الإنسانية ذاتها. تعتبر
المفاس الصنى الذى يتحدده المارخون

لتحياى مدى تقدم عصر أى من
الحضارات الإنسانية القديمة (ص ١١٢)،

لذلك لم يستطع مع صالح نقل فكرة

وحتى لا تكون الصائب فرادى. فإن
محمد سلماتوى يقبض انضراجة الحركة

الثانية والتي أعيد عنوانها، معتدل
حالم، يهيئها إلى انقلاب كائوسى، فليت

الأمر يقتصر على علاقتها العاطفية - بل
المستقبلية - بزميلته عزة، حتى بل مع

الذين يتعامل معهم وكانت علاقتهم بهم
علاقة ود، فالحال عليه بهذه لم إن

يدفع ما عليه، حتى باب التوفيق (ألاحظ
اسم الباب وما آل إليه حال محسن) جاء

من يتمه بإفشاء الآثار وجاء من يقول
إنه ليس ملكاً لك حتى تضعه عندك،

(ص ٦٢) وحتى لا يحالنه التوفيق فإن
عده صابر صاحب باب التوفيق توفاه

فجأة مبدعه محمد سلماتوى، دعم عيده
مات؟ كيف مات؟ متى... لقد كان حياً يرقز

بالأسم قطع، (ص ١٦٦).

وهكذا فقدنا كل مؤديات التوفيق فى
حياة سلفنا، عزه، ومديته تاجر الآثار

الإسلامية مع عيده، حتى علوية البقال
هده لم إن يدفع الحساب كله ولا

زوجة مع عيده يالغ الآثار القصصة يموت
وانتهت بموت الألقاب نفسه، وقد لا حصلت

أنه حين عادت عزة إلى محسن دون إبداء
الأسباب لم أعترض وفرحت لعودتها،

لكن حين عادت المظلمة من جانبها
استيقظت التسلالات والاضطرابات

الأدبية من جانبي لعدم وجود مبرر أو
شبهة لهذه المظلمة الثانية وأظنها

الأخيرة.

أما قصة التوبيش - وقد أصبحت
على شرم من الخبرة بقصص سلماتوى

بحيث اتصال عند قراءة كل قصة هل
مضمونها إشارة رمزية إلى جانب ما

يضعه عنه ويصطنع به - هل ركب هذا
التوبيش يمثل مجتمع المصرى أوريا

الإنسانى، وأن الطريق هو النهج الذى
يسلكونه والقائد الذى يتصرفون على

أساسه، وعندما نسمع الضمير يتحدث
إلى الركاب فالأمر إلى الطريق الذى يسلكه

السائق ليس طرفيقنا، هذا الضمير
السائق على الطريق واتسم لا تدورن.

يتضخم الشك الذى يساورنا برمزىة ما
نقرأه فقد قلنا التوبيش بالساناق عندما

انصرف فوق حافة الجبل فتولى
الكمسارى مسئولية الركاب وهو يوجههم

معنا ذلك، تتصرفون وانكتم تتصرفون.
إن نرجو من عدم مالم تتجد جهودنا

فى الاتحاد الصحيح (ص ٦٦).



الشرق العثماني

”زمن أوليا جلبي“

١٦٤٩ - ١٦٨٣

القاهرة عشر سنوات ووزارة الشام والسودان
وبلاد الحبش، وزير الحجاز لأداء فريضة
الحج، سجل أوليا جلبي رحلاته
ومشاهداته في كتابه الشهير
”سياحاتنا، أي كتاب السياحة، وهو من
عشرة مجلدات تحتوي على عشرة آلاف
صفحة، فهو من أغزر المؤلفين
العثمانيين إنتاجاً“.

ضم المجلد التاسع رحلته إلى بلاد
الشام والحجاز. بينما خصص المجلد
العاشر لشهادته المصلة ورحلاته إلى
مصر وأهريقية. لقد اعتمدت العديد من
دراسات التاريخ العثماني على مشاهدات
وتسجيلات أوليا جلبي الثغنية
بالتفاصيل والمعلومات. وترجت أجزاء
عديدة من كتابه إلى معظم لغات العالم
لقد سبقت مشاهداته التي سجلها عن
رحلته إلى بلاد السودان والحبش وحتى
منابع النيل وبحيرة فكتورية مشاهدات
الرحالة الأوروبيين التي لم تبدأ إلا في
أواسط القرن التاسع عشر. ولقد استفاد
المؤرخ التركي يلماز أورتونا في كتابه
الموسوم: ”تاريخ الدولة العثمانية، كثيراً
من كتاب أوليا جلبي في الجزء الخاص
بالوصف الجغرافي للاستمبراطورية

العثمانية، وساهمت الترجمة العربية
لكتاب أورتونا في إتاحة هذه الفرصة
لتحريف القارئ العربي بهذا المؤلف
والرحالة العثماني، وكتابته الذي هو
سجل فريد لمفحات نادرة من التاريخ
الاجتماعي والاقتصادي والسياسي
لشرق العربي الإسلامي. وقد ترجم منذ
مقدود المجلد العاشر منه محمد علي
عوني، وحققه عبد الوهاب عزام وأحمد
السعيد سليمان، وراجعه وقدم له أحمد
فؤاد متولي، وقد أعادت دار
الكتب والوثائق القومية

قد كتب مؤلفه، سياحاتنا،
بأسلوب سهل التناول، ويتسم
بالتطابق القصصي الشوق الذي
يضم العلوم إلى جانب الحكاية،

كاتب جلبي كتاب، فذلك، من مجلدين
في التاريخ العثماني، ونحفة الكبار في
أسفار البحار، حول تاريخ البحرية
العثمانية، وموسوعة في السير بالحنة
العربية بعنوان كشف الظنون، وفي
الفكر كتاب، ميزان الحق..

ثقافة أوليا جلبي وعصره

وعلى العكس من أسلوب كاتب جلبي
ذي الطابع الأكاديمي والالتزام
الموضوعي، فإن أوليا جلبي (١٦٨٤-١٦٤٩)
قد كتب مؤلفه ”سياحاتنا، بأسلوب
سهل التناول، ويتسم بالطابع القصصي
الشوق الذي يضم المعلومة إلى جانب
الحكاية والتجربة الشخصية المباشرة.
أعنى أوليا جلبي حوالي أربعين سنة من
حياته مرحلة في البلاد العثمانية
وغيرها من البلاد المجاورة. وقد قضى في

ومشاهدات الرحالة وملاحظاتهم
القيمة، والتي تعكس التكوين الثقافي
والتجربة الحضارية للمؤلفين، وما
تستند إليه من رؤية كونية وتصور عن
الذات والعالم.

برز من مؤلفي القرن السابع عشر
شيخ أحمد دهنه منجم باشي (١٦٣١-
١٧٠٢) صاحب كتاب ”جامع الدول، من
ثلاثة أجزاء في تاريخ العالم، وكتاب
”صالحات الأخبار، في تاريخ آل عثمان،
وكلاماً باللغة العربية. كما اشتهر من
المؤلفين مصطفى أفندي (١٦٠٩-١٦٥٧)،
المعروف أيضاً باسم ”حاجي خليفة“،
وكاتب جلبي صاحب ”جهان نامه“، أي
كتاب العالم، وهو كتاب في الجغرافية
العالمية، وقد استفاد كاتب جلبي من
المصادر والأطالس الأوروبية، كما ترجم
أطلس ماير من اللاتينية إلى اللغة
التركية. وقد ترجم كتاب كاتب جلبي إلى
اللغات الأوروبية لدى صدوره، كما ألف

■ ■ ■ انجبت الحياة الثقافية العثمانية
في قرون ازدهارها عدداً من أبرز المؤرخين
والجغرافيين والرحالة الذين ألخوا
الحياة الثقافية العثمانية عموماً -
وأدبيات التاريخ والجغرافية خصوصاً-
الراء متميزاً. ويرى المستشرق برنارد
لوييس - مؤلف كتاب ”ظهور تركيا
الحديثة، - أن سجلها الأثراني تبدو
بوضوح في مؤلفاتهم من الكتب
التاريخية. فقد كان المؤرخون العثمانيون
الكلاسيكيون رجالاً قديرين، وذوي
معلومات متقدمة على عصرهم. إن
مؤلفاتهم من أنجح المؤلفات الثقافية
العثمانية في فرعها. أما يلماز أورتونا،
المؤرخ التركي المعاصر، ومؤلف العمل
التأريخي الكبير - تاريخ الدولة
العثمانية، - فيلاحظ أن المؤلفين
العثمانيين لم يتوصلوا في التاريخ إلى
مستوى العرب، لكن يمكن اعتبارهم في
الجغرافية على مستوى واحد مع العرب.
شهد القرن السابع عشر فقرة أخرى
في التأليف الجغرافي والتأريخي، تميز
بظهور مؤلفات أكثر شمولاً، إذ جمعت
الخرائط والأطالس العثمانية والأوروبية
قدراً جيداً من المعارف الاجتماعية
والاقتصادية والثقافية. كما امتزجت
المعلومات الجغرافية بالمعرفة التاريخية

سياحة نامة مصر
الرحالة التركي أوليا جلبي
ترجمة: محمد علي عوني
تحقيق: د. عبد الوهاب عزام ود.
أحمد السعيد سليمان
مراجعة وتقديم: أحمد فؤاد متولي
دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة
٢٠٠٢

الشرق العثماني

المجتمع التركي من منظومة اجتماعية وإثنائية وأخلاقية مثلى؛ ولعلّ التصوف في التعبير عن الجانب الوجداني للإنسان والمجتمع، والفرق المعاصر، الذي كان مجالاً للإبداع الفني والتشديد المعاصر المبرر عن الطبيعة الحضارية للتجربة. ويشير الاهتمام أكثر شمولية عناصر ذلك التوليف الثقافي وقدرته على بناء الإجماع اللازم في عوالمه الثلاثة: الإسلامي والعثماني والتركي. لقد حقق ذلك التكوين أو التوليف الثقافي للشخصية (والعامّة) التركية - والعثمانية عموماً - حالة التوازن أو التوحيد الذاتي الأخر. سبّت تلك الحالة من التوازن مناضات الفراغ والاختلال، وفشرت الضغوط الدناتى لامتلاكه الترك نحو قيادة العالم الإسلامي وبناء الدولة العثمانية، وحتى في فترات التدهور والانحطاط، عندما تراجعت الإمبراطورية إلى المرتبة المحلية، تراجعت هذه الدولة إلى التوليف الثقافي، قاعدة للعودة ومحاولات الاستنهاض، فقد كان مثلاً رجل التنظيمات والإصلاح الكبير كرم مصطفى باشا (١٨٠٠-١٨٥٨)، والذي أصبح صدراً أعظم (رئيساً للوزراء) من سرات، كان يرى أن أسس بقاء الإمبراطورية تنحصر في أربعة عناصر: (١) الدين الإسلامي، (٢) خاقان من ينسى عثمان، (٣) استنبول مدينة للشرق (عاصمة)، (٤) الدولة التركية كدولة رسمية. كما كان الأمر كذلك في فكر السلطان عبد الحميد خان الثاني الذي عد بقاء الدولة الإسلامية على توحيد العوام الثلاثة الإسلامي والعثماني والتركي حول شخصية الدولة، الأمر الذي ربما قد أدى إلى زيادة سطخ القوى العثمانية في تقسيم وتجزئة الإمبراطورية. ومنذ أن فقد هذا التوازن وحدث الاختلال في تكوين الدولة التركية والشرقية عموماً، دخل الترك ومعهم الشرق كله في دوامة التجارب والحلقات المفرقة، وتشتتت النهضة.

ملامح الحياة الاجتماعية والثقافية

قام أوليا جلبي برحلتين إلى بلاد الشام، أولاهما في عام ١١٩٤، وقد ضمن تفاصيلها في المجلد الثالث من كتابه. وكدايه في وصف سائر أنحاء الإمبراطورية العثمانية، فهو يصف كل ناحية ارتحل إليها من حيث جغرافيتها وموقعها وعدد نفوسها وبورها وقصورها ومدارسها وتكاياها وخاناتها (أسواقها)

الباحت الذي يتابع فكرة أو ظاهرة أو معاملة تاريخية معينة. ويريد أن يصل إلى منشأ تلك الفكرة أو الظاهرة، والظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية التي نشأت فيها، وصولاً إلى الواقع والحوال الكامنة وراءها. ولعلّت الانتباه في الانطباعات والمشاهدات والروايات التي سجلها أوليا جلبي خلفية المؤلف التي تعبر عن التكوين العام لطبقة المثقفين العثمانيين الأتراك آنذاك، وهو تكوين يعكس كذلك رؤيتهم الكونية للعالم ولذات، كما يدل على توليف ثقافي مركب من التسان، والعقيدة الأشعرية المتريدية، والفقهاء الحنفي، والتصوف المولوي، والتقاليد الإمبراطورية العثمانية، واللغة والتقاليد الاجتماعية التركية، واستنبول مركزاً للعالم ونواة الإمبراطورية. التي هذا التوليف الفريد آثاره على رعي الشخصية العثمانية بذاتها وبالأخرى في صيد فهو وازدهار الإمبراطورية وبغريدها كنزاً عالية أولى. يضاف إلى خصائص ذلك العهد حقيقة أن العصور الأولى لم يكن قد بدأ بعد بتحديثاته وكوارثه اللاحقة، وأن مراكز نقل الحضارات والقوى المحلية لا زالت في قارة آسيا عموماً، بل كان معظمها في حوزة المسلمين خصوصاً، والترك بشكل خاص.

هذا التمثل لتلك الخصائص والمعطيات جعل المؤلف مسكوناً بالرواية الإسلامية للعالم كقاعدة وأساس للنظام العالمي، ويدور الترك في حراسة الدين ونهضة الشرق، ويمر كركية السلالة العثمانية أو دور الجياشاه (السلطان) كحليفة للمسلمين بالمحاور الثمانية في العثمانية و خاقان للجنس التركي يضاف إلى ذلك رؤى المؤلف للمذهب الحنفي كأرضي صور الشرق الإسلامي، وما نتج عن تمثله وتطبيقه القانوني في

وخطط المد، وكافة مناحي الحراك الاجتماعي والإنساني. وغير مصدر لعرف هذه الموضوعات هي وثائق العصر ذاته من مشاهدات الرحالة، ومصنفات كتاب السير والأخبار، وكتب الخطط، واستفسار أهل الحرف والصناعات (الأصناف)، وسجلات المحاكم الشرعية من عقود ووصايا إرث وطبوا ومعاملات، للمرحلة. وأرشيف الدول، ومراسلات القناصل وممثلي الشركات الأوروبية. وما أتجه أهل العصر من أدب وماثورت محكية ومدونة.



لقد تسعت كتابات ومرويات أوليا جلبي، فكانت وعاء لعرف وأحوال عصره، وقد كان ذلك يسبب طريقة كتابته التي اتسمت بالسهولة والاسترسال والسهولة مع قوة الملاحظة، مما أكسبها قدرة تسجيلية هائلة لا تتوفر لكثير من المثقفين ذوي النزعة التحليلية أو النقدية أو الانتقائية. كما أن شغف المؤلف بالتفاصيل الصغيرة والكبيرة، والمحاكاة كاسلر لهذا النمط من التأليف، ساعد على إغناء نصه، وجعله مصدراً أولياً هاماً لباحثين في مختلف المجالات، من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي إلى التوسيف الجغرافي والثقافة الشعبية والولكلور وسوسولوجية المعرفة والإدارة العامة والدراسات السكانية والأنثروبولوجية. وكثيراً ما تحققت مشاهدات المؤلف ومعانيته ومروياته بالمحاور الثمانية في ذلك العصر، وهي مؤشرات أو معبر عن ثقافة الناس ووعيهم التاريخي والديني، وتصوراتهم عن العالم أكثر منها حقائق أو معارف تاريخية ثابتة، لكنها قد تميد

بالفاهرة نشره في ٢٠٠٣ وجاءت في ٦٦٠ صفحة. ويتأطار أن يحظى المجلد التاسع وبغيره من مجلدات الكتاب بجهود الترجمين المختصين لنقله كاملاً إلى لغة الضاد، تأمل هذه الصورة المقتار أن تقدم للقارئ العربي بعض اللحظات أحوال عصر والشرق العربي في أوج الحقبة العثمانية.

تقدم مشاهدات وتسجيلات أولياء جلبي صورة للحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للشرق العربي في مرحلة النضرة من صعود الدولة العثمانية كنزاً عالية وغير المسبوق وفكرها واستمداده الهائل وغير المسبوق في تاريخ حضارات وإمبراطوريات الشرق. وقد لا تتفق هذه الصورة بشكل أو بآخر مع الطريقة التي قدمت بها التجربة العثمانية للأجيال العربية والتركية التي جاءت، بعد انهيار الدولة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى كما قد لا تتفق مع الرواية الرسمية في العالم العربي وتركية حول تاريخ علاقات العرب والترك. أو حول تقيوم التنازع السياسية والحضارية للتجربة العثمانية ككل، وإثارة على العالم العربي، فكثيراً ما يتم تحميل التاريخ السياسي ما لا يحتمل، لكي يخدم مقاصد الساسة، وأغراض المرحلة الزائلة، مما تجعل من جماعات وأيديولوجيات وعصبية غالباً ما تلجأ إلى ساحة التاريخ لكي تحسم الصراع على سطخ وضيمر، واذكر الأمام موضع الصراحة، سيما أن امتلاك روح تلك الأمانة والى الشرعية التاريخية التي تحاول تلك السياسات والعصبية من خلالها أن تتوصل في السياق التاريخي العام للأمة، وأن تأسس شرعيتها الخاصة، شرعية انقلاب أو شرعية امتداد؛ لذلك تصبح دراسة التاريخ الاجتماعي للأمة، وتناول موضوعاته المختلفة، ومن مصادره الأصلية، منهجية صائبة في فهمها على تجاوز الدخول والادجية التي شاعت في أدبيات التاريخ السياسي، وصولاً إلى رسم صورة أكثر دقة وموضوعية لتجربة تاريخية معينة، ومحاولة لرؤيتها كما كانت فعلاً. ويكون ذلك عن طريق تتبع حياة مختلف الطبقات أو الشرائح الاجتماعية وهمومها وقضاياها وأفكارها السائدة ومكوناتها الثقافية والأخلاقية والولكلورية، ولكونياتها الإثنائية، وعاشطها الاقتصادية والمهنية، وطرائق معيشتها وتقاليدها، وأنماط العمور، والعمار، وبيئات الاجتماع المشري،



لقد تسعت

كتابات ومرويات

أوليا جلبي، فكانت وعاء

لعرف وأحوال

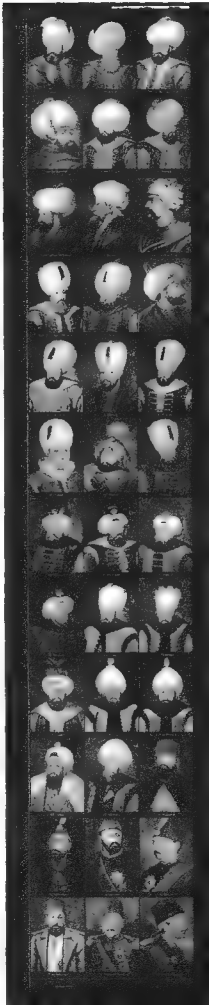
عصره



والقطط. وسداد ديون المسجونين بسبب
عجزهم عن السداد. وتأخير حاجة شيخ
الجامع الأزهر وزملائه العلماء من
وسائل الانتقال. وغير ذلك مما لا يمكن
حصره من مجالات. وقد فقدت الكثير
من موارد الأوقاف الضخمة بسبب خروج
البلاد التي كانت بها من حوزة العثمانيين
وديار الإسلام. من ذلك الأوقاف الضخمة
بالمجر والتي كانت مخصصة لجامع
سليمانية ومؤسساته في استانبول.
والقرى السلوقية التي أوقف ريعها
للإساق على الحرمين الشريفين،
والعقارات اليونانية التي كانت وقفاً
للجامع الأزهر. وكانت وزارة الأوقاف
المصرية حتى السبعينيات تتلقى
إحطارات من الحكومة اليونانية بوجود
أوقاف للأزهر في اليونان.

ومن المؤسسات الخيرية الشائعة في
الحياة العثمانية، والملوكية من قبلها،
المطابخ العامة (بالتركية: عمارت). وهي
تقدم الطعام مجاناً للمعوزين والمسافرين
وعابري السبيل. وقد أسست هذه المطابخ
في كل مكان وكثيراً ما تبنى على طريق
القوافل. بل كان الفقراء والمسافرون
يدعون ويعطمون، وحتى في القرى
الناحية. فقد كان ذلك واجباً اجتماعياً
يؤديه أشرف كل منطقة. ثم اتخذ الأمر
شكله المؤسسي في صورة المطابخ العامة
التي كانت تقدم وجبتين يوميًا لأكثر من
٣٠ ألف شخص في مدينة استانبول
وحدها. وقد كان ضرورياً أن تشمل تلك
لوجيات على لحم الضأن. بلغت ميزانية
«عمارت مراد الثاني، السنوية في مدينة
مرادية أدنة (بالروملی) سنة ١٤٣٦ هـ
الآلاف خمس مائة مليون دولار. بينما
بلغت ميزانية «عمارت سليمان، السنوية
في استانبول ثلاثين مليون دولار.
كذلك، كان الكروانسرائي -حزب
القوافل والمسافرين أشبه بخان كبير
جداً، وكان بعضها كالثقل المستحكمة،
وقد شيدت على طرق التجارة الكبرى
خارج المدن. وهي تطعم القادمين إليها
وتوفر لهم المبيت أيضاً. وبمسعى
الكروانسرائي الصغير خائفاً. وبداخل
حدود تركية الحالية. شيد السلالة ١١٢
كروانسرائي. وشيد العثمانيون ٢٢١
كروانسرائي ضخماً جداً. وكلها بنايات
فخمة وتعتبر آيات فنية من الناحية
المعمارية، وهذه الأرقام لا تشمل ما أُنشئ
من منشآت مماثلة في أنحاء
الإمبراطورية. كذلك يصم الكروانسرائي
استقبالاً ضخماً يتسع لمئات أو آلاف
الدواب المرحلة مع القوافل.

ويتنقل بأعلاها والعناية



ومساجدها وجوامعها وقبور الشخصيات
التاريخية بها، وكل ما فيها من معالم
تستوقف الرحالة. كما يذكر أحياناً ليد
عن تاريخ هذه المنطقة وقصة دخولها في
حكم العثمانيين، ومن تولى إدارتها من
الولاة وتاريخهم الشخصي وأدوارهم في
خدمة الدولة، وقصص المنطقة ومراتب
الولاة والقضاة ومخصصاتهم الأخرى
التي تعكس أهمية المنطقة، ووزنها لدى
الحكومة العثمانية في الأستانة. عاصمة
الإمبراطورية. وقد اهتم أوليا جلبي
كذلك بتسجيل حركة الإعمار التي
حدثت في مختلف المناطق في عهد
دخولها تحت حكم آل عثمان. وما تم
تشييده من قلعيات ضخمة وأعمال البر
والرفاه الاجتماعي التي قام بها مختلف
السلطان والأمراء والأمهيرات ورجال
الدولة الذين تنافسوا في إنشاء هذه
المشروعات الضخمة.

تقد قامت العديد من المؤسسات
الاجتماعية بمصطلح الأوقاف. والوقف
يقام أساساً قرى لله تعالى. وهو ليس
مجرد بناء. فهو يؤمن كذلك الإيراد
للأمر لإدامة هذا الوقف قروناً طويلة.
كتب الدمام (صهر السلطان) لطفى
باشا، الصدر الأعظم لسلطان سليمان
القانوني وزوج أخته، في مذكراته المعروفة
بمشوان «وقف نامة»، وهي من المصادر
الكلاسيكية للأدبيات السياسية
العثمانية. كتب يقول إن على رجل الدولة
المثالي أن يقسم إيراداته إلى ثلاثة أقسام:
قسم لنفقته، وآخر لأعمال الخير، وثالث
للادخار. وهكذا كان دأب رجال الدولة
والنخبة العثمانية.

وعادة ما يوقف صاحب الوقف
(الواقف) مصدراً أو أكثر من مصادر
الإيراد لأجل تأمين وإدامة الوقف. من
دراهم فضية أو مزرعة أو خان تجاري أو
حمام عمومي أو دار أو غير ذلك. فمثلاً
كان في القاهرة وحدها ٥٥ حماماً كبيراً
من الأوقاف التي أوقفها أهل الخير
ويتمتعون صك الوقف أو وثيقته
الأساسية «وقف نامة»، كل ما يتعلق
بأغراض الوقف وكيفية تشغيله وإيرادات
الوقف، ويسمى مدير الوقف «المتولى»،
وكثيراً ما يكون المتولى من نسل الواقف
أو من قرابته. وربما كانت تسمية المتولى
في منشأ هذا اللقب الذي تحمله عائلات
كثيرة في الشرق العربي، خصوصاً في
مصر. وتغطي الأوقاف مجالات وأغراضاً
تفوق التصور: من تجهيز بنات الفقراء
للزواج إلى رصف الأزقة، وتأمين حاجة
إحدى القلاع من البارود، والعناية بطيور
اللقاق المعوقة والمريضة، وإطعام الكلاب

بها وللكرويسراى كذلك مسجده أو جامعاه الملحقة به ومن وظائف الكرويسراى استضافة الجيوش العابرة وقت الحملات وتزويدها بالمال العبد والتلج التى يصنع عادة فى الكرويسراى. كانت أوقات المياه مجالا هاما من مجالات عمل الخير. فقد كان جلب المياه من مواضعها إلى أماكن استهلاكها مشكلة حقيقية. لذلك كان حمر الأبار الارتواءة وتشييد حصيلاتها العامة (الجمعة) من أعمال الخير الكبرى. وكذلك حفر الترع وتسييد خطوط الماء من البنايين والعيون إلى المدن. وبناء خزانات المياه لاستقبال هذه المياه وتجميع مياه الأمطار. كانت كلها من الاحتياجات الأساسية التى سعى المحسنون إلى تأمينها. أنفق السلطان سليمان القانونى مثلاً ما يعادل ١١٠ مليون دولار لحل مشكلة ندرة مياه استانبول. وكذلك جلب القانونى ماء وفيرا إلى مكة المكرمة لحاجة أهلها وحجيجها. وبسبب الحر الشديد بقياب عددها ٢٠٠ قبة. وقد امتد عمل الخير ليشمل تنظيف مجرى الأنهار. فقد أنفق على بغداد العثمانية مصطفى باشا ما ماله الخاص ما يعادل الآن تسعين مليون دولار لتنظيف مجرى نهر دجلة وصيانة الملاحة وغيرها من الأغراض المائية.

وإلا كان أهل مصر والمشرق العربى لا يزالون يشكون بالخير والرفاه ما قدمته بنت الخديو إسماعيل باشا الأميرة فاطمة إسماعيل (رحمها الله) من البغداد وهبات عظيمة لجامعة القاهرة قبل إنشائها سنة ١٩٢٢. فإنها قد شملت نافهاها كذلك جامعة استانبول التى ربهها شرونها الباقية مليونى ليرة ذهبية. وذلك قبيل وفاتها فى ١٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٠. عمر بنابر ٦٧ عاماً الأمير الذى يؤكّد أن حب الخير وأعمال البر قد استمرت فى التجربة العثمانية حتى لحظاتها الأخيرة.

ومن المعالم التى اهتم الرحالة أوليا جيبى بتسجيلها فى كل رحلاته هو الجوامع والمساجد فى كل مدينة أو قصبية. وأصافها. ووصف المشهور منها. وأنماطها المعمارية المتميزة. ومساحتها. وحصيلات الذين بنوها أو عمروها لأول مرة. وأولئك الذين أصلحوها أو رموها فيما بعد. وعدد خدمها وقناديلها وقبابها

ونواضها الداخلية والخارجية. وما أنفق عليها لى تصل إلى الصورة التى كانت عليها. وبالطبع فإن المؤلف يفرق دائما بين المساجد الكبيرة التى تقام فيها الجمعة هفى «جوامع» والمساجد التى لا تقام فيها الجمعة. ولا تقرا فيها الخطبة وليس لها منابر. ويطلق على الجوامع التى شيدها الخلفاء أو سلاطين الممالك أو العثمانيين أو أعضاء السلالة السلطانية اسم جامع سلطاني (باتركية: سلاطين جامعى). وهذه الجوامع يكون لها عادة أكثر من مئذنة واحدة. فأغلبها له مئذنتان. ولقليل منها من أربع مآذن. وهناك جامع السلطان أحمد الأول باستانبول. وهو الوحيد الذى له ست مآذن. وكان لهذه الجوامع السلطانية رتب فى تشريفات الدولة. وهذه الرتب تنكّلوا بالطلوع المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى. ويعد الجوامع السلطانية تآلى جوامع الوزراء وكبار رجال الدولة وأهل الخير الآخرين. وغالبها فإن وجود الجوامع والمساجد، ستواها فى تشريفات وأعدادها. فى مدينة أو قصبية معينة يدل على الأهمية الإدارية والسياسية لتلك المنطقة. ووضعها كمعاصرة أو مركز لواء أو قضاء أو ناحية. وكثافة العمران البشرى فى تلك المنطقة. وازدهارها الاقتصادي.

وشخصيتها الاجتماعية والثقافية. كانت استانبول. شأنها شأن القاهرة والشام وبعدها ومكة المكرمة. وغيرها من حواضر العالم الإسلامى الكبرى، مدينة للجوامع. فقد أحصى المؤرخ النمسواوى هامر فى القرن الثامن عشر بها ٨٧٧ جامعاً بأسمائها. ومنها ١٩ جامعاً سلطانياً. ويصعب إحصاء المخطاطات الموروثة التى أوقفها مؤسسو هذه المساجد للإعناق عليها وعلى العوزين الذين يؤمنون بحاجتهم من هذه المآذن. وقد ضمت آلاف الجوامع والمساجد فى تلك الحقب.

بعضها تم بناؤه فى القرى المتواضعة. ورغم قيام الروس بتدمير جوامع كثيرة فى شبه جزيرة القرم فى الفترة ١٧٧١-١٨٠٥. فقد بقى فى نهاية تلك الفترة ١٥٥٨ جامعاً ولها ٥١٩٢ إماماً وخطيباً. أما فى ١٩١٤. فقد كان هناك ٩٤٢ إماماً وخطيباً. ويزوال الاتحاد السوفياتى. لم يكن قد بقى جامع أو مسجد واحد. أما فى المجر فقد بقى جامع واحد فقط. والأمم كذلك فى كثير من الأقطار العثمانية السابقة فى أوروبا. وبناء على ترتيب الجوامع فى تشريفات الدولة أو الإيالة. فإن الجامع الأول فيها يسمى باتركية «أولو جامع». وقد كان جامع أيا صوفيا هو الجامع الأول فى عاصمة الخلافة استانبول. وكذلك كان الأمر بالنسبة للجامع الأموى فى الشام. وجامع عمرو بن العاص فى القسطنطينية. والجامع الأزهر بالقاهرة. وعند تعدد الجوامع فى المدينة الأموى فى القسطنطينية. يكون الجامع الأول من بينها هو الجامع الأول الذى يؤمه بالذات الوالى أو أمير اللواء الحاكم الممثل للسلطة. ويحظى بخصى خاص فى الاحتفالات والشعائر الكبرى. ويكون لخطبته وإمامه أسبقية بين أهل العلم.

يحرص المؤلف كذلك على التمييز بين المكتب والمدرسة. عندما يقدم تعداد كل منهما فى أى مدينة أو قصبية. فكان يطلق على المدرسة التى يتلقى فيها التلميذ تعليمه الأولى أو الابتدائى اسم «مكتب». ويسمى مدرستها «خوابة». أو خوفاً كما تطلق بالتركية العثمانية. كان التعليم الابتدائى (تعليم المكتب) واسع الانتشار فى القرن السادس عشر. لكنه

تردى كثيراً فى القرون اللاحقة. ولم ينهض بعد ذلك إلا بعد بدء عصر التنظيمات فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ورغم صدور فرائمات (أوامر سلطانية) فى عهد السلطان سليمان القانونى والسلطان محمود الثانى تقضى بإلزامية التعليم فى المرحلة الابتدائية. فإن مبدأ التعليم الإلزامى لم يطبق فى أى وقت من الأوقات. كان التعليم الابتدائى بسيطاً فى ذلك الزمان. وهو عبارة عن مواد تعلم القراءة والكتابة وإنفاق ثلاثة القرون وحفظ بعضه. والعمليات الحسابية الأساسية. والمعارف الإسلامية الضرورية. ثم أضيفت لاحقاً منها الفقه الشافعى والخرافية. أما فى بعض المدن الكبيرة التى بها مكاتب زافية. فدرس بها الموسيقى والخط واللغة الفارسية. وكان إلى اللغتين العربية والتركية. أى تدرس فيه البنات مع الأولاد. وتبدأ دراسهن بين الرابعة والسادسة. وتستغرق الدراسة أربع سنوات أو أكثر حسب سن الطفل عند البداية. كان التعليم والبنات يجسوسن فى نفس الفصل الدراسى ولكن على مقاعد منفصلة. وكلهم يعلون رؤوسهم. فألار استانبول كذلك كانت على قبة الاحترام وعدم إطاعة النظام.

كذلك كانت مكاتب تحفيظ القرآن (الكاتب) مجالا آخر للتعليم الابتدائى. وكانت كذلك واسعة الانتشار. كما كان فى التكايا مكاتب لتعليم فى الخط. كان عدد تلاميذ المكتب العادى أقل من مادة لتعليم. وبعضها يتراوح عددهم بها بين ٢٠-٣٠ تلميذاً. والمكاتب الكبيرة فعلاً كانت معدودة. ويسمى الواحد منها «طاش مكتب». بلغ عدد مدارس القاهرة وضواحيها فى منهلها الجوانية فى نهاية القرن السابع عشر حوالي ١٦٧٢ مدرسة (مكتباً). كما بلغ عددها فى مدينة استانبول (بسون ضواحيها) ١٩٩٢ مدرسة. كان مقدار أن يكون بين مدرسى مدارس القاهرة أو الشام أو حتى مكة المكرمة أترك من الأناضول. وربما ما يفسر منها لقب «خوابة» الذى تحمله بعض العائلات فى تلك الديار إلى اليوم. أما المدرسة هفى المؤسسة الثقافية التعليمية الرئيسية فى الفترة الكلاسيكية للدولة العثمانية. وهى المؤسسة التى تدرس اللغتين العربية والتركية. وتكون من قسمين: متوسط (بالكاتب) ما يعادل شرطاً للالتحاق بالقسم المتوسط من المدرسة. كانت



بلغ عدد المدارس المتوسطة والعالية بمصر حوالي ٣٦٠ مدرسة



(النقشبتي) التي نشأت في تركستان منتشرة جدا في الشرق العربي وتركيبه أيضا. وكذلك كانت الطرق ذات المنشأ العربي كالكاديرية (الجيلانية)، والرفاعية، والخلوتية. وكذلك كانت هناك طرق تركية كالولوية، واليكاتية، والقنندرية، والسيلية (فرع الخلوتية)، والجلوتية، والبيارامية، والكشنية، واللامتية، والعشاقية (شعبة من الخلوتية)، والسعدية (شعبة من الرفاعية). لكن أكثرها انتشارا بين العامة والحندي هي اليكاتية. وبين المتفهمين في مولوية. وكان الإنكشارية يكتاشين، قنسب اليكاتية إلى حاجي يكتاش ولي، ونسب المولوية إلى مولانا جلال الدين الرومي. وكلاهما جاء من خراسان إلى الأنطاك في دور انهيار الدولة السلجوقية.

كان يطلق على التكية المصرية رابية، والكبيرة دكرام، والأكر أسناتة. ولكل تكية شيخ، وهو بدوره ينشأ ويتعلم ويترشد شيخا، إلى شيخ آخر سبقه منه. وهكذا تنتج سلسلة الشيخية حتى تصل إلى متصل بالمصوفين القدامى (الأقطاب) قبل عدة قرون. كان التصوف عنصرا هاما من عناصر الحياة العثمانية، وكثيرا ما تصور مشيخة الطريقة في أسيرة واحدة، من ذلك مثلا سلالة مولانا جلال الدين الرومي (رحمه الله) التي تولت العديد من الطرق في القلوب كدور روماني. وقد كان للمرأة في الحياة الاجتماعية العثمانية توجه قوي نحو التصوف، وكانت في التكايا ساعات مخصصة لاستقبال النساء فقط.

كان المسيحيون كذلك يدخلون التكايا لحب الاستطلاع وتشهود بعض الاختلافات وأبشورها كالمشايخ المولوية المسمى ابن شريف، مولوي، وهو طقس موسيقى ورقص صوفي كرقصة السيماء.

العصر لم يعد المدرس القرن الثامن عشر معلومات طالب المدرسة العالية (صوفية) في القرن السادس عشر. ولم يعد هناك مناهج منسجمة حتى في مرحلة التزادة المتوسطة للعلوم الدينية في مدارس الشام أو مكة أو المدينة التي انشأها القانوني كمدارس عالية، الأمر الذي حدا بالدولة إلى تأسيس مدارس جديدة مثل «معلمخانه نواب» في ١٨٤٤ لتفخيز قصبة الشرح، ثم المفتح قسم الدكتوراه بها سنة ١٩١٤. وجعلت مدرسة دار الخلافة العليا باستانبول جامعة دينية نموذجية، وفتح بها من ناحية أخرى قسم دراسة علوم الإلهيات. وكانت الخطة تشمل أيضا تأسيس مدرسة صلاح الدين الأيوبي في القدس، لتكون كذلك جامعة دينية بالمواصفات ذاتها. لكن اشتغال الحرب العالمية الأولى حال دون ذلك، وبينما كان يؤمم من مدرسة استانبول بأن تكون جامعة أزرع لثانية، نأت من كذلك تحت انقاض الحرب العالمية، وكان لها في ١٩١٦ أكثر من مائة أستاذ ديني، وكذلك ١٣٥٤ طالبا.



كانت الطرق الصوفية والتكايا احتياجات لأغنى منها في الحياة الاجتماعية العثمانية. ففي كل قصبه توجد تكية على الأقل، وهناك لتكايا خاصة لطرق عديدة في كل مدينة، وهي بمثابة النواذير الاجتماعية لذلك العهد. تجرى في التكايا أحداث ومسابقات علمية وفنية وتصوفية، واحتفالات وطقا لما تقضيها آداب وأعراف كل طريقة. كما تعلم فيها صناعات وعلوم وآداب ولغات عدة. لقد كانت الطرق والتكايا مؤسسات تربوية وتعليمية لا مثيل لها في زمنها. كانت الطريقة النقشبندية

المدارس ذات المراحل العالية موجودة في المدن الكبيرة كاستانبول والقاهرة وأدرنة ويعناد والشام وحلب وقونية ومكة المكرمة والمدينة المنورة. بينما كانت المدارس المتوسطة في كل مدينة وقصبة. كانت شهادة استانبول العالية (وتسمى رئيس استانبول) لها أعلى اعتبار لدى الدولة، خصوصا من ودرست سلطانية وفاتح التي شكلت فيما بعد نواة جامعة زعماء، وربما بسبب ذلك فقد قل كثيرا شباب الأنطاك الذين كانوا يقصدون مصر والشام والدارق وإيران وتركستان لغرض التحصيل العلمي والتخصص في مدارسها العالية بعد القرن السادس عشر. كانت الدراسة في المدرسة تنقسم إلى ١٢ درجة بدءا من الدراسة الابتدائية، والدرجات الأربع الأخيرة هي مرحلة الدراسة العالية، ويسمى مرسوم المرحلة العالية «كبار المدرسين»، ويطلق على طلبتها «طلبة علوم، أو صوفية»، ويلقبون احتراماً اجتماعياً خاصاً، ويسمى طالب العلوم الذي يختاره المدرس مساعد له «داشمنده»، وهنا بدوره إذا حصل على الشهادة العالية يصبح «معيداً»، أي رئيساً للمدرسة، ثم يصبح «ملازماً». ثم يبدأ في اجتياز درجتي المدرسين، لا يمكن لدرس أن يصبح قاضيا ما لم يحصل على درجة كبار المدرسين.

بلغ عدد المدارس المتوسطة والعالية بمصر في القرن السادس عشر، أي أواخر عهد المماليك وأوائل عهد العثمانيين حوالي ٣١٠ مدرسة، زال أكثرها فيما بعد. كذلك بلغ عدد مدارس استانبول بدون حوالي ١٣ في أواخر القرن السابع عشر حوالي ٦٠ مدرسة متوسطة، ومرستان عاليتان ملابها ٥٠٠ طالب تقريباً. أكثر الطلاب في يصفون في المدارس إلى القسم العالي، بل يتركون الدراسة نهاية المرحلة المتوسطة ليعملوا في وظائف الإمامة والتدريس الابتدائي. تأسست مدرسة فاتح باستانبول سنة ١٤٥٣، وكانت تشمل على ثمانين كلياً تسمى «صحن الثمانى»، وبها ٣٠٠ عرفة، ومعلميها له ٧٠ قبة، ويخدمها ٣٠٠ خادم. أعلى المدرسين درجة في الإمبراطورية هو مدرس دار الحديث، وهو كذلك عميد مدرسة سلطانية التي أنشأها القانوني، وراثته الشهيرة يعادل عشرين ألف دولار بالقيمة الحالية. اعتزى الضاد نظام المدرسة اعتباراً من أواخر القرن السادس عشر، وبنيهاية القرن الثامن عشر، أصبح عاجزاً عن الوفاء بحاجة المجتمع والدولة، ولا يكتم

ويجرى الاحتمال بالمقارنة والعرف الذي يطلق عليه سماع كانت الكلمات التي تشهد في المراسم منتحبات من الشعر الصوفي من ديوان «مشوى، مولانا جلال الدين الرومي». وقد لحنها ملحونون قبيرون. كان السماع يحرق مرة واحدة أسبوعياً في التكايا المولوية، ويسمى «مقابلة»، وكان بعض هذه التكايا الكبيرة مدارس حقيقية لتعليم الموسيقى وللعبة المارسية (لغة شعر مولانا جلال الدين الرومي).

كان لكل تكية محبوبها أو مؤيدوها الذين يدعمونها وينفقون عليها، ولها كذلك أتباعها وهم المرافش المحيرون شيخ التكية ويقيمون بها. إن نظام طاعة الدراويش هو أشبه بنظام الجيش، فالشيخ الشيعي لا يناقش، ولا يفكر في علمه وباستثناء بعض التكايا التي حافظت على مستواها الأصلي، فقد تدهورت أوضاع التكايا. وأصبحت ملجأ للمسكنة والكسل والبطالة، وضاعت بالناس الوظيفية والصعبة الأصلية للدراويش كذلك أصبحهم مكاشتهم في الشريعة العثمانية. فقد اشتركوا بصورة فعلية في الجهاد وتأسيس الدولة. ويطلق عليهم الدراويش الغفارة (التركبة) ودرجيش غازيلر). وقد أدوا كذلك دوراً هاماً في تأسيس المجتمع الإسلامي في روملي، والحفاظ على حيوية وبناء شخصيته وثقافته



كثيرا ما يسرد أوليا جلس اعداد فرسان تيمارلى سيباهى، الذين تقدمهم كل منطقة وتشكيلات تيمارلى سيباهى من جيش من الخيالة، إلى هي أهم صف من خيالة في الجيش العثماني. وقد بدأت هذه التشكيلات مع بداية بداية قيام الدولة، فانتشرت مع النظام في كل أطراف الأناضول وروملي (القسم الأوروبي من الإمبراطورية) والتيمارلى سيباهى أو خيال الاكالييم، لا يتقاضى راتبا من الدولة، بل يقطع أرضاً زراعية تسمى «تيمار»، إن كانت صغيرة، أو «زعامت»، إن كانت كبيرة ويؤمّن مصايف السيابه الكبير (زعيم) بجمع الخراج من الصلاحين في زيماره أو إقطاعيته ويأخذها لنفسه، وذلك مقابل اشتراكه في القتال مع جنوده من الخيالة بأعداد ووحشيات متناسبة مع مساحة ومحصول إقطاعيته. كذلك، يعتبر الزعيم أو

كانت الطرق الصوفية والتكايا احتياجات لأغنى عنها في الحياة الاجتماعية العثمانية



كتاب الزاوية



شعراء الصوفية المجهولون (٢)

شهاب الدين السهروردي (المتوفى ٨٧٧ هـ)

لأنوار نور الله في القلب أسرارُ
وللسر في سر المحبين أسرارُ
ولما حُضِرنا للسرور بمجلس
وحفّا بنا من عالم الغيب إسرارُ
ودارت علينا للمعارف قهوة
يطوف بها من جوهر العقل خُمارُ
فلما شربناها بأفواء هُجْمنا
آساء لنا منها شמוש وأقمارُ
وخاطبنا في سكرنا عند صُحُونا
قديمٍ عليهم دائم العمى حبارُ
وكاشفنا حتى رأينا جهرة
بأبصار صدق لا تُؤاثره أَسْثارُ
فقبّلنا به عَنّا وتلّنا مرادنا
ولم تبقَ فينا بعد ذلك أثارُ
سَجَدْنَا سَجُودًا حين قال نَسْمُو
برؤيتنا إني أنا لكم جَارُ

(الطويل)

فالأمر الملكي هناك هو أمير اللواء (السنجك بك). وفي مركز الإيالة هو الصريق أول الوالي (الكلربك) لذلك عندما يتحدث أوليا جلبي عن مخصصات القضاء فهو هي الحقيقة يعني ميزانية البلديات والمحاكم معا. وما يتبعها من أجهزة عدلية وشرطية وبلدية وأنشطة وأجهت ذات صلة.

كان القضاء يحكمون في القضايا الجزائية والدعوى العامة دائما بموجب الفقه الحنفي وتقوانين الصادرة باسم الخلفاء (الإمبراطور). كان من المبادئ الأساسية للإدارة العثمانية عدم إصدار صدور الجزاء أو إنفاذ بدون حكم القاضي. يستثنى من ذلك قضايا أمن الدولة. فقد كانت من اختصاص أمير اللواء أو والي الإيالة. كان القرار الذي يصدره القاضي يُنفذ على الفور ما عدا حكم الإعدام. إذ يمثل المحكوم عليه أمام أمير اللواء (أو والي الإيالة) ومعه حجة (حكم) القاضي. فالقاضي لا يمكنه الأمر شخصيا بإنفاذ حكم الإعدام. لأن أمر التنفيذ هو من صلاحيات أمير اللواء أو والي الإيالة. والقرار النهائي يعطيه قاضي عسكري ورملي إن كانت القضية في الجزء الأوروبي من الإمبراطورية. أو قاضي عسكري الأناضول وهو المسئول عن كل قضية الإمبراطورية الآخرين.

وفي مصر مثلا، كانت القاهرة هي أكثر مدن الإمبراطورية سكانا بعد استانبول. وكان يطلق على قاضي القاهرة «مصر قاضي سي» أو «مصر قاضي سي»، أي قاضي مصر. كان أول من تولى قضاء مصر للمسلمين هو

كمال باشا زاده أحمد شمس الدين الهندي (١٥١٧). وهو من أكبر علماء العثمانيين. وهو قاضي بعد شيخ الإسلام، وصنف مئات الرسائل والمؤلفات باللغات العربية والفارسية والتركية. كان بإمرة قاضي مصر مائة موظف ومائة خادم وثلاث مائة محضر (شرطية عدلية)، وله مستشارون من المذاهب الأربعة. وقد جمعت سجلات المحاكم في بناية ذات قبة حجرية وقد تراكمت الوثائق من عهد عمر بن الخطاب (رض) على شكل جبل من الأوراق. إضافة لمسؤوليات قاضي مصر كرئيس لبلدية القاهرة، فقد كان يدير في معيته ثمانين قاضيا من قضاة مصر، أكثرهم لم يكونوا من استانبول. بل مصريون شافعيون. وبينهم كذلك مالكية وحنابلة. لكن قضية مصر المحليين لا يستطيعون مزاوله القضاء خارج مصر. ■



كان القاضي العثماني قبل إعلان وبدء عصر التنظيمات (١٨٣٩) حاكما في أمور التقاضي والحقوق. كما كان في نفس الوقت رئيسا لبلدية مرقفه. فكان ينظر في الدعوى القضائية قبل الظهور. وفي أمور البلدية بعد الظهور. كما كان القاضي الصغير الذي يسمى نايبا هو الأمر الملكي لناحيته، أي أنه مدير الناحية ورئيس بلديتها وحاكمها كذلك أما الشخص الذي يدعى قاضيا، فكان هو الأمر الملكي لقضائه (إقليمه أو ناحيته). فهو قائم مقام القضاء. وفي نفس الوقت هو رئيس بلدية القضاء وحاكمه. ويسمى القاضي في مراكز الأولية (المحافظات) أو مراكز الإيالات (الولايات/الأقطار) «ملا»، وتعني القاضي. والملا هو رئيس بلدية تلك المدينة كذلك وحاكمها (في أمور الدعوى). لكنه ليس أمرها الملكي

في ذكرياتي ويوميأتي ما يقول بأنه كانت هناك مؤامرة مقصودة للتعتيم على الجارم



وأوسع مدى على سيرة تعض فرسان الجمع ورجاله بوصفهم رؤاداً وقمما شامخة في خدمة الرواية وأهلها على سواء . وأما الفارسان اللذان تناولت اللقاءات سيرتهما ودمهما في دنيا اللغة وأدائها وفي حركة التثوير والتثقيف على مستوى راق ربيع، فهما الشاعر على الجارم واللغوي الزائد الدكتور إبراهيم أنيس . على الجارم، أديب كبير بالطبع لا بالصنع : لم يقتصر دوره على في معين من فنون الأدب : جال، وصال في دنيا الشعر والنثر والرواية، وخلف لنا ثروة هائلة متممة في هذه الفنون جميعها : ونظهما ورواها بأسلوب يعد نسيجاً وحده في دنيا الأدب الحديث، اعتلى شعره القمة في عصره من حيث الشكل والمضمون، جاء شعره على الساق بحور الخليل دون تجاوز أو خروج عن

على ، مؤامرة الصمت، التي حكمت على الجارم، وأخبرني إنه شاهد على بعض خطوط هذه المؤامرة عندما اقترح بعض ملف دراسي عن « الجارم، بمجلة الرسالة »، في الستينيات . وكان يرأس تحريرها علائقة كاشفته بالأسناد فتحرى رضوان وزير الثقافة في هذه المرحلة التمهيدية : (لا أن التعليقات صدرت لهم من الرقابة بالبناء هذا المشروع الذي لم يتم بالطبع . وكان من غباء هذه الرقابة العسكرية في ذلك الوقت أن أمرت بحجب دواوين الشعراء الكبار أمثال شوقي والجارم بحجة أن لهم قصائد في مدح ملوك مصر متجاهلة أن السيرة الوطنية في دولة من الدول سلسلة متنامكة الحلقات ولكل دورها وأثرها في حياة الأمة .

للأدب فلي يظن ما يرفح به كاتب لا يستطيع أن يقرأ قصيدة عربية صحيحة، ثم يزعج لسمعة ريادة للتدقيق والتخطيط للادب وقدره على الهدم دون الإنشاء وهو يقصد الكاتب محمد مندور في كتابه الشعر المصري بعد شوقي ، والذي طرأت أولى حلقاته عام ١٩٥٥ والثانية عام ١٩٥٧ والثالثة عام ١٩٥٨ . ويقول مرة أخرى في مقدمة كتابه ، على الجارم شاعر العروبة ، لقد كان من الصعب أن تصدر الدراسة المسبقة عن شعراء يعدون في مرتبة المتوسطة للجارم وأصبح أصحاب الألقاب من الإشادة أديب شاعر تولي الزعامة الأدبية بعد شوقي : وجمع الأمة العربية على وحدة هدف بها الشعر قبل أن يسعى لها دوا السياسة وقد أشرت إلى ذلك في هذه الصفحات لأحفط للرجل الكبير مكانه الزائد بين النابهين، وفي

■ كان على الجارم محط حسد وبغض كثيرين حاروا في امره فلم يجدوا أمامهم غير التعتيم على سيرته . كانت سيرة ، على الجارم، فوق مستوى التشبهات ناصعة البياض، لا يطعن فيها حتى من كان قدماً أو مخيلاً . ما سبقوا أن أنه وظف شعره لمدح الملكين فؤاد وقاروق . وسبقوا أن أنه شاعر تقليدي يحافظ على قواعد الشعر العربي الأصيل والعصرين وليس مجرداً (أو حدائياً) ليسلك المسامحة الحديثة في الشعر مثل شعر التماثيل والشعر الحر، أي الذي بدون قواعد وبدون وزن وبدون موسيقى وبدون هدف ؟! أو يقولون إنه شاعر مناسبات أي ليس شاعر وجداني . وإنما يظن فقط لخدمة هذه المناسبات ؟ كل هذه التبريرات اختُرعت اختراعاً من أجل رسم قواعده التي تهجم على الجارم، في تلك الأيام البعيدة من الخمسينيات والستينيات واستمكالا للمؤامرة التعتيم عليه .



تأملوا على أبي !!

إطارها الرسوم، مصوغاً بلغة فريدة الاختيار في مفرداتها : عزيزة المثال على غير العارفين، حيث نظمت حبات عقوده من جواهر القديم والحديث وجاءت هذه المعقود بألوان متخلطات تحكي ألوان أحداث الزمان وقلائده وبخاصة سبى يجرى في العالم العربي حتى سبى «شاعر العروبة» . ولم يقتصر هذا النهج الفريد على صناعة الشعر بل كان له وجود واضح متميز في نثره وروايته، يشهد بذلك ويؤكداه العارفون بصناعة التأليف من جودة الحيك واستمناز السبك وتنوع الأغراض .

وفتتح الدكتور شوقي صيف الندوة الأولى ببسته عن الجارم، قائلًا : « إنه ليسرني أن اتحدث عن علم شامخ من أعلام الأمة العربية في عصره، كان مرسوق المكانة - ولا يزال - بين شعراء عصره المبدعين الذين أخلب أشعارهم الألباب، وكان معلمًا لناشلة الأمة وأبنائها العربية والبلغة أجيالاً بعد أجيال . وكان كاتباً قصصياً طاماً طفر في قصصه بالإصجاب، وكان إماماً لغوياً لا يبارى ولا ينجاز، وإن ذلك حين جمعت الأمة أعلامها ورجالاتها ليلبسون مجمع اللغة العربية تأسيساً قومياً، اختارته مع نسمة من المصريين في العصبة الأولى التي عهدت إليها بإقامة هذا المسرح

وقد ذكرني هذا الموقف ببيت شعر للجارم في قصيدته « الجامعة العربية، التي انشأها عام ١٩٤٤ » بمناسبة إنشاء جامعة الدول العربية يقول فيه :
إد ضيع التاريخ أبناء أمة
فأنصهم في شرعة الحق ضيقاً!
وقد تعرض الشاعر الكبير وشاعر العروبة ، على الجارم، بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ : لأدعاه سقيم أنه شاعر المثلث، وذلك على غير صحيح : فقلت كانه الجارم شاعراً كصبر وشاعراً للعروبة وشاعراً للإسلام . ولم يكن مدحه للملك إلا لأن الملك كان رمزاً للوطن . وثنى عن الذكر أن ذلك كان نهج كل الأدباء والشعراء وغيرهم في ذلك الوقت بل وفي كل الزمنة .

ولم يطل انتظارنا كثيراً : ففي عام ١٩٥٧ يقرر المجمع اللغوي بالشائرة برئاسة الدكتور شوقي صيف نفسه إقامة أربع نوات أدبية جماهيرية قال عنها الدكتور كمال شرنابل رئيس المجمع في تقديمه لكتاب « نوات المجمع اللغوي » : « الجزء الأول : (١) ص : هذا بالإضافة إلى ما رتبه اللجنة (اللجنة الثقافية بالمجمع) من أهمية إعلاء ضوء أعمق

هذا تكريم للمبادئ التي هتف بها قبل أن يكون تكريماً لادله وأحياء أثل يجب أن تبقى بقاء الحياة لتهدى إلى سواء السبيل . ويقول في نص الكتاب ص ٩٦ : « أحسنى أن تكون عروبة الجارم وإسلاميته وتصديده لأدعاه العربية أهم أسباب هذا الهجوم الظلوم . »



كما أتبع لي أن أتعرف على أبعاد «مؤامرة الصمت والتعتيم» على الجارم، مرة أخرى عندما قامت مجلة « الفيصل، السعودية » بعمل ملء، عن على الجارم بالعدد ١٩٦ في فبراير ١٩٦٣ وقرارت به مقالاً للدكتور عبده دعوى بعنوان الجارم ومدرسة دار العلوم في الشعر، وكتبت ردًا للسيد رئيس التحرير في العدد رقم ١٩٨ في يوليو ١٩٦٣ . ١٢٢ . قائلًا تحت عنوان : « الظلمة الجاهلية التي بعثها اليوم مستنقش . » وتساءل الظروف أن يزورني في عيادتي الخاصة بعد ذلك الدكتور عبده دعوى لأمر حاص به وأشار إلى ما كتبت في ردي

في عام ١٩٦٧ عندما دعاني الأستاذ أحمد الشايب إلى منزله . وكان لتلميذا للولاء على الجارم في أغلب مراحل حياته كان مسكه في جزيرة الروسة قريباً من مسكنه . وكانت دعوته لي لأعود من مرض ألم به . وقد ذكر لي حينئذ . وهو مسك بعض المذكرات، إنه هو الذي سيسجل أدب على الجارم في كتاب خاص له اسمه « الجارم الشاعر » . وإنه هو الذي سيضعه في « الفاترينة » التاريخ . على حد قوله . وألا ثم نشره دفع به إلى دار النهضة المصرية لطبعه ونشره إلا أن الرقابة العسكرية تدخلت عند الطبع وطالبت بحذف بعض أجزاء من الكتاب واضطر الأستاذ الشايب بملء هذه الاعتراضات بأشعار للجارم إلا أن بعضها لم يكن مستقيماً عن سياق الكلام . وقد لاحظ الدكتور محمد رحب البيومي ذلك في مقاله « أحمد الشايب يتحدث عن على الجارم » والذي نشره في مجلة الثقافة عدد نوفمبر ١٩٧٨) . ولدى في مكتبتى نسخة من هذا الكتاب : النسخة الأصلية والنسخة التي سمحت بها الرقابة العسكرية . أحد الأدلة الدامغة على مؤامرة الصمت على الجارم، في هذه المرحلة التاريخية من حياة مصر . وفي نص هذا المقال يقول الدكتور محمد رحب البيومي : « إذا عرف العقاد ونظراً للجارم مكانته العالية

أحمد على الجارم

الجمعي المسمى... وينشر الجارم في الجزء الرابع من مجلة الجمع بحثاً لغويًا قريباً بعنوان «المصادر التي لا أفعال لها» ويقول (يقصد الجارم) «اعتاد بعض العلماء أن يعقبوا على بعض الأسماء أو المصادر بأنها لا فعل لها، ولكن الباحث إذا واصل البحث واستقصى كثيراً من المراجع، وجد من اللغويين من يذكر لها أفعالاً، ويستعرض كتاب «المخصص» وهو معجم ضخيم للمعاني لأن سيد كبير علماء العربية بالأندلس ويجده في المجلد الرابع عشر قد أورد باباً لأسماء المصادر التي لا تشق منها أفعالاً، وأورد من هذه المصادر تسعة وخمسين مصدراً : نقل منها ثلاثة وأربعين عن أبي عبيد وأربعة عن أبي السكيت وثلاثة عن سيويه وثمانية عن ابن دريد وواحداً عن ثعلب وورد أبي سيد علي أبي عبيد خمسة منها فأنشئت لها أفعالاً وبقي أربعة وخمسون مصدراً لا تزال، فيما نفعه.. لا يصح أن يشتق منها أفعالاً ويقول الأستاذ الجرمي.. قد تناولت هذا البحث بإفصاح واستبصار وتفتيح في المجلدات فظهر أن جميعها أفعالاً ما عدا سبعة منها.. وعادة يذكر فيها أكملها منها نص صاحب «المخصص» أولاً ثم يتلو بنص ينقذه من العاجم، ويورد في النصوص أفكاراً له وتعليقات لغوية دقيقة. وهو عمل لغوي مجسم رائع، فقد نقد الأستاذ الكبير على الجارم لا كلمة ولا كلمات من كتاب «المخصص» وإنما نقص باباً برمته لأن سيد الذي كانوا يقرئونه في علمه باللغة بابي العللاء المسمى ويقولون كان مشترك لغوي وبالمعرب لغوي في عصر واحد. لم يكن لهما ثالث : وهما أبو العللاء وأبو سيد وقد نقض الأستاذ الجارم الأقوال من نقل عنهم ابن سيد من أئمة العربية الذين نوا عن بعض المصادر أن لها أفعالاً من أمثال سيويه وأبي عبيد وأبي السكيت وأبي دريد وشاهد آخر يحضرنه الآن هو الكتاب الذي كتبه الدكتور أحمد هيكال عميد دار العلوم ووزير الثقافة الأسبق تحت عنوان «تطور الأدب الحديث في مصر» ونشرته له دار المعارف في طبعها الأولى عام ١٩٦٨. وفي طبعته الخامسة التي صدرت عام ١٩٨٧ وفي ص ١٠٩ تجده يقول : «أصبح جيل الشعراء في هذه الفترة (الحديث) يسبغون في نفس اسماحه (الشاعر محمود سامي البارودي) ويترسمون خطأً فاسماً عيل صبري وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم ومحمد عبد الحظيل وثقبة شعراء هذا الجيل التالي من أمثال





وجدان خاص متميز بأصالته وذلك لأنهم كانوا لا يزالون يؤمنون بأن الشعر لا يعدو أن يكون قدرة على التنظيم وتوليد المعاني أو الأخيلة دون أن يكون مرآة لجوهر نفسى ومزاج خاص ونظرة متميزة للحياة.

عندما قرأت هذه العبارة لهذا الناقد.. وعندما قرأت له قوله في ص ٢١ من نفس الكتاب : «بل ولزى على الجارم على ما يمتدحه من أحد مقاييس جودة الشعر هو» التفلق في القصيدة في فنون شتى من القول» وإذا كان قد أضاف إلى العبارة السابقة قوله : «مع المحافظة على الوحدة الشعرية، فالراجح أنه لم يقصد إلى غير وحدة الوزن والقافية، وذلك بدليل ما تلاخذه في ديوانه نفسه حيث نرى هذه الظاهرة واضحة في الكثير من قصائده قصصية الطويلة التي أنشأها في المؤتمر الطبى الذى عقد ببيروت في صيف سنة ١٩٤٤ حيث يستهلها بالفلق فيقول:

أَفَيْتَ لِعَمِيدِ الْمَلِاحِ سِلَاحِي
وَرَجِيتَ أَشْجِلَ الْبَدْمُوعِ جِرَاحِي
ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى وصف الرحلة الذى يبداه بقوله :

سِرَاجِي فَطَارَ فِيهِ فَيَّادِي مَرَجَلٌ
يُزَيِّجُكَ بَيْنَ مَسَافِعٍ وَيَطْجِاحِ
وَأَنْ يَكُنْ مِنَ الْحَقِّ أَنْ تُلَاحِظَ أَنَّهُ لَمْ

يقُل «سِرَاجِي لَمْ يَكُنْ لَمْ»
أدركت حينئذ أنه قد كشف عما في نفسه من حقد شخصى على «الجارم»، وأنه بهذا التعليق السخيف قد فقد موضوعيته في النقد العظمى الصادق، وإن كل ما كتبه لا يستحق الورق الذى كتب عليه.

وهنا تحضرني كلمة الدكتور الطاهر مكي التى يقول فيها : «في نثره مكي في شعره كان يحكم الجارم في إدعائه مذهب فقهى يؤمن به وهو أن للفن غاية خلقية وهو اتجاه كان يصطدم بقوة مع مذاهب أخرى بدأت تعرفها الحياة الأدبية العربية ووافدة إليها من وراء البحار، مذهب «الفن» بتركه أن يعنى الأدباء بالنواحي الاجتماعية والسياسية وأن لا يوظف الشعر لتبصير الجملوات والاعتقادات لأن الأدب الإبداعى شعراً أو نثراً لا ينبذه بالموضوعات الأخلاقية، ولا يشرفه بالمواضع والحكم، وإنما غايته وأهميته وحده فى مواجهة مذهب آخر حصد رحله بعد خلال الحرب العالمية الثانية مع عصر الحداثيين من فرنسا

كثيراً من شعر الجارم الذى ارتبط بمناشيات وطنية أو قومية أو عربية. هو شعر سميت فيه المناسبات إلى مستوى التجردة، فجاء شعراً صادقاً، لا يعيبه أن ارتبط بهذه المناسبة أو تلك.



وأما كون بعض شعر الجارم قد قيل في الدم، فما كان ينبغي أن يكون ذلك سبباً في إهمال هذا الشعر أو ظلم صاحبه وعدم إعطائه حقه من التكرم والتعظيم. وذلك على وجه الشعر ما في العصر الحديث.. من أجل المحافظين، فقلنا مبدئياً، بل إن بعض اعلام التجديد قللوا شعره في الدم كذلك.. ومن هؤلاء : «العقاد وناجي ومعمود حسن وإسماعيل.. فالراجح أساساً لا يتناهى مع الشعر الجيد ولا يسوء بداته إلى الشاعر العظيم، مادام صادق الشعور بعيداً عن شبهة التفاف مبعراً بأسلوب شعري في حقيقى. فإذ صدق الشاعر في مواقف نحو من يمدحه، وإذا عبر عن هذا الموقف تعبيراً شعرياً فنياً رائعاً، كان قد صنع شعراً جيداً رغم أنه يخور حول إنسان مملوء .. إن المرفوض هو الكذب والتناقض وسقوط الشاعر في النظم الذى قد يخفى بهرجة وجمالية له البلاغية، شاعر كاذب أو مطاع رخيصه. وما أظن أن شعر الجارم في الدم كان من هذا اللون.

وفي الحلقة الأولى من كتابه «الشعر المعاصر بعد شوقي، للدكتور محمد مندور، والذي أصدره عام ١٩٥٥ (توفي الجارم في فبراير ١٩٤٦) يقول : «والحق إننا نطالع على الجارم والى شعركمنا فى عصره» التقليد بما لم يكونوا يدركونه من حقائق الشعر والأدب (هكذا) عندما نطالعهم أن يصدروا عن

ملك. وهى روايات تتنوع مسارح أحداثها بين انشام والذراق وعصر والأندلس. كذلك كان الجارم من رواد التأليف للكتب الدراسية، وما له في هذا المجال، بالمشاركة - النحو الواضح، وبالتلاعبة الواضحة والمجمل، والمنفتح. والمطالعة التوجيهية. وغير ذلك. وبلغت النظرة أن نرى هذا الرائد العظيم من رواد الأدب الحديث شعراً ونثراً. لا يقل ما يستحقه من إشادة وتكريم، كما لا يقلنى إنشائه الأديب ما هو جدير به من ذبوع وتعليم .. وربما كان السبب فيما يتصل بشعره أن كثيراً من هذا الشعر ارتبط بمناشيات معينة. وأن بعضه وأساساً حول الدم، وأن جزءاً من هذا البعض قد اتصل بالملك فاروق .. أما المناسبات فما كان ينبغي أن تكون سبباً في تنحية شعر الجارم عن مكانته الفنية : لأن المناسبات التى تسمى إلى الشعر هي المناسبات التى لا تحرك وجدان الشاعر، والتي لا تصل إلى دفع مشاعره إلى حد التجربة الشعرية. فهذا يكون الشعر المتصل بالمناسبات طبعاً أو كاملاً مرصوفاً بالجدس الذى لا روح فيه .. أما حين تحرك المناسبة وجدان الشاعر، بحيث ينمعل بها ويصير عن شعور حقيقى وصادق منسبها، فهذا تتحول المناسبة إلى تجربة شعرية حقيقية. قد لا تنعرق عن الإحساس بقشوم الربيع، وفنومه مناسبة طبيعية، أو زمينية: كما لا تنعرق عن الإحساس بلقاء حبيب، ولقاءه مناسبة شخصية أو اجتماعية .. إن إطلاق مصطلح «شعر مناسبات» على كل شعر قيل في مناسبة، إطلاق فيه كثير من التمسك أو عدم الثقة في أقل تقدير، فكل التجربة شعرية في أصلها مناسبة بلحنى اللغوى، ولكننا تخرج عن هذا المفهوم اللغوى ونسمى فنياً تجربة. إذا ارتبطت بصديق الشعر وحرارة الإحسان .. ومن هنا نقول - قصداً إلى الإنصاف، إن

أحمد محرم وعلى العياشى وغيرهم (لا أحد أنه أعمل دخل على الجارم أصلاً) قد صاغوا الشعر على طريقة البارودى. ثم يأتي في ص ٢٨٨ ويقول : «وقد سار في هذا الاتجاه الشعرى المحافظ بعد شوقي جيل آخر تمثل في على الجارم ومحمد الأسمر وعزيز أناطة وعلى الجندى ومحمود غنيم وغيرهم ولكن يموت شوقي سنة ١٩٣٢ ماتت سيادة هذا الاتجاه وطل كل السائرين في طريقه يحاولون جاهدتي أو يقربوا من قمته الشامخة التى علاها شوقي من الجيلين.. وهكذا فقد اختصر الدكتور أحمد هيكل جهود الجارم الأدبية وشعره، ولبثى تجداه بين دفتي هذا الكتاب إلى مجرد سطر أو سطرين..

ثم تأتى الشهادة الحق - وعدالة اسم لا تقبى. وكتب الدكتور أحمد هيكل نفسه مقدمة كتاب «الجارم في ضمير التاريخ» في طبعته الأولى عام ١٩٤٦ وكانه يراجع ويناقش ما كتبه قبل ذلك في كتابه «تطور الأدب الحديث في مصر» قائلًا : «أما الزائد الكبير الذى يدور حوله هذا العمل فهو طبع الذكر على الجارم. أحد اعلام الاتجاه المحافظ في الشعر العربى الحديث. هذا الاتجاه الذى أدى طريقة البارودى أولاً، ووصل إلى غايته شوقي فيما بعد. ثم كان الجارم واحداً من الذين تصدروا السائرين في هذا الاتجاه والمتناقصين على طه الفراغ بعد رحيل أمير الشعراء : بل كان، بحق، السابق إلى محاولة ملء هذا الفراغ، وخاصة في الجانب الحلقى والرسمى الذى كان من أبرز جوانب إمارة شوقي .. وديوان الجارم ود الأجزاء الأربعة (في طبعته الأولى) خير شاهد على هذا العطاء الشعرى الريحى والمزير، الذى يمتلئ بطقه سامية من طبقات المتحافظ، تضخم صاحبها في مكر المتصندين من أصحاب هذا الاتجاه النفس الرصين.

والجارم أحد اعلام الاتجاه التاريخى في الرواية الفنية الحديثة. وهو الاتجاه الذى بدأ جورجى زيدان بمجموعة رواياته التى تعتمد في مادتها الأساسية على موضوعات وحوادث من تاريخ العرب والمسلمين. ثم جاء من طووزا هذا الاتجاه وجوده، مثل محمد صادق أبى حديد ومحمد سعيد العريان، وكان من المتصنين بينهم على الجارم، الذى أنجز تسع روايات من بينها : فارس بنى جعدان وغادة رشيد، وهانث من الأندلس، وشاعر

كان الجارم شاعراً لمصر

وشاعراً للحرورية وشاعراً للإسلام: ولم يكن مدحه

للملك إلا أن الملك كان رمزاً للوطن



كتاب الزاوية



شعراء الصوفية المجهولون

(٣)

أبو علي الرُّودبَارِي

(المتوفى ٢٢٢ هجرية)

روحى إليك بكنّها قد أجمعت

لو أن فيك هلاكها ما أقلت

تبكى إليك بكنّها عن كنّها

حتى يقال: من البكاء تقطعت

فانطرت إليها نظرة متعطفت

هلطالبا متفئتها فتمتمت

(الكامل)

بك كنتمنا وجدد بك عنّه

لك منّة، وعنه ما لك منّة

من إذا لاح لائح لشوق

هأمّ جحداً عليك إن لم تكنه

وإذا أفلّ الأفلول بسببهن

بأنّ عنهن هيبان إن لم تبينه

يا هتلى الحب، بل هتلى الحق، سرى

عنّه مستودعاً لديك فصنه

(الخفيف)

من لم يكن بك هابياً عر حنه

وعن الهوى والأنيب بالأحباب

أو تيممته صباينة حممت له

ما كان مفترفاً من الأسباب

فكانته بين المراتب واقف

لمسال حطاً أو تخسّين منب

(الكامل)

وبغيرهم من الشعراء الكبار المحافظين؛
رحمهم الله أجمعين.

إلا أن شهادة الدكتور أحمد هيكل
السايفة الذكر- والرجل قد شغل عدة
مناصب مختلفة مثل عمادته لمار العلوم
كما كان وزيراً للثقافة لبعض الوقت، مما
أتاح له الفرصة الكاملة للاطلاع على
مجريات الأمور. جعلني أتهم كل من كان
مسئولاً في قطاعات الثقافة والتعليم
والإعلام، من صحافة وإذاعة وتليفزيون
هي هذه الدولة وفي هذه المرحلة
التاريخية بمحاولة إلغاء الجارم من
سجل الشعراء الرواد، على حد تعبيره.
والسماحة في مؤامرة التعتيم ومؤامرة
الصمت على الجارم، ودعى أحمد ريس
الآن بعد مرور كل هذه السنين فقد ظل
الجارم، شامخاً في مكانته. بعد أن أعيدت
نشر تراثه كاملاً شعراً ونثراً وعلماً،
والمسحقة والتاريخ أو أن أضيف أن
الدكتور أحمد هيكل كان صادقاً في كل
ما ذكره إلا أن الجارم كان قد أدرك ذلك
سجل الشعراء الرواد، شعوره الصادق وبصيرته
المثابرة فكف عن نظم الشعر في فاروق
منذ عام ١٩٤٥. وقد تحول معظم أدب
الجارم بعد تقاعده عام ١٩٤٢ إلى الإنتاج
الأدبي القصصي التاريخي، فكتب
قصصه العشر المنشورة في كتاب «سلاسل
الذهب» ابتداء من عام ١٩٤٢ حتى وفاته
عام ١٩٤٩. وقد تمكن في هذا القصص
التاريخي من التعتيم عن صادق مشاعره
وأرائه وأفكاره بكسل الأمساة وكل
الصدق.

وأخيراً، أيها القارئ الكريم، ها هو علي
الجارم، يتقدم إلى الإله العلي العظيم أولاً؛
واليك ثانياً، بصحيفته البيضاء وقد فطنت
موارنته؛ وما هي الدولة، في مرحلة الرقابة
العسكرية وبمعالجاتها اليساريين الذين لا
يزال بعضهم يحتل شيئاً من المساحة
الأدبية في مصر حتى الآن. تحيك مؤامرة
الصمت والتعتيم عليه! فهل نجحت في
ذلك؟

إن علي الجارم، ولو كره الكارهون
مشاره وفنية تعبيره ولا تفصيل بيانه
وبين روح عصره ولا تحاكمه بقيم طائفة
عرفت بعد أيام إبداعه، حسب الشاعر
التعبير عن روح العصر الذي عاش فيه
وحسبه الصديق في مشاعره والفنية في
تعبيره. وقد كان الجارم يحق معبراً عن
روح عصره صادقاً في مشاعره فنياً في
تعبيره، بل إنه بلغ في ذلك مرتبة عالية
سبقه إليها شوقي، وسعى نحوها عزيز
أباطة ومحمود غنيم وعلي الجندى

ستدبني القصص إذا من قبلها
ومات الذي في الناس ليس له نذ
وأخر دعوانا أن الحمد لله رب
العالمين ١١

في تلك المرحلة المبكرة من مشوار الترابي السياسي، راح يجسد تباعاً ملامح شخصية الأمير في كتاب ميكافيلي الشهير، عبر تسخيره لكافة متناقضات الواقع السياسي في السودان



الترابي ماذا بعد؟

يوسف الشريف

الصوفيّة الحادية على أسلمة الدستور
السوداني الوضعي

هكذا توحدت التوجهات السياسية بين الترابي وبين الصادق المهدي الذي كان يتبنّى آنذاك نهج الصحوة الإسلامية. حول خلة مبيتة للخلاص من الحزب الشيوعي السوداني وتصفية شميته في أوساط الخرطوم وفي عطبرة معقل عمال السكك الحديدية وغيرهما من المدن ومناطق الوعي، وهو ما أهله للصمود يوماً بمعظم الدوائر المخصصة في الانتخابات النيابية للخريجين من الجامعات والمعاهد العليا... ولكن كيف؟

يقول الترابي: «انتهزنا خطاً عنصر شيوعي ثورتي في سب الرسول - عليه الصلاة والسلام - أمام طلبة جامعة الخرطوم، وعلى الفور قمنا بتعبئة الشعور العام ضد الشيوعيين، ثم نقلنا الحركة إلى البرلمان وطالبنا بحل الحزب الشيوعي وطرد نوابه وجنحنا في ذلك، ومن هذا النجاح قدنا حملة بين فواعل الأحزاب لأسلمة الدستور، حتى اضطرت القيادات إلى التسليم بالبدأ والشرع في صياغة مسودة الدستور الإسلامي أينما بإجازته، لولا اندلاع الانقلاب العسكري الذي تزعمه جعفر نميري في مايو ١٩٦٩، في الوقت الذي خاض الصادق المهدي معركة سياسية ضروس مع عمه الإمام الهادي المهدي عبر مطالبته بفصل الدين عن السياسة، وإن يقتصر نفوذ الإمام على رعاية شؤون طائفة الأنصار، ويختص الصادق برئاسة حزب الأمة ورئاسة الحكومة الإسلامية وقتئذ، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره، وهكذا أطيح بمحمد أحمد المحجوب الذي كان يشغل المنصب».

في تلك المرحلة المبكرة من مشوار الترابي السياسي، راح يجسد تباعاً ملامح شخصية الأمير في كتاب ميكافيلي الشهير، عبر تسخيره لكافة متناقضات الواقع السياسي في السودان لمصلحته الشخصية وتبني زعامته، وممارسة «فقه الضرورة» أو ما يسمى «فقه التقنية» الذي يظهر من الأقوال والأفعال أكثر مما تتطوى عليه التواقي، حتى لو اقتضى الأمر العبور فوق المبادئ والأعراف المعرّية للوصول سريعاً إلى الأهداف. بزعم أن الضرورات تبيح المحظورات.

«وما كان السياسي المخضرم محمد أحمد محجوب، يرحمه الله - أول من تلبّى على حد علمي بدور الدكتور حسن الترابي المثير للجدل على المسرح السياسي في السودان، وكان البوص، وهو لقب المحبوب غالباً ما يتخلق حوله أمما شتى من السياسيين والأدباء والنصحيين في سهراته، وصادف وحضرت إحدى تلك السهرات شتاء عام ١٩٦٦، وعلى غير عادته اثر لصمت واتّامل والعزوف عن هوائيه الأثيرية في الحوار والحكي وقرص الشعر، لكنه فجأة نطق في غضب وقال: «والله إن هذا الشاب سوف يثير هتة في السودان لن يخمد لها أوار، ويأدره المزعج السوداني حسن نحيلة يسأله إن كان الصادق المهدي هو ذلك الشاب، وقال المحجوب بل صديقه حسن الترابي الذي علمه السحر وزين له الطيارات السياسية المحصوفة بالخاطر»



والشاهد أن الصادق المهدي وثقت صلاته الفكرية مع حسن الترابي خلال فترة دراستهما العليا في أوروبا، وبينما نال الصادق ماجستير الاقتصاد السياسي في جامعة أكسفورد، حصل الترابي على الماجستير في القانون الجنائي من لندن، ويعدّه بال الدكتوراة من جامعة باريس، وكانت أطروحتها حول قوانين الطوارئ المفيدة للحريات في السودان ومقارنتها بتشريعات القهر السياسي في دول العالم الثالث، فلما عاد إلى السودان شغل منصب مدرس للقانون بكلية حقوق جامعة الخرطوم ثم تدرّج في سلك التدريس حتى أصبح عميداً لها

بدأ نجم الترابي يلعب لأول مرة على المسرح السياسي السوداني إثر اندلاع ثورة أكتوبر ١٩٦٤، حيث لعب دوراً مهماً في تكثيف الصعوم الشعبية المناولة للحكم العسكري بدعوة المصطفى إبراهيم عيود حتى تنازل عن السلطة لجمعية الهيئات، في إطار التحالف بين مختلف القوى السياسية الوطنية، خاصة الشيوعيين والإسلاميين، حيث كانا يهيمنان معيّن على وزارات الحركة

الطلابية والنفابية والمنظمات الأهلية؟

على أنه تمض شهور حتى تزوج الترابي بالأنسة مرحال شقيقة الصادق المهدي توحياً للمكافأة الاجتماعية، وكشف الستار عن صلاته السياسية والتنظيمية بالحركة الإسلامية ممثلة في «حركة الإخوان المسلمين الويدة، وتمكن عبر مكانه وثقافته من مزاحمة

قياداتها البارزين من أمثال الرشيد الطاهر وحسن عمر زعيم الجناح الطلابي، بل ورأى تغيير اسم الإخوان المسلمين بعد وصفها بالإرهاب إثر محاولة التنظيم الأم في مصر اغتيال الرئيس جمال عبدالناصر عام ١٩٥٤، واستبدله باسم «جبهة الميثاق»، حتى تكون وعاء لاجتذاب مختلف التيارات والشخصيات الإسلامية والحركات

امتد نشاط الجبهة الإسلامية إلى تأسيس الشركات التجارية والزراعية. وساهم في تمويل البنوك التابعة لمنظومة الإسلام الأممي

٢٠١٢

ملاكات فذة في التنظيم

والتجديد والتمويه

ولا شك أن الدكتور حسن الترابي شهادة الصادق المهدي لديه ملكات فذة في التأثير ودغدغة عواطف الجماهير وللعلم على وتيرة معتقداتها الإيمانية، إلى جانب قدراته على التجديد والتنظيم والتمويه، وإذا كانت جهة الميثاق لم تحرز سوى عدد لا يتجاوز أصابع اليد في الانتخابات النيابية إبان التجديد الديمقراطي الأول وأكثر قليلاً إبان التجربة الديمقراطية الثانية، فقد استطاعت الحركة الإسلامية تحت زعامته إبراز المرتبة الثالثة في مقاعد البرلمان بعد حزبي الأمة والحزب الاتحادي في التجربة التجديدية، فالتجديدية التي استبدلت اسم التنظيم بالجبهة القومية الإسلامية بمجرد عزل نميري!

ورغم أن الترابي انضم إلى صفوف المعارضة لحكم نميري. إلا أنه رفض الانخراط في انقلابها العسكري الذي حاول إزاحة نميري عن السلطة عام ١٩٧٦ بقيادة العميد محمد نور سعد، وعرف آنذاك باسم «الغزو الليبي»، كون ليبيا مأوى وعقر للتدريب العسكري لميليشيات المعارضة، ثم الانطلاق منها لتقيام باختراق الخرطوم وفشلت في الاستيلاء على السلطة، وحتى جاءت الفرصة المواتية لكسب ثقة نميري عبر مبادرة المصالحة الوطنية التي تبناها رجل الأعمال السوداني فتح الرحمن بشير، وبينما انشعب المهدي وأحمد الميرغني من المصالحة مع نميري بعد فترة من الوقت، ظل الترابي يقترب من نميري ويسبح بحمده ويعلن له الولاء والطاعة حتى عينه نائباً عاماً «وزيراً للعدل»، ثم مساعداً لرئيس الجمهورية. وبعد ذلك رين له الإفتاء والأجتهاد في الشؤون الإسلامية. حتى أصدر نميري كتاباً ضخماً من تأليفه بعنوان «التجديد الإسلامي» ١٤١١هـ، ثم تبعه بكتاب آخر ضخم بعنوان «التجديد الإسلامي» ١٤١٢هـ.

من هنا كان طريق الترابي سالماً إلى فكر نميري وإفئاده ما يمتدحه والإخوان المسلمين قنديل الأمان. حتى يتفرغوا لتسويق الدعوة والتربية الإسلامية فحسب، مقابل القيام بحمايته من أعدائه ومن السخط الشعبي، في الوقت الذي نجح الإسلاميون في شيايب الأحزاب وتفكيك النقابات من الأفراد بالشارع السياسي! والحقيقة أن الترابي التزم بما وعد، بل إلى حد إقناع نميري بتخصيص نفسه أميراً للمؤمنين وخليفة رسول الله - عليه الصلاة والسلام -، والترابي هو الذي كتب بنفسه أصول البيعة ودعا المسلمين في السودان إلى بيعته، وفند ما سألته في حديث صحلي معه عام ١٩٨٦، وهل كانت شروط البيعة تتوافر في نميري؟ قال باستخفاف: ومن بين خلفاء المسلمين كانت تتوافر فيهم شروط البيعة؟!

تلك مجرمة أشلّة

يبقى أنه هو الذي أقتنع بنميري كذلك بإجادة قوانين عام ١٩٨٢ والتي أخضت إلى قطع أيادي عشرات الفقراء والمهوزين وأرجلهم من خلاف بتهمة سرقة ما يأكلون أو يلبسون، دون أن تطول عتاة المصوص من كبار المسؤولين الذين نهبوا أموال الشعب وعائلوا في السودان فسادوا جوراً، بل إلى حد تعليق القوانين سيئة السمعة على الفكر الإسلامي محمود محمد طه وهو الطاعن في العمر، رغم أن افكاره معروفة ومولماته مشهورة منذ خمسينيات القرن العشرين عبر إفتاء الترابي برفقه، في إن الترابي غرض النظر عن تهريب اليهود الفلاشا عبر أراضي وأجواء السودان إلى إسرائيل.

مظاهرات السودان الميوتية

أدرك الترابي بذكائه وخبرائه السياسية النهائية المحتومة لنظام نميري في إطار دورة الحكم الثلاثية التي شهدها السودان منذ استقلاله عام ١٩٥٦، نظام ديمقراطي يخفق في حل مشكلة الجنوب تصهه الانتفاضة أو الشورى الشعبية. يمتضى إلى الديمقراطية، ويمدها لنجح الأحزاب التقليدية في الاستيلاء على السلطة، إلى حين إخفاها في حينه حول مشكلة الجنوب، وانذاع الانقلاب العسكري و... هلم جرداً!

ومن هنا كان حرص الترابي أن يكون على أعية الاستعداد لواجهة التنازعات السياسية والشعبية المتوقعة ما بدلاخ الانتفاضة، فكان توجيهه لداخل الأحزاب لتجنيد الكوادر السياسية وتدريبها على حمل السلام والتمويه على نشاطاتها، بالتزامن مع التجنيد داخل القوات المسلحة وقوات الأمن عبر أسلوب الحركات الشبوعية وتنظيماتها السرية المنعقدة، بل وامتد نشاط الجبهة الإسلامية إلى تأسيس الشركات التجارية والزراعية، وساهم في تمويل البنوك التابعة لمنظومة الإسلام الأممي، والأكثر من ذلك استعداداً لمواجهة تدايعات المستقبل. حرص الترابي على ابتعاث مجموعة من الشباب إلى أمريكا وأوروبا لدراسة فنون الإعلام والدعاية والكمبيوتر!

وكان نميري لبد أدرك خطورة نشاطات الترابي رغم سناز السرية

والتحدي. وأنه لم يلتزم بالدعوة والتربية الإسلامية فحسب، ومن ثم قرر اعتقاله وعزله من مناصبه، فلم تفر أسابيع حتى اندلعت الانتفاضة الشعبية في السادس من أبريل عام ١٩٨٥، ثم تمخض سوى أيام حتى أصبح طليقاً، واستطاع أن يحول مارات الانتفاضة لصالحه، وتخلّى عن اسم الإخوان المسلمين. كما أسلفنا واستبدله باسم الجمعية القومية الإسلامية، حتى يتحذر من إلحاح جماهير الانتفاضة التي كانت تطالب بمحاكمة «السنة»، الذين تحالوا مع نميري، وزيئوا له إجارة التشريعات سيلة السمعة بما فيها القوانين الإسلامية المعوجة التي كانت تهيض باسم العقيد الدكتور جون جرانج زعيم الحركة الشعبية. بالنظر إلى دوره في مقاومة حكم نميري والتجديد بعزله، لفظ الترابي مظاهرات «أمان السودان»، مطالبة بتمكين القوات المسلحة من دحر المتمردين، وصبت قراة الليبون سوداني جاء معهم من التنازل عن خارج الخرطوم، ورايت باد على سيارات مجهزة بالشرويات المتلجة كات تواصل إطفاء ظلما المتظاهرين تحت وهج الشمس ليلجئها. وهي كانت ظاهرة غير مسبوقه في شتى المظاهرات الشعبية منذ الاستقلال!

ورغم ذلك وربما لذلك لم يجد الصادق المهدي مناصاً من توسيع زعاه حكومته الائتلافية التي كانت مقصورة على حزب الأمة والحزب الاتحادي لاستيعاب الجبهة الإسلامية وإنشاء الأعياد الترابي، فكان أن أصبر على تعيينه وزيراً للخارجية، وكانت فرصته لتضمين خصوم الحركة الإسلامية في السلك الدبلوماسي السوداني وتعطيل السير قدماً في حل مشكلة الجنوب سيما عبر الماوضات السياسية

مغزى توقيت انقلاب

الجبهة الإسلامية

وإذا كانت قيادة الترابي للحركة الإسلامية قد نجحت في إجراها المرتنة الثالثة عبر صناديق الانتخابات عام ١٩٨٥، كان

أزاح البشير الترابي في حركة دراماتيكية مباغتة في شتى مناصبه في السلطة والحزب والبرلمان واعتقاله، مع إعلان حالة الطوارئ تحسباً من أي رد فعل غير محسوب

الطوارئ

السلطة تمكنه للجنوبيين من حق تقرير المصير عبر الدور الذي لعبه ساعده الأمين على الحاج، حين التقى في أوروبا بعدد من أعوان جارتج وبينهم لام أكول وكازينيو، وجرّت الموافقة على استبقاء القوانين الإسلامية مقابل منح الجنوبيين حق تقرير المصير، وتكفل رجل الأعمال البريطاني توشي رولاند بتحويل الصلصة من ماله الخاص.

ثم فصل أخيراً إلى ما وراء اعتقاله للمرة الخامسة مؤخرًا، ولا شك أن وراء الاعتقال مخاوف سياسية جمة من فرط نشاطه إثر تشكيله لحزب المؤتمر الشعبي في مواجهة حزب المؤتمر الوطني الحاكم، ورغم أنه لم يخضع لمحاكمة ما في كل مرار اعتقاله في السابق إلا أن السبب معروف، ويمكن في تعزيزه وإعلان موافقته على محاكمة الرئيس عمر البشير أمام المحكمة الجنائية الدولية بتهمته الضغوط على ارتكاب جرائم ضد الإنسانية في دارفور، وخشية صلاته ونفوذه الديني والسياسي الوثيق الصلة بممارسات حركات التمرد في مقدمتها حركة العدل والمساواة التي يتزعمها الدكتور خليل إبراهيم سبق وحاولت اقتحام أم درمان عسكرياً وشن معاركها الضروس مؤخرًا من مواجهة أركوميانيو مساعد رئيس الجمهورية وقاتله في مدينة المهاجرة من حق الدكتور حسن الترابي ممارسة توجهاته السياسية في إطار اللعبة الديمقراطية حتى لو اختلف معه خصومه حول أساليبه الميكانيقية، لكن أن شُدد ممارساته إلى ما اعتبره البعض مسا باتوايت، فذلك ما ألقده الباقي في مكانته، عبر الإفتاء بجواز زواج المسلمة بالمسيحي واليهودي، وإمامة المرأة في الصلاة، وأن شهادة المرأة تساوي شهادة الرجل، وأن من حق المرأة أن تقطعي صدرها فقط دون ربطها بغطاء مشعشع، كما أن انتظار عودة المسيح لا جدوى منه .. ومن هنا انبثقت عليه انتقادات رجال الدين الإسلامي وفي مقدمتهم الشيخ يوسف القرضاوي رئيس اتحاد علماء المسلمين الذي أفضى ببطلان فتاوى الترابي.

في كل الأحوال يظل الحكم الفاصل على سير الترابي إيجاباً أم سلباً، مقووداً في النهاية على حكم التاريخ له أو عليه. ■

السواء، لسد النقص في القوات المسلحة. والأدهى والأمر أن ينهي الترابي أو نظام الإنقاذ نشاط التعليم المصري في السودان، وصنادير المدارس وفرق جامعة القاهرة بالخرطوم. ونادى ناصر الشقابي، والاستيلاء على مقرات الرق المصري وطرد المدرسين المصريين من بيوتهم كما لو أن السودان تحرر من الاستعمار الثقافي المصري، ولم يتورع الدكتور الترابي كذلك عن التهديد بتدمير الصل العالي وحرمان مصر من مياه النيل، وشن حملة عسكرية لطرد القوات المصرية من مثلث حلايب.

بدأ أن الترابي الحاكم الحقيقي للسودان آنذاك من وراء الستار بما كان الظن، وكان يجتمع بينهم وديوريا بما كان يسمى المجلس الأروبي، الذي يضم أركان النظام والمخلصين من أبنائه الذين رزاهم على عينه وبوآهم مناصب في ولائهم والنفوذ. وكما استضاف نيمري إلى خطوة الترابي كان الأمر كذلك بالنتيجة للبشير قبل فوات الأوان!

وهكذا وقع مما لم يكن منه بد، وأزاح البشير الترابي في حركة دراماتيكية مباغتة في شتى مناصبه في السلطة والحزب والبرلمان واعتقاله، مع إعلان حالة الطوارئ تحسباً من أي رد فعل غير محسوب، وبينما كان زهان الترابي خاسراً إلى دم أنصاره، كان البشير أكثر حرصاً عبر زهانه على القوات المسلحة وعلى التمثل من ممارسات الترابي في أسوأ المجتمع السوداني وكذا دول الجوار، ولعل التصريح الذي أدلى به غازي صلاح الدين وزير الإعلام وقتئذ يعنى الكثير رغم أنه كان من أخلص تأييدي الترابي، حيث اتهمه بالانتماء السياسية وخيانة الحركة، الإسلامية! ولم تكن المرة الأولى اعتقال الترابي في عهد نظام الإنقاذ، فقد تجدد اعتقاله للمرة الثانية بتهمته ضلوعه في تأجيج التمرد في دارفور، وإذعى أن الإخراج عنه كان نتيجة ضغوط خارجية بينها ضغوط جون جارتج الذي كان قد التقى فريقه الترابي في الخارج وعقد معه اتفاقاً سياسياً يقضى إلى تمكين الجنوبيين من حقوقهم على غير ممارسته سابقاً لحل مشكلة الجنوب سلمياً! معبراً أن الترابي عندما كان في

وكان من جراء ذلك ارتكاب تنطيط التكمير والهجرة - على سبيل المثال - العديد من حوادث الاغتيا للمخلصين في مساجد جماعة السنة المحمديين، بل ومحاولته اغتيال أسامة من لادن، مما عجل - برحيله من السودان إلى أفغانستان!

وعلى فقيض الشخصية السودانية المعروفة بالسماحة وعلى نقض المجتمع السوداني المرافق لحجب والفساد والشمر وكل جميل في الحياة، لعب الترابي دوره في استمرار قوانين الطوارئ والأمناع عن السهر في الأفراح بعد الانتهاء مساء، وبشكل خسة أجهزة أمنية ومحاربة جديدة لكل منها مجال و تخصص مختلف ومستقل، ضلاً عن مليشيات الجبهة الإسلامية والشرعية وتنظيمات الدبابين والنفط الشعبي، وبيروت الأشباح، وهو الوصف الذي أطلقه الشعب السوداني على القرات الأمنية الخاصة باستجواب وتغليب المشكوك في ولائهم وروح ضحيبتها شخصيات سياسية مزعومة.

وكان نظام الجبهة الإسلامية ما وسعى الإنقاذ الوطني قد بدأ عهده بإعدام شاب سوداني وهو ابن شقيق المفكر جمال محمد أحمد وزير خارجية السودان الأسبق بتهمته حياة بضع مئات من الدولارات كان قد تسلمه مقابل تأجير عقار بملكه، ثم تبعه إعدام مضيق جوى سوداني مسيحي بنسب التهمة، فيما جرى تسريح ٢٥ ألفاً من الجيش والأمن والخدعة المدنية للاشتباه في عدم ولائهم لنظام، فيما اضطر زهان أكثر من ثلاثة ملايين سوداني إلى الهجرة للخارج، تحت وطأة الإرهاب السياسي وسوء الأحوال الأمنية والاقتصادية ومعظم كانت مصر محطتهم الأولى أو الأخيرة!

الحزب الأهلية

ونتيجة استمرار الحزب الأهلية منذ عام ١٩٨٣ وراج ضحيته أكثر من مليون قتيل، وكبرت ميزانية الوولة نحو مليوني دولار يومياً، اضطر النظام إلى التجنيد القسري للشباب والرجال على

من المراجح كذلك أن نتجج أساليبه الميكانيقية وقدراته التنظيمية في الإطار الديمقراطي لانتقال الحركة الإسلامية تبعاً إلى المرتبة الثانية هالأتى، لكنه لمجمل الفور بالفتنة من أقصر الطرق ضارباً عرض الحائط بميثاق الدفاع عن الديمقراطية الذي أجازته مختلف القوى السياسية إثر نجاح الانتفاضة الشعبية وتحريرم الانقلابات العسكرية!

كان الترابي قد أعلن رفضه لاتفاق السلام الذي وقعه السيد محمد عثمان الجريشي في أديس أبابا مع العقيد جون جارتج لإحلال السلام في السودان، وقرر باتتالي الانسحاب من الحكومة، وهكذا في يوم الجمعة ٣٠ يونيو ١٩٨٩، كان على الحكومة عقد جلسة استثنائية لبحث تجميد قوانين سبتمبر سنة التسعة، كشرط لوقف إطلاق النار أينأناً بالتفاوض حول بنود ومراحل عملية السلام، لكن انقلاباً عسكرياً بقيادة العميد عمر حسن البشير كال قد حدد في نفس الوقت ساعة صفر استلانه على السلطة!

وبينما نجح انقلاب البشير في الاستيلاء على السلطة بفصيل من المشاة وخمس دبابات خمس، تبين فيما بعد الدور الحاسم الذي لعبه التنظيم الإسلامي السرى داخل القوات المسلحة، والميليشيا الترابية الإسلامية في دعم الانقلاب، والتموية على أسلحة وحاميات الجيش السوداني بزعم أن الانفراد بزعماء اللواء، فتشى أحمد القائد العام للقوات المسلحة، والأكثر إصملاً في التموية على هوية الانقلاب، كان اعتقال الدكتور حسن الترابي مع قيادات الأحزاب والوزارات السياسية، وزيموا لو ظل الترابي طليقاً أو كشف بعد الانقلاب عن هويته الإسلامية لكن مصير التمثل.

والشاهد أن الترابي عراب المظالم الحبية الإسلامية واليهيمن على معاصر السلطة بالسلطة كان قد فتح الأبواب ومنح جوازات السفر الدبلوماسية الحمراء وفق الإقامة لعشرات القيادات والكوادر الأهلية الإسلامية في العالم،

الاقتصاد والحياة اليومية

وإنس لأهدي هذا الكتاب لمجموعة الفداء لذلك مع شكري العميق لهم سماحهم لي بمصاحبتهم في رحلة حياتهم المثيرة وأهديه أيضا لبيوس بوتومو Bonnie Buonomo، مديرة المطعم التي حلفت الجوع الخائلي الذي ساعد على تأني المجموعة، كذلك أهديه لمفحس تيفولي بروثيستر الذي سبغ لي، أثناء كئاشي للمسودة الأخيرة، بلهامة شبه دائمة في مقابل لمن قبح القهوة اليومية، متحفيا بذلك قوافي علم الاقتصاد

ملاحظة عن

فصول الكتاب

تقدم هذه الفصول مبدءاً عن رؤية عالم الاقتصاد للعالم، ولغلبها يمكن قراءته دون مراعاة للترتيب. قد تجد في بعض الفصول إشارة إلى أفكار من فصول سابقة، ولكن تلك الإشارات ليست ضرورية لمتابعة تدفق الأفكار. إن الغرض من أفكار هذا الكتاب هو تقديم صورة صادقة لأسلوب التفكير الذي يتبنها أصحاب الاتجاه السائد في علم الاقتصاد والطبع، فهناك دائماً مساحة للاختلاف على التفاصيل وبالشكوكية. قد يرغب أحد علماء الاقتصاد في الاختلاف معي حول بعض ما ورد في الكتاب ولكنني أشق أن معظم من قرأه من علماء الاقتصاد سيرون أنه يعكس بدقة وجهة نظرهم العامة

وسوف نلاحظ القارئ المداق أن هذا الكتاب يطبق المنطق الاقتصادي على مجموعة هائلة من السلوكيات (والحياتية) وأحياناً غير الإنسانية) وسيلامحظ أيضاً عند طرح سؤال يتعلق بمدى مكنية تطبيق أحد المبادئ الاقتصادية على سلوكيات حتى أن جارتهم ساند رباتك الأخطاء، «سي أومي أو إن غريسي علم الاقتصاد عائلة فيل لا تدري عنى حاس الحس أو لغريسي حاس فاما على شأنه من لغريسي المداق لن يحضن فهم السجاسم المتكرر للمصدر المذكورة مثل وهو لا فيطن أن مصدوره بها هو حسن الذكر فقط

ستيفن لاندسبيرج



The Armchair Economist
Economists and Everyday Life
Steven E. Landsburg
Free Press, 1995

اسمى المحل خلال الحزب الأكبر من الأعوام العشرة الماضية بأن اتناول شمالي يومياً مع مجموعة رابعة من جامهيدة علم الاقتصاد الذين كانوا دائماً مصداً لإلهامي بحدة دكانهم، وجرة أفكارهم، ونضاد بصيرتهم، فهوارة شبه يومية، يأتي احداً بلعز جديد لتناقضه على مائدة الفداء، فتشطرح مشات الأفكار الجديدة والمبيرة، وتطرحد مئات الاعتراضات الفضة، وأحياناً تجد ردا عليها وكنا نعمل ذلك من أجل المرح فحسب، إن هذا الكتاب هو لتسحيل لكل ما تعلمته هي جمعنا على الفداء وإنس أتق أن بعض الأفكار كانت أفكار: Mark Bils، و جون بويد، و Mark Bils، ولورين فينستون، و Laureen Feinstein، ومارفيسن جودفريند، و Marvin Goodfriend، و بريس هانيس، و Bruce Hansen، و هانان جاكوبس، و Jim Kahn، و كينس ماك لوجيس، و Ken McLaughlin، و آلان ستوكمان، و Alan Stockman، و جريسن مسر، انتقلتم إخبارهم على من السنين



فيلسوف الاقتصاد
الاقتصاد والحياة اليومية
ستيفن لاندسبيرج
ترجمة رشاد سعيد زكي
مراجعة: سامح رافعت مهران
كلمات عربية للترجمة والنشر،
القاهرة ٢٠٠٨
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عن سعر البترزين، فقد نبأ بتخيل غاملاً لا يتباعد فيه الناس سوى صودا الرتقال والبنزين إما إذا كان الهدف معرفة لماذا تسمى بعض الحكومات إلى حظر استخدام السيكون في عمليات تحميل النقد، فقد بدأ في تصور عالم يختار فيه الرجل شركته حياته وفقاً تحمم الصبر فحسب، إننا لا نفكر بطريقة المادح لأننا واقعية، وإنما لأن ذلك يحد بترين إحصاء نستمد به لتفكيره في عالم الذي نعيش فيه، هالهدف دائماً هو أن نهم هذا العالم، والخطوة الأولى تجاه تحقيق هذا الفهم - التي لم نخلفها عندما كنا في بدء دراستنا - هي الاعتراف بأن العالم لا يسهل فهمه دائماً، هذا الكتاب هو مجموعة من المقالات الموجزة تشرح كيف يمكن علماء الاقتصاد والمستعرض كثيراً من المسائل التي نراها غامضة، وكذا درواها غامضة، وكيف نسمى إلى كشف غموضها، وتضمن مباحث أخرى اقصور عنها قد حشيت وأخري لم تحمم بعد، إن أسباب دراسة علم الاقتصاد متعددة ولكنها أسباب جيدة، ولكن السبب الذي حاولت إبرازه في هذا الكتاب هو أن علم الاقتصاد يعتبر أداة لحل الألفاظ العامسة، وفي حل الألفاظ متممة كبيرة،

في نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧١، وبعد مدة وجيزة من وصولي إلى جامعة شيكاغو كى أبدأ دراستي بها، نشرت جريدة وول ستريت جورنال Wall Street Journal سلسلة من المقالات تحت عنوان «وسائل إفحام عالم الاقتصاد»، وقد كتبها رجل يدعى جون تراسي ماكجراث John Tracy McGrath حيث طرح مجموعة من الأسئلة شديدة السهولة عن الحياة اليومية، وكان يظن أن علماء الاقتصاد سيحزرون عن الإجابة عنها، وكان من بين تلك الأسئلة، لماذا يرتفع ثمن صوب السجاسم التي نشتريها من ماكينة السجاسم عن تلك التي نشتريها من متجر الحلوى؟ لماذا لا يستطيع منظمو مبيعات الخيل زيادة نسبتهم على كل لدرة على عشرين سنناً؟ لماذا يساوى ثمن مشروب صودا البرتقال أربعة أضعاف ثمن البنزين؟ في تلك الليلة حين اجتمعت مع أساتذتي على العشاء - وكنا جميعاً من طلبة السنة الأولى - لم نكلم مقالة ماكجراث من سحرها، ولما كانت مقرنتنا بعلم الاقتصاد لم تُشدد القليل، فقد لنا كل أسئلته آنذاك،

أما اليوم، وبعد مضي ما يقرب من عشرين عاماً زدت فيها علماً ومعرفة، صرت أعتقد أن أسئلة ماكجراث جميعها معقدة ومثيرة للاهتمام، وفيما أذكر، فقد كانت الإجابات التي طرحهاها بسهولة في تلك الليلة لا تحوي شيئاً يذكرك أكثر من مجرد رفض أن نأخذ الأسئلة مأخذ الجد، وأصبر وأنا تهرنا من الإجابة عن معظمها بعبارة «العرض والطلب، وكأنها تعني شيئاً، وأياً كان تصورا عن معنى تلك العبارة، فقد كما أدرك على يقين من أن هذا هو المعنى الحقيقي لعلم الاقتصاد، وفيما يأتي تصويري «العالم»، عن معنى هذا الاقتصاد، أولاً، هو التطلع إلى عالم العالم يجب صدق للمعرفة والاستطلاع والاعتراف بأنه حافل بالأنفاز، ثانياً، محاولة حل هذه الأنفاز بطرق تتفق مع الفرضية السائدة بأن الإنسان يرسى عن وراء سلوكه إلى تحقيق غاية ما، وقد يصعب أحياناً التوصل إلى حل لهذه الأنفاز، مثل الأنفاز ماكجراث، ولذلك ندرج انفسنا عن طريق محاولة حل الألفاظ مماثلة في عوالم خيالية من ابتكارنا نسميها «المتاح»، فمثلاً إذا كان الهدف هو معرفة لماذا يرتفع ثمن صودا البرتقال

كتب فرنسية

وصف نفسه بأنه كان يهوديا بالنصف، واشتهر بمناهضة المادية) ورومكس رولان (أديب فرنسي حاصل على جائزة نوبل). تتبع ماري كلير هوك دومار ميلاد وتطور وتارم نموذج متكامل، امتزجت فيه الروح الوطنية مع الشعور بالانتماء المشترك للعالم وتم التجاوز عبره عن الخلافات بين اللغات والأديان، والصراعات السياسية والتوترات الاقتصادية، لتسلط الضوء على العالم الذي اخترعته كتابة الرسائل، وحافظت عليه حتى اليوم

Black Bazar

الأيثار الأسود

Alain Mabanckou
Seuti; 252pp, 18 Euro, 2009



الراوي أصلا من الكونغو، عاش في باريس طوال خمسة عشر عاما، يعيش البذل الإيطالي وأخذية وستون. تغيير حياته بين ليلة وضحاها عندما تهره رفيقته سيرا وراء قارع بطون في فريق مشهور. من رحلة لتشمل مونكو وكورسيكا، يقضي وقتها بين الألفة الكاميكا، والجيبس، حادثة في السامرة الأولى بياريس يرتادها معظم أصنافه، شخصيات هجينة ذات أسماء لا تلتس، الكن يعتقد أنه يكتب للتخلص من حزنه وللتعبير عن غضبه. (لا أنه كان يكتب في الواقع مذكرات رجل شاعر، قرر الكتابة عن أزمة جنون العالم من حوله

La Condition noire
Essai sur une minorité
française

قضية السود
دراسة أقلية فرنسية

Pap Ndiaye
Calmann-Lévy, 440pp, 21.5
Euro, 2008



خلال السنوات العشر الأخيرة، ظهر السود يبيعون في فرنسا

المازونية. ويبحث المؤلف في الإرهاب من حيث تقدمه وتقيده، يستعرض عددا من المنظمات المختلفة بناها من مجموعة، جناح الجيش الأحمر، الألبانية التي شطت في السبعينات وعرفت باسم عصبة بلاد، نسبة إلى مؤسساها أندرياس يانوس، وحتى المنظمات الإسلامية المزعومة، مروراً بالحيث الجمهوري الأيرلندي، وبالأيوية الحمراء، الإيطالية، وجهية التحرير الوطنيين، الجزائرية، وتنظيم، الفاعلة،

ودون أن يميز الإرهاب، يوضح جذوره ويشير لكثير من اليات نمكيات العنف بأصبع الاتهام، فيخالف الخطاب المسالمة يؤكد ماتيو على دور المحافظين الجدد في أمريكا ووسائل الإعلام الغربية، في إضفاء صورة شيطانية على المتطرفين، وفي دعم تدابير طارئة قدمت سيطرة القانون، وصمغت من شروط الإرهاب، ميكاكيا الكبير هو إلا دعوة للبطشة، وتأكيد على دور السياسات الضمنية في تدهور الطريق، كما تطرف ماتيو كاد مصفى يريطان، ولد في لندن عام ١٩٥٥، يحمل مراسلًا لهجية الإذاعة البريطانية ومصحرا في الأوزيفر والحادريان، تخصص في العمل في مناطق النزاعات دعا في ذلك أمريكا اللاتينية، وصغلية، وخاصة في فلسطين،

L'Europe des lettres
Réseaux épistolaires et
construction de l'espace
européen

أوروبا الرسائل

شبكة الرسائل وبناء الفضاء الأوروبي
Mane-Clare Hock-Demarle
Albin Miché; 416pp, 24 Euro,
2008



يتنافس القرنان الثامن عشر والتاسع عشر، بلا منازع، على لقب، هجر المراسلات، فخلال الفترة بين ١٧٨٨-١٨١٤، وضمت الخطوط العريضة لمن كتابة الرسائل، باعتباره مركزا للاتصال والربط الشبكي بين المناطق الأوروبية المختلفة في هذا الضمار، برزت أسماء لا ممة في الثقافة الأوروبية، كنقاط هامة في شبكة العمولة الأولى، التي غلغت أوروبا عقب مرحلتها الثورية فمن جونه كدام و ستال (كاتمة سويسرية اعتمدت في نظريتها على معرفة العادات والتقاليد والقوانين والشرائع)، مروراً بشيفان تسفانغ (كاتب بمساوي

كرستوف بروست. وبعد أسابيع قليلة، لخص الثلاثة أعضاء الآخرين من الورقة البيضاء، نفس المصير. كانت جريمتهام كتابة عبارة، تحيا الحرية، على الجوانب وتوزيع مشهورات في جامعة ميونيخ، تسعو الألمان لقلاومة المازية.

كان هاجر وصوفي في فترة دراستهما الثانوية مقتنعين بالشعارات التي برزج لها النظام النازي، فالتحقا بشربية الحرب. لكن في ديسمبر ١٩٣٧ تم سجنهما لمدة أسبوعين في مدينة شوتنجات بسبب نشاطهما مع منظمات الشباب، وهي منظمات ذات توجهات اجتماعية غير سياسية مثل الكشفاء والجمعيات المدنية وغيرها، (أنها كانت ممنوعة من المطام النازي منذ عام ١٩٣٢ وكان الانتماء إليها يؤدي إلى السجن، بعد اعتقالهما بدأ الإخوة شول في مرامجة قناعاتهما المتقلبة بالحزب النازي، ثم تشكل لديهما موقف رافض لهذا النظام مع بداية الحرب. درست صوفي الفلسفة في جامعة ميونخ وتعرفت هناك على زملاء أحيها من طلبة الطب، فكونوا ما مجموعة من حصة طبية وأستاذ جامعي عملت اسم الورقة البيضاء،

وبالرغم من عدم نجاح أعضاء هذه المجموعة في إثارة النظام النازي فإنهم تمكنوا، من خلال مناصرة عدد من الكشمن عن الجرائم التي كان النظام يقترها فضحه أمام الجمهور التي كانت لا تزال مخصصة في تطويعه هتلر وفطسه على القضاء على البطالة وإعادة الأامجاد لألمانيا.

La Mécanique infernale
L'Histoire du XXe siècle à
travers le terrorisme

ميكاكيا الكبير

تاريخ القرن العشرين عبر الإرهاب
Matthew Carr
Héloïse D'Ormesson; 560pp,
25Euro, 2008



يبتتج هذا الكتاب تاريخ الإرهاب منذ أن وضع له المفروضيون أولي تصور، في أواخر القرن التاسع عشر، وحتى الصورة التي وصل إليها في عصر العولمة والتي تجسدت في مسألة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، يستعين ماتيو كار في كتابه بالأعمال الأدبية بقدر ما يستعين بالأمصار

Debout sur la cime du monde
Manifestes futuristes 1909-1924

وقوفاً على قمة العالم

بيان المستقبلية ١٩٠٩-١٩٢٤
Jean-Pierre Du Villers et Filippo
Tommaso Marinetti
Dilecta; 158pp, 22Euro, 2008



عام ١٩٠٠ أنبهر فيليب توماسو مارينيتي (١٨٧٦-١٩٤٤) الإيطالي الشاب الذي ولد في الإسكندرية، بما اكتشفه للنمو في المعرض الدولي في باريس، بعد أن عاش في ظل الأهرامات وفيه ميلانو حيث ترك له والده ثروة طائلة، وها هو يستمتع بلقاء الحداثة، بعد أن تمسك بالبيان القديمة، ومي خربة أمه في عالم عارق في رسائل الرموز المعقّبة، لكن الأمر استغرق ثمانية سنوات أخرى، حتى يطور رؤية كاملة بشأن هذا العالم الجديد، كما يتصور

هسي ليلة من ليالي شهر أكتوبر ١٩٠٨، أحد يرون على أروق الخطابات الحاصة بفتنيل، جرائد أو تيل وباري، أحد عشر، نندا لبيان تأسيس المستقبلية، لينشر هذا البيان بعد في الصفحة الأولى من الصحافة،

وخلال السنوات التالية، توالى ما يقرب من ثلاثين بياناً لهذا التيار الذي شاع في أوروبا في مختلف وجود الفن من أدب وموسيقى وعمارة.

(لا أن هذه الحركة لم تحافظ على وحدة فنية تجمع غيوطها في البلاد الأوروبية المختلفة، فسرعان ما أعلن مارينيتي، باعث الحركة، أنه نكرة قومية مؤلداً الموسولتي والعاشية، وهو ما سحله في كتاب بعنوان، المستقبلية والفتشية.

Lettres et carnets

رسائل ويطاقات
Hans et Sophie Scholl
Tallandier; 368pp, 23 Euro,
2008



يوم ٢١ فبراير ١٩٤٣، تم إعدام هانس وصوفي شول إضافة إلى رفيقهما

فرصة للتعبير عن آرائه في المواضيع التي يختارها الموسيقي الرابطة الاستقلال الجنس للأطفال، الخدمة الطوعية، مكافئ، الديمقراطية، جوتنامو التعذيب والإرهاب.

يتحدث المشروع بسبب مرض الناشر، فيعهد بمسودة الكتاب لحاربه الشابة الفلسطينية، بموهبتها الشعرية وحبا الهرف، لتلق الشابة الأفكار، وتناقش النصوص، وبالتالي تزيل المواقف الحادة التي اعتمدها المؤلف، وتلهم الناشر بنسجة جديدة

محمدة، يخرج النص في النهاية معبرا عن ثلاثة أصوات، أحيانا في حصة تناغم وأحيانا أخرى في حصة نافر.

Ulyse from Bagdad
أوليس من بغداد
Eric-Emmanuel Schmitt
Albin Michel, 313pp, 16 Euro, 2008



يريد سعد مغادرة بغداد، والغوص في التي تفعلها، ليدب لأوروبا، بحثا عن الحرية والمستقبل. ولكن كيف له أن يعبر الحدود دون أن يكون في جيبه فيلنار واحد؟

كيفية تمام كما فعل أوليس، واجه المواقف، ونجا من الأعاصير، وهرب من تجار الأفق، وتحاول لتكرار عرائس البحر، وهرب من قسوة المسح وتخلص من سحر قلعة صقلية

في أجواء عنيفة وعربية ومأساوية بالتناوب بينا مسعد وحيلة بلا عود، معامرة تصممها الحس، تتخللها محادثات مع أب رحيم ومؤثر.

تتحدث هذه الرواية قصة رجل من بين ملايين ينزحون اليوم، بحثا عن مكان يسعهم على وجه الأرض باختصار في يوميات مهاجر غير شرعي

من الخطأ أن يرى في «الجرى» مجرد هدف لواحد من أهم الروائيين على مر العصور، فيخلاف هدف إميل، يصور جون إشنو ملازم رجل استثنائي حتى في حرسه على أن يجري بسرعة يواجه التساقط المضيق، العرو الأملاني، والتجريس، والقنع السوفيتي، بنفس الطريقة التي يواجه بها سحرية الجمهور والطرق القاذبة القاسية، يخرج لكل العقبات التي تواجهه لبنا، دون أن يتغلب للحظة عن غطرسته اللامبالية

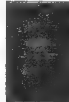
Day
داي
Alison Louise Kennedy
Paule Guivarch
L'Olivier; 336pp, 23 Euro, 2009



كان الصريد داي يبلغ 15 عاما عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية في عام 1939. هربا من أب مدمن خمر انضم للثلاث الجوية الملكية.

وكانت الحرب له مجالا للتعلم، اكتشف الصداقة مع رفاته في السلاح، وروايات آرثر كونان دويل، والحب في أحضان جويس. إلا أن العنف عرف طريقه إليه في النهاية، فخلال عملية قصف سقطت طائرته، ولم ينجح غيره من طاقمها، فتم أسره من قبل العدو. وبعد عدة سنوات، أطلق سراحه، إلا أن داي ظل أسيرا لتكرياته. وفي عام 1944، قرر التصالح مع ماضيه من خلال الموافقة على تجسيد سنوات الحرب والأسر في فيلم سينمائي، وبين الممثلين في أرياء الحرب، والتذكيرات الأورفية، واجه مرة أخرى خوفه وأله العالم.

Journal d'une année noire
يوميات عام أسود
John Maxwell Coetzee
Seuil; 300pp, 21.8 Euro, 2008



إم كوتزي الجنوب أفريقي الأصل،

جنوب الصحراء الكبرى، ثلاثة عشر قرنا دون انقطاع أثناء ذلك تم ترحيل ملايين الرجال، اختوما تقريبا بسبب المعاملة عبر الإنسانية إلا أن تلك الصحة المؤلمة من تاريخ الشعوب السوداء لم تعلق بعد على ما يبدو كانت البداية عندما يبعث عمرو بن العاص، عبد الله بن أبي السرح لفتح النوبة عام 642، لكنه لم يتخطها وألقى بإجبار ملوكها على توقيع اتفاقية، فرضت عليهم تسليم ثلاث من العبيد سودا

ثم انتزع معظم هؤلاء الرجال من دارفور، وكانت هذه هي نقطة الانطلاق لانتهاك واضح لحقوق شعب لم يتوقف حتى الآن.

Seul dans le noir
وحيدا في الظلام
Paul Auster
Actes Sud; 192pp, 19.5 Euro, 2009



على أثر حادث سيارة، يجبر أوجوست بريل النافذ الأبيض المتقاعد على الجمود ذات ليلة، يجد الحلجا في مواجهة هواجس الحاضر ووطأة المكروبات التي تخلق به، أثناء أسره السريري، في سرد تاريخ موز للعالم، في هذا الشرايح القصير لم تلح أحداث 11 سبتمبر، ولم تدخل الولايات المتحدة في حرب ضد العراق، فبدلا من ذلك تعاني من حرب أهلية لا عودة فيها!

Courir
الجرى
Jean Echenoz
Minuit; 144pp, 13.5 Euro, 2008



يكرس إميل حياته للجرى، يتمرن حتى يصبح تحسين لانه هاجسه الأكبر، إنه يريد أن يصبح أسرع رجل يجرى على وجه الأرض.

المثربوليتانية، بوصف على الساحة الوطنية العامة، بحيث أصبح من الممكن التحدث عن قضية للسود في فرنسا وتحت هذا العنوان المريض تظهر بعض الصانين العرقية مثل: استقلال الرياضيين، أعمال شغب في الضواحي، مناهضة العنصرية والتمييز، الحركة المتكلمية.

لكن كيف يمكن تحريك السود العرسيين؟ المؤلف يدل على أن قضية السود، في فرنسا هي بالأساس قضية اجتماعية وليست عرقية، أو طائفية، أو اجتماعية. ولكن قضية العليات، بمعنى أنها تخص مجموعة من الأشخاص ذوي الخبرة الاجتماعية المشتركة تؤدي للخطر إليهم عادة باعتبارهم سودا.

La Pensée anti-68
الرؤية المضادة لـ 68
Serge Audier
Gallimard; 320pp, 21.5 Euro, 2008



أصبحت كراهية مايو 68 موضوعا شائعا، ولكن لا ينبغي النظر لشعار، ضرورة تصفية 68، الذي اختاره اليهين خلال انتخابات الرئاسة في عام 2007، باعتباره مجرد هدف لحملة، ولكن باعتباره في الأساس نكثا لسيادة إيديولوجية بدأت في أعقاب الأحداث نفسها واستمرت من احتفال آخر بذكرها.

هل يمكن النظر لنهي مناهضة 68، باعتباره مجرد خطاب رجعي بسيط؟ ما هي مصادر هذا العداء؟ وهل تستحق 68 إطلاق العنان في نقد، في الأغلب غير عادل، ولا أساس له من الصحة؟

Le Génocide voilé
الإبادة الجماعية «المخفية»،
Tidiane N'Diaye
Gallimard; 288pp, 21.5 Euro, 2008



هيمن العرب على مناطق أفريقية،

جلب السعادة وهي العادات التي استخلصتها الكاتبة من لقاءاتها مع أكثر من مائة شخصية تعد من الشخصيات شديدة السعادة

Run for Your Life

اهرب من أجل حياتك

James Patterson, Michael Ledwidge
Little, Brown and Company,
2009, 384PP, 27.95\$



الكتاب جيمس باتيرسون بعد كتابه الأول عام ١٩٧٦ أصبح واحدا من أكثر الكتب شهرة ومبيعا في العالم، فقد بلغ حجم مبيعات كتبه على مستوى العالم ١٤٠ مليون نسخة، كما احتل عدة مرات المراكز الأولى لأكثر الكتب مبيعا، وتوج هذا بفوزه بجائزة إدجار.

في هذا الكتاب يتناول جيمس باتيرسون مرة أخرى من الكتاب مايكل ليدويج بعد تآمرهما السابقة الناجحة ليخرجنا هذا العمل الفني الشيق. القصة تدور حول قاتل يطلق على نفسه اسم المعلم، يهدد سلام نيويورك ويقتل أغنياءها، ويترك دائما رسالة تقول: «تذكر ما فعلت، أو واجه العواقب»، هناك فقط رجل واحد يستطيع إيقافه، هو المحقق «بيت» الذي يحاول إنقاذ نيويورك من أخطر كارثة في تاريخها.

How We Decide

كيف نقرر

Jonah Lehrer
Houghton Mifflin Co, 2009,
256PP, 25.00\$



مهارة اتخاذ القرارات واحدة من أصعب المهارات التي يكتسبها الإنسان، وفي هذا الكتاب يحاول جونا ليهير عملية اتخاذ القرار، ويقدم للكثير من طرقا للمساعدة على اتخاذ قرار أفضل.

توقعات جريئة، وقراء مدهشة في أحداث متوقعة لثلاثة عام مقبلة

The Lost City of Z

مدينة، زى، المفقودة

David Grann
Doubleday, 2009, 352PP,
27.50\$



في عام ١٩٢٥ قام المستكشف الإنجليزي الشهير الكولونيل بيرسي فاوسيت ومعه ابنه جاك بمغامرة كبرى للبحث عن مدينة «زى» إحدى مدن الحضارة الأمازونية القديمة، التي يتكلم في وجودها.

فاوسيت وابنه لم يعودا أبدا من رحلتهم، ولكن هذا لم يمنع العديد من المستكشفين الآخرين والباحثين عن الحضارة وأساليب الجامعات من التحاق الأذغال للبحث عن أثر للمدينة أو لماوسيت

الكتاب هو واحد من هؤلاء المستكشفين الذين ذهبوا للبحث عن مدينة «زى» المفقودة. ليقدم في هذا الكتاب قصة رحلته وقصة أذغال الأمازون العاصمة

Happy for No Reason

سعادة بدون سبب

Marci Shumoff
Free Press, 2009, 336PP, 15\$



وفقا لمنظمة الصحة العالمية بحلول عام ٢٠٢٠ سيكون الاكتئاب ثاني أكثر الأمراض انتشارا بعد أمراض القلب في العالم، الكاتبة ترى أن هذا يمكن تغييره إذا ما تعلمنا كيف نزرع السعادة داخلنا. السعادة التي لا ترتبط بأسباب معينة والتي وجدت لتبقى.

الوصول إلى السعادة في رأي الكاتبة سهل للغاية، وفي الجزء الثاني من الكتاب يتجاهل الأسباب التي تدفعه للاكتئاب وأن يمسك بإحدى وعشرين عادة تساعد على

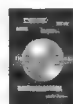
أنهم أصبحوا أسرى لمعانات الملحة التورية الكولومبية، تلك السخية الماركسية المسلحة التي يمتد سراجها من الولايات المتحدة لأكثر من خمسين عاما هوسا لنفوس هاريس، وستاميل يحكون قصة ١٩٧٧ يوما في الأسر كيف استطاعوا البقاء على قيد الحياة طوال هذه الفترة. وكيف كانت حياتهم، وكيف انشؤوا في نهاية الأمر الكتاب يحكون في هذا الكتاب عن أنماطهم في الأسر، عن معاناتهم، وتقدمهم وعن تصاليفهم اليومي مع الشوارع الكولومبيين كما يحاولون وصف وتقديم شخصية الشوارع الكولومبيين. كيف يعكسون، وما هي أهدافهم، وكيف يتم تجنبهم

خمس أعوام ونصف يناضلون من أجل حريتهم وحياتهم، في واحدة من أطول أزمات احتطاف للجنود في الولايات المتحدة الأمريكية.

The Next 100 Years

الائة عام القادمة

George Friedman
Doubleday, 2009, 272PP,
25.95\$



جورج فريدمان ضابط المخابرات السابق، ومؤسس شركة ستراكتورز للتنبؤ الاستراتيجي، التي تعمل في مجال الاستخبارات الخاصة. ولقد أكثر من ٥٠٠ عميل يعملون بحكومات وشركات كبرى، والتي يطلق عليها اسم (فيل المخابرات الأمريكية) الشركة تقوم يومها بكتابة تقارير لتحليل الأحداث التنبؤية اليومية وتوقع نتائجها المحتملة في المستقبل القريب. ولكن فريدمان في هذا الكتاب يتحدث الجميع ويقدم توقعات لأحداث مائة عام قادمة

توقعات فريدمان تحمل العديد من المفاجآت، بعضها يحمل سمة الخيال العلمي وهو يتوقع حروبا أكثر ولكن أقل دمارا، وهو يتوقع زيادة القوة والهيمنة الروسية، وضاؤل نفوذ الصين الدولي. واستبالات مسلحة على الحدود الأمريكية المكسيكية، وعهدا ذهيبا أمريكيا في النصف الثاني من القرن الحادي والعشرين، ومردا فضائيا بين اليابان وتركيا من جهة والولايات المتحدة وحظائرها من جهة أخرى.

Meltdown

الذوبان

Thomas F. Woods Jr.
Regnery Publishing, 2008,
194PP, 27.95\$



هل الرأسمالية هي الجاني في الأزمة المالية الحالية؟

في هذا الكتاب يكشف الكاتب عن الأسباب الحقيقية وراء انهيار أسواق العمارات وأسواق المال. وسائل الإعلام تروج لأن الأسباب الحقيقية وراء الأزمة هي رفع القيود وتحرير الأسواق. وأن هذه الأزمة هي تعالج سوى بإصدار مجموعة من القوانين العيسرية التي تنظم هذا ولكن الكاتب يحاول أن السبب الحقيقي وراء هذه الأزمة ليس قادما من وول ستريت وإنما من واشنطن.

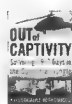
الكاتب يرى أن محاولات سياسيين لحل الأزمة لا تزيدنا إلا سوءا، وهو في هذا الكتاب يحمل كل شهادات الأزمات والكساد خلال القرن الماضي، ويقرنها بالسياسات الحكومية المختلفة، مثل سياسة الاحتياطي الفيدرالي التي اتخذت للتعويضات بين سحب الخيط من القطاع المالي والسكك في قيمة المال.

إذا كنت تريد معرفة الأسباب الحقيقية ولتست المسألة للأزمة المالية الحالية فهذا الكتاب سيكون دليل لهذا الضم

Out of Captivity

الخروج من الأسر

Marc Gonzales, Tom Howes,
Keith Stunell, Gary Brozek
William Morrow, 2009, 480PP,
26.95\$



في الثالث عشر من فبراير من عام ٢٠٠٣ تحطمت طائرة تحمل ثلاثة مقاتلين أمريكيين في العات الكولومبية. وفي لحظة خروجهم من الطائرة المحطمة فورا بهم بدون وثاق من الرصاص يطلق عليهم ليرة خروجهم الساعا. ليكتشفوا

السلام المختلفة التي بدأها زوجها منذ أكثر من ثلاثين عاماً، مشيرة إلى التفات الإسرائيلي الواضح في العملية السلمية السيدة جيهان السادات أولت اهتماماً كبيراً لأحداث الحادي عشر من سبتمبر التي تراجها عبرت وجه العالم وقسمت تاريخه إلى ما قبل الحادي عشر من سبتمبر وما بعده، موضحة أن هذا الحدث استعد في لديها مشهد اغتيال زوجها أنور السادات في السادس من أكتوبر عام ١٩٨١، هي تركز أن هناك تشابهاً بين الحدثين هي كون من قام بهما متطرفين إسلاميين يسيلون إلى الإسلام

الكتاب قال عنه الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر «البطل الحقيقي لاتفاقية عام ١٩٧٩ لسلام بين مصر وإسرائيل كان أنور السادات، وكتاب زوجته جيهان هذا يذكرنا أن حلم السادات بسلام المنطقة لا يزال حياً، كما قال عنه هبزي كاسينجر وزير الخارجية الأمريكية السابق، «الكتاب، جزء منه يذكرنا بالسيد الرئيس أنور السادات، ومبدأه للسلام والاعتراف بإسرائيل، والذي دفع حياته ثمناً لها، والجزء الآخر يذكرنا بأن الإرهاب والتشدد الإسلامي هو أمر مفروغ من قبل الغالبية العظمى من المسلمين».

Sufism, Mystics, and Saints in Modern Egypt

التصوف والصوفيون في مصر الحديثة

Valerie J. Hoffman
University of South Carolina
Press, 2009, 488PP, 32.50\$



لنقرن عديدة أخذ التصوف الإسلام نوراً هاماً في الحياة الروحية الإسلامية، والحياة الفكرية والدينية والشعبية، وهذا الكتاب هو دراسة متعمقة هي الصوفية ومعتقديها في مصر هذه الأيام، ما هي؟ وما هي مبادئها؟ وما هو دور النساء في الصوفية والعديد من الأسئلة الأخرى التي توضح الصوفية ونورها في مصر.

الكتاب يقدم رسماً مفصلاً للتصوف وتجارب حية لعنفيتها وأفكارهم ومعتقداتهم، مع توضيح للعديد من المعلومات المغلوطة عن الصوفية في مصر.

ستوارت جاردنر، وغادروا ومعهم كمية هائلة من اللوحات العالمية، منها ثلاث لوحات لرامبرانت وواحدة لسمير. تقدر اليوم بأكثر من ٦٠٠ مليون دولار. في هذا الكتاب قصة ما سرق من المتحف، والمحاولات الخفية التي حدثت على مدار ١٨ عاماً للبحث عن السرقات التي لم تظهر حتى الآن على الرغم من رصد المتحف لكافة قدرها ٥ ملايين دولار من يدي ماي معلومات عن السرقة

Obama

David Elliot Cohen, Mark Greenberg, Howard Dodson
Sterling, 2009, 224PP, 24.95\$



كتاب وثائقي ليس له مثيل لتوثيق رحلة الرئيس أوباما إلى البيت الأبيض، الكتاب يحتوي على كلمات وصور أوباما منذ الترشح الأولي وخلال حملته الانتخابية وحتى تولده للرئاسة، ليحقق ما كان يعتقد أنه من المستحيل.

الكتاب يحوي مقتطفات من أكثر من ١٠٠ صحيفة ومجلة عالمية ومخلص، وصورا لحملته الانتخابية، وخصوص الكلمات التي قالها. ليكون تذكيراً للأجيال القادمة.

My Hope for Peace

Jehan Sadat
Free Press, 2009, 224PP, 25\$



كتاب جديد للسيدة جيهان السادات فريته الرئيس الراحل لصر أنور السادات، تناهض فيه عن الإسلام بالدرجة الأولى، مقدمة رداً على التقييم الخاطئة عن الإسلام، حول عنف الإسلام وتشدده وحول مكانة النساء في الإسلام، كما تتعرض لقصة الصراع العربي الإسرائيلي المستمر لأكثر من خمسين عاماً، موضحة لجهود

تبداً أحداث القصة بعيد ميلاد الرئيس الأمريكي، كل شيء يبدو طبيعياً، الأطفال يلعبون ويحتفلون، وطفلة تلتقط الأمور ويتم اختطاف ابن الرئيس الأمريكي مسيلاً كارثة للأمن القومي. السيدة الأولى لا تدق إلا بشخص واحد فقط ليرجع لها أينما اختطف، حين تخرج، يعمل مخبرات سابق، والذي سبق له إنقاذ الرئيس من مشكلة سياسية صعبة، ويبدأ العمل كمحقق خاص. سباق ضخم لإنقاذ ابن الرئيس الأمريكي، عوامل سياسية متعددة تتداخل مع عملية الإنقاذ، وخيف، سيتم بفصل بين الأصدقاء والأعداء.

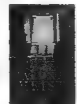
Mike Rapport
Basic Books, 2009, 480PP, 29.95\$



في عام ١٨٤٨، اجتاحت أوروبا عاصمة صيفة من الثورات، أطاحت بالحافظين لتحافظ على سلام القارة المحقق من هزيمة نابليون في معركة واترلو عام ١٨١٥، هي أحداث لم تشهد القارة لها مثيلاً منذ الثورة الفرنسية وحتى عام ١٩٨٩ الذي شهد الثورة في شرق ووسط أوروبا. في هذا الكتاب، المؤرخ مايك رابورت يبحث عن جذور الثورة والعنف التي اجتاحت أوروبا، وكيف تسلسلت الأحداث لتولد ثورات عديدة مترابطة في كل أنحاء أوروبا غيرت مجرى التاريخ.

The Gardner Heist

Ulrich Boser
Collins, 2009, 272PP, 25.99\$



في الساعات الأولى من صباح الثامن عشر من مارس عام ١٩٩٠، تقاها بعض المصوص بأنهم من رجال الشرطة، ودخلوا إلى متحف بوسطنون ايزابيل

يتساءل البعض، هل علينا اتباع عرائزنا وهفرتنا أثناء اتخاذ قرار، أم يجب اتباع الطرق التحليلية؟ الإجابة لدى ليبرير هي أن هذا يختلف طبقاً للموقف ونوع القرار، مقدماً في هذا الكتاب دليلاً لكيفية اتخاذ القرار السليم.

هذا الكتاب يأتي نتيجة لدراسة لكاتب لمعدين من الزمان علم الأعصاب، واقتصاديات السلوك الإنساني، ليبحث ثورة في فهمنا لعملية اتخاذ القرارات

Heart and Soul

Maev Binchy
Knopf, 2009, 432PP, 26.95\$



في هذه الرواية تقدم الكاتبة ميف بنشي قصة أخرى من الحياة، القصة تدور أحداثها حول كلارا كاسي طبيبة القلب، التي تعاني من زواج منكك وعمل ينهار كلارا قبلت بالعمل في مستشفى سانت بريجيد على الرغم من أنه لم يكن العمل الذي تريده، ولكنها رفضت به للزواج من تذكروا زوجها المدمر ولكنها لن تستطيع به الهروب من ابنتها الراهقته اللتين تعتمنان عليها هي كل شيء كما لو كانوا أملاً صامداً.

من خلال حياة كلارا اليومية تقدم المؤلفة دراما اجتماعية واقعية مليئة بالأحداث.

First Family

David Baldacci
Grand Central Publishing, 2009, 464 PP, 27.99\$



في واحدة من أكثر قصصه إثارة، يقدم دينيد بالمسي قصة مثيرة عن اختطاف ابن الرئيس الأمريكي من داخل استراحة الرئيس وكاتب مثير.

تهتم وجهات نظر، بتعريف قرائها بالمكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناضرين والكُتاب والمُؤمنين الذين يساعدونها في ذلك، وتُدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية إلى يروته من إصدارات. ❦

العميل بابل

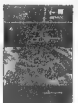
نابيل عمرو اللبش
القاهرة دار الشرق، ٢٠٠٩، ١٢٦ صفحة



يقول الصحفي والإعلامي عمرو اللبشي في تقديمه لهذا الكتاب: حملت حقلابي وقلمبي... سافرت إلى موقع الحدث... إلى لندن... والدافع الأساسي الإجابة عن سؤال: من قتل اشرف مروان؟ ولكن في الوقت نفسه كنت أبحث عن إجابة أخرى لسؤال كان مطروحا من قبل وفاة مروان: هل كان جاسوسا مزدوجا بين مصر وإسرائيل؟ اتصلت بكل الأطراف. حاولت جميع... سألت ملفات الأسفلة... ولنتيجة إن سبب وفاة اشرف مروان ليس انتحارا على الإطلاق. ولكن هناك جريمة وقعت... وكشفت أيضا أسئلة لا تقل أهمية عن معرفة القاتل. أو ماذا كان يفعل مروان مع أجهزة المخابرات؟ وإلا كنت أتحقيقى توصيل إلى أسئلة وتنازع لم أكن أنا خبصيا أتوقعها وسيماجا بها الفائق.

المسحراتي

محمد حطاب
القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ٢٢٩ صفحة



يجوب «المسحراتي» العارات والأرقعة، ممسكا بطبلية ليوقظ الناس للنسج، ولكنه حسا لا يقف عند حدود المكان والزمان، بل ينتقل بنا من الاستيقاظ إلى البقعة المستعارة بمعناها العميق حين تتحدث عبر لغة بسيطة، كل لغة البساطة الأسيرة، وما أصعبها حين نذكر طيولها لنقرأ عن انتحار التاريخ، ووفاء المثل العليا، ومكافحة الأمية السياسية، إضافة إلى معان أخرى لا يستطيع أن يوظفها بدخلنا إلا هذا النوع من المسحورين الجادين الذين يعون... في زمن يمتدح

الجهل - الدور الذي يجب أن يلعبه المسرحيات.

فكر القضاء

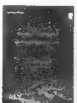
جيل غاستون عرابحي
ترجمة د. علي ندريس
بيروت المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٢٨٨ صفحة



لا شك في أن معنى القضاء هو من صلب تفكيرنا. نحن نفكر في الأشياء ونراها ولقلمنا في الفضاء. لكن هل نفكر القضاء نفسه؟ هل الفضاء مجرد شكل أم هو شيء أيضا؟ يبدو كل المسألة جاهزا مادام علماء الرياضيات قد وجدوا. من طريق التجريد ومذن زمن طويل، علما موضوعه الأشياء، باعتبارها موجودة في الفضاء، وهذا العلم هو الهندسة. لكن هل هذا صحيح؟ وكيف؟ يتناول الفيلسوف غريجانج هذه المسألة المركزية من الفيلسوف كقصة متابعا أصالة المعرفة في مجال فلسفة العلوم.

قاموس التنمية

دليل إلى المعرفة باعتبارها قوة
تحرير: فرلمجانج ساكي
ترجمة: أحمد محمود
القاهرة - المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨، ٦٢٧ صفحة



يمكن تسمية الأربعين سنة السابقة لتطور هذا الكتاب، «عصر التنمية»، وباسم التنمية كطبخ الجيوب من أجل الحلق بالشمال، وبعيد الخسارة على الشرق، القريب من الواقع، وتحول ملايين البشر إلى عمال أجراء ومستهلكين. ولكن التنمية، كانت أكثر من مجرد معنى اجتماعي اقتصادي، فهي إدراك يشكل الواقع، وخرافة تريح المجتمعات وخيال يطلق المشاعر، ويبحث هذا الكتاب

«التنمية»، باعتبارها رؤية كلية خاصة، في هذه المجموعة الرائعة يستعرض بعض أبرز منتقدي التنمية في العالم المفاهيم الأساسية الخطاب التنمية في عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية. ويبحث كل مقال أحد المفاهيم من وجهة النظر التاريخية والأشروولوجية ويلقى الضوء على تحيزه الخاص. وبعد أن يكشف المؤلفون ما تقسم به فكرة التنمية ذات المركزية الأوروبية من عدم موافقة تاريخية وعظم، فإنهم يدعون إلى جهرا بالكاملا، وهم يقولون إن هناك حاجة ماسة إلى ذلك كي نخرج عقول الناس، من كل من الشمال والجنوب، من أجل إيجاد حلول شجاعة للتخلف البيئية والأخلاقية التي تواجه البشرية في الوقت الراهن

هذه المقالات دعوة إلى الخبراء والحركات الشعبية، وطلاب التنمية، كي يتعرفوا على النظرات المتضمة التي يلبسونها حينما يتشاركون في خطاب

وقد لا كل مقال مبالو جغرافيا تميز الشارح على التعريف على موضوعه بشكل أوسع، لتشجيع المزيد من الدراسات في التاريخ الثقافي لفكرة التنمية.

طريق الشعر والسفر

أمجد ناصر
بيروت: رياض الريس للكتاب والنشر، ٢٠٠٨، ١١٠ صفحات



أنا من الأشخاص الذين يعتبرون بيروت تاريخا هائلا في حياتهم على أكثر من صعيد، ولم أستغف، رغم الاستعدادات المتكررة لتلك العمره القصيرة من حياتي، المخزون الكامن فيها.

فهي بيروت حصلت على ما لم يكن ممكنا لي الحصول عليه في عمان. لم تكن مكتبتي بيروت هائلة، فقط على كتب لم تصل إلى عمان، ولكنها كانت أيضا مكانا لم يتوقف فيه السجالي، رغم الحرية في الشعر والشعرية اللذين عرفتتهما في أواخر الخمسينيات هذا وجه من وجوه عبيرية المبتدة التي لم تتمكن الحروب، والاحتلالات والنزاعات المامية أو الانتفاضات الأعلى من إطفاء جذوتها أو الاستئثار بها. أو مخالفتها بمحيطها العربي. كان الشعر، والسجال حوله، رغم حرب الستين الطاحنة، على

وشك أن يستأنف طورا جديدا تواصل نحو عقدين بعد ذلك، وأمكن أن لا يمتد إلى عواصم أخرى ويشبكها في صخيه. هل أعزو الخلقة التي أصابت قواعدي الشعرية في بيروت إلى إيماني الصميه بهذه الضاعات؟ لا أستبعد ذلك، رغم أكثر من ناقد وشاعر، من بينهم عباس بيضون، إلى أنني «جئت قويا، في قصيدة الورد، وليس بعيدا من ملاحظة عباس، ذلك الأسى الذي ابتاه محمود درويش، يوما، عندما علق على «طوى الشرى، كالألإثني لم تكن لي مشكلة مع الورد»

مقتل فخر الدين

عز الدين شكري
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ٢٤٨ صفحة



الرواية تصلح شهادة حية على العصر والظروف التي تحياها شخصياته الروائية، فهو يتعمق في ذوايق السبيلسي العام، وانكساره اجتماعيا وثقافيا، وخبرة اتأها له عمله في السلك الدبلوماسي، تلك العمل الذي يقول عنه: عندما تكون دبلوماسيا، لا تضمن الأشياء بالضبط كما تريد، فانت طوال الوقت تتفاوض في الأمر الذي يلقي بظلاله على الحياة الشخصية، لكن في الكتابة الأمر مختلف، فإنا اصنع ما أريد، أخلق شخصيات، اصنع أزمات، وادخل الأزمات في بعضها البعض، ليس لأحد أي سلطة علي. أنا حر تماما فيما أريد أن أقوله.

ركز عز الدين شكري في هذه الرواية على التفاصيل الصغيرة التي تقسم في صناعة الحدث، لتشكل مجموعة من الأبطال الصغيرة، تصب في بحر الرواية الكبير، لتشكل ملامحه عبر بعثيات الحدث التي مكتونة وذوايق الأبطال، بحيث يبدو هذا الحدث حقيقيا وواقعيا إلى درجة القصوى، لا يدور في فراع، وليس وليد إيمانية قائمة على الصنعة، وهو ما يفضي على فلسفة العنف في مقتل فخر الدين بعدا تاريخيا، صمتا بين السريات لحظة، ثم انبثال الصوت دائما منتشرا من كل نافذة ومدخل وسطح، سقط فخر الدين سقطا واحدة على رصيف الشارع في ممة الأحمر الخلفي. أصبح الهواء صدرا لإشارة الصمت فصمتت الرشاشات الأعلى، يظل وجه أحد

والهوية واحدة في مجالات العنصر والثقافة والتاريخ... فالمجموعة الأولى تعرض أعمال ثلاثة من المفكرين المصريين يمرون فيها من علاقتهم وانشغالهم مع الثقافة والحضارة العربية، وكيف تأثروا بها وإلى أي مدى أثرت في شخصياتهم الثقافية، وانتمائهم الوطني، وتعرض المجموعة الثانية لثلاثة كتب تضمنت رسائل كتبها شخصيات عربية خلال إقامتها في مصر في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وسجلوا فيها انطباعاتهم عن الحياة والطبيعة والبشر في مصر وتعرضت المجموعات الأخرى لحضارة الشرق الأدنى ممثلة في الصين واليابان وغيرهما من التاريخ المعاصر، كما تعرض الكتاب لأعمال تافلت فيها التنوير والعلم، وعلاقة الإسلام بالغرب.

رسالة الحماة

تأليف رحنا طلبة
القاهرة دار الشروق ٢٠٠٨ ٢٩٠ صفحة



هبر أكثر من نصف قرن جرت أحداث في نهر الحماة ونفاتها أكثر من الرصيد الرائع الذي كان للحماة والحاميين! عز على كثيرين أن ينجي نهر الحماة قوية مؤثرة في الحركة الوطنية والحياة السياسية، فها هم إلى ذلك أن الحماة طائفة حرة ومؤثرة... تناسى على الإعدام أو التطويب... فالحماة لا ينتظر راتباً من أحد، وإنما رزقه في يد الله، عز وجل، وعلى مدى كفائه وقدراته وإخلاصه، ثم هو صاحب معرفة وحجة ومنطق وقدر على المزاولة والقيام بالإصلاح، فلا سبيل إلا إلى أن تصير الحماة بأسرها، والطريق الأخيرة إلى ضررها، صوب دقاتها، لذلك استهدفت نقابة الحاميين منذ أكثر من نصف قرن... فتغيرت الأساليب والطرق والهدف واحد هو احتواء الشخصية... هذا الكتاب تعريب للحماة، ودعوة لتقديم إليها، فيقيمها ويمادها وعلمها ومهرتها... لنعود الحاميين إلى ما كانت وكانوا عليه، لعل هذه هي الفرصة الأخيرة ليستعيد الحاميون وينتبهوا ويتعلموا لاستخلاص أنفسهم ووطنهم والحماة، واستعادة ما كان من عظمة وجلال... أريد بإيراد بعض صفحاتها... أن تكون حافظاً للحمايين للتواصل الحقيقي والتقدم يعزم وإخلاص إلى الحماة

التحول الكبير الأصول السياسية والاقتصادية لرؤيتنا المعاصر

كارل بولاني
ترجمة محمد فاضل طابع

بيروت المنظمة العربية للترجمة ٢٠٠٩ ٥٧٢ صفحة



يصلح كارل بولاني، في هذا الكتاب التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي جلبها التحول الكبير، بعد الثورة الصناعية، ولا يقتنى تحليله مسرح مواهر السوق كدنياً، بل يشمل أيضاً، النتائج الاجتماعية الأنيمة الممكنة لراسمالية السوق الجامحة. وإن ما يستجد في عصر العولمة والتجارة الحرة يستند لتقبل بولاني أهمية متجددة، مع اقتراب الحرب العالمية الثانية من نهايتها في عام ١٩٤٤ تم نشر كتابين مهمين في الاقتصاد السياسي، كان أحدهما لهليك (Hayek) وهو: الطريق إلى العبودية، الذي تحدث عن القوة الدافعة وراء تطور السوق الرأسمالي من الأخير من القرن العشرين، والثاني لكارل بولاني، وهو التحول الكبير. هذا الكتاب يستحق القراءة، فعلاً.

حرب بلا فخر لبنان، ربيع التحرير وصيف الحرب وشتاء الضراب

أمير سعيد
القاهرة: مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية ٢٠٠٩



يقول الكتاب في تقديمه للكتاب أتم أيها الثوار مثل زيد الجبر، متى هداهم التهميت. (القائد البناي المحتفى موسى الصدر) هذه العبارة الموجزة اختزل الصدر مفهوم الضال عند الجليشيا التابعة له لذلك، أفواج المقاومة اللبنانية المرفوعة اختصاراً: (أمل... ثوار مثل زيد الجبر، وهي هنا تعني حالة دائمة من الحركة التي انتهت بيد البلد، الصعيون، أكانت إلى الحرب، إلى الإضراب، من دون أن يتعثر هذا الحراك قدام من المراجعة والتحقق في مدى جدواه ومبرراته،

الحركة ليست دائماً محمودة، ولا السكون كذلك، والعبارة التي في محملة الحراك، فالمحقة أن القدرة الاقتصادية لا تقاس بما تحته من جليله، وبما تصطعه من أراض في طريق سيرها، وإنما بمقدار ما تبعد في النهاية عن نقطة البداية في طريق الضلال أو الفشل، فالتأثير في الطبقات المرفوعة يجهون كثيراً، ويضنون طويلاً، لكنهم يعمدون من حيث نقطة البداية أو ربما تفهموا عنها، وهما كان وجه منطوقهما ناصماً كما أريد فإنه عند التحقيق لا يقوى على الاستمرار إلا أنه في الحقيقة أجوف لا قلب له... ويصا من مطمحهم فلا تطلع إلى السماء بل إلى الشارع على يمنعه شرعية يروجوا اقتناعها فقصن بها عليه، متى كان الرصيد المتصنى مشعوا إلى الخلل الداخلي، والحصول في الداخل الشعبي بكل ما يتمتع به لبنان من تنوع ديني وثقافي وسياسي محدودة، حيث يظل لهذا فيفسد السور الشريك بحاجة إلى الشفاه والتمايش على أرضية حضارية واسعة يعمق تاريخ هذا البلد العريق.

آفاق تروية جديدة صنع القرار في السياسة التعليمية الأطراف الفاعلة والأليات

نهي حامد عبد الكريم
تقديم: د. حامد صابر
القاهرة الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٩ ٢٠٠ صفحة



يقع الكتاب في أربعة فصول كبيرة، تحاول الإجابة على كل الأسئلة المتعلقة بالسياسة التعليمية في مصر، فصل القرارات التي تخص التعليم بصورها ووير التعليم أو توصل إليها بمشاركة في الصنيعة؟ هل هذه القرارات وليدة استطلاعات للرأي العام من العفنيين بالسياسة التعليمية؟ كذلك تشير المؤلفة إلى الدور القاطن والمستوى لكل من السلطات والسلطة عن صنع القرار والتأخذ وتطبيقه في مجال التعليم. يوضح د. حامد صابر في تقديمه للكتاب أن اتخاذ القرار كما يتناولونه هنا الكتاب ليس عملية فنية أكاديمية فحسب وإنما هو فعل به بعد عملية سياسية تولدت من أهداف ومقاصدها وتوجيهها للنظام التعليمي، ولم تكن المعالجة بهذه الريغة النظرية، بل خصصت جزءاً كبيراً ومهماً من الكتاب للاشتباك مع واقعة محددة في اتخاذ قرار معين وهو تخفيض عدد سنوات التعليم

الابتدائي إلى خمس سنوات بدلاً من ستة، وذلك تحت ضغط الأزمة المالية في ذلك الحين، ثم عودة السنة المغفلة مرة أخرى، وتأثير ذلك على المدرسين والطلاب معاً، وعلى العملية التعليمية بمرمتها، ورات المؤلفة أن الأداة والبراهين التي ساهلت في هتج سرور كرجل قانون كأبائ للإلغاء أدلة وبراهين قاهرة لا يمتد بها، وانطلاقاً من تروى المستوى العام للتعليم تطرقت الدراسة إلى الشرايع من قرار الإلغاء وصوب قرار بعودة الصف السادس كحل أو محاولة للتنبؤ بالنتائج، وتحسين مستوى الترواة البشرية المصرية وتنميتها بصورة تخدم خطة التنمية القومية.

ونظراً للمردود السلبى الذي أحدثه قرار إلغاء الصف السادس، وهو الإلغاء المفاجئ الذي أدى إلى الكثير من المعارضة قامت المؤلفة بدراسة ميدانية طبقت فيها استبيانات استطلاع الرأي لاكتشاف توجهات آراء العاملين في المجال التعليمي نحو حرية الإلغاء، أضح منها أن صانع قرار الإلغاء استطاع أن يحدد المؤسسات التربوية، بل ويحصل على مواقفها لتدعيم وتعزيز مركزه وصورته أمام الرأي العام سواء داخل قطاع التعليم أو في المجتمع المدني ككل، وأظهر استبيان رأى معلمي الابتدائي والإعدادي أن قرار إلغاء الصف السادس أضر كثيراً طلاب الصفه المرفوعة، كما تسبب في قصور العملية التعليمية والتربوية، وهو كان من نتائج مركزية السلطة والتعليم في التعليم والإضراب وأخذ القرارات المصرية التي تمس حياة الملايين من الطلاب وأسرهم، دون دراسات وأبحاث وتنسيق محسوب، أن يستمر الهبوط في المستوى العام في المرحلة الإعدادية ويستند للمرحلة الثانوية.

الإسلام الأسس

كولين تيرنر
بيروت الشبكة العربية للأبحاث والنشر ٢٠٠٩ ٣٦٠ صفحة



إن كتاب 'الإسلام الأسس' هو مقدمة موجزة نشر في الوقت المناسب وتحديثاً بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ليقدّم الإسلام، أحد أهم الديانات في العالم، في خلال مختصاته، مبادئها، مبادئه، وإدخاله، إنه محاولة، بل في خلال المؤلفة إلى تقديم صورة واقعية وموضوعية عن الإسلام، باعتباره أكثر إثارة للجدل خصوصاً بعد أحداث تسببت التي حدثت

أسرار الحديقة الإسلامية

الجال لتفسير - وبخاصة في مجال العمارة - من غير مراعاة للشروط والأوضاع المناسبة بيئياً وثقافتنا وحضارتنا، من أجل تحقيق الانسجام بين البيئة العمرانية المتزايدة يوماً بعد يوم والبيئة الطبيعية التي تتنافس ترويجياً، وإعادة الوجه العربي الإسلامي الأصيل لحداثتنا ولتصميم المرافق خلال مدننا، من خلال جهد مشترك ينهض به خبراء عمارة البيئة وأساتذة تاريخ الفن والباحثون في الحضارة الإسلامية العربية، وبخاصة أن كل تصميم الحديقة الإسلامية قد بلغ - عبر عصور تاريخنا الإسلامي - مستوى عالياً من الشمولية الإنسانية، الأمر الذي أرسى جميع الأنواع محققاً البعدين، الفني والجمالي.

الجميل أن المؤلف - في دعوته إلى التمسك بالخصائص الإسلامية العربية في تخطيط المرافق وتصميم الحدائق - لا يدعو إلى استعادة الماضي ومحاكاته وتقليده في صورة حربية لثوب حركة الإبداع والتجديد، بل في عهده فارقنا التجديد الزايع، المستوعب في وقت واحد للأصالة التراثية وابتكارات العصر، في إطار ملازمة طرقنا وتراثنا الروحي ونماذج بيئتنا الحضارية في تقييد من البهتان، بعد أن سطرت روح التجريب والتقليد والحرية الثقافية، وبإدعنا في التنوير الحضاري وعن تراثنا الفكري الروحي.

في الكثير من صفحات هذا الكتاب ينسكب على لغة المؤلف ماء الشكيب ووهجه حين يعبر عن استزاج صلاخ روحها وتجليات في عمارة البيئة من منظومة الإسلامية العربية، ونحن نعلق على آراء أساتذة عمارة البيئة الأجانب، فنحن إن لغة قد أصبحت لغة شاعر استطاع بحسه المرفه أن يعطي لصوت العمارة ويستمع لغة الطبيعة وجوارح شئ الكائنات وعناصر الوجود من حيوان ونبات وجماد، وأن يتفكّل بوعيه في عناصر الجمال وتوازنات الشعة في الطبيعة والكون، وأن يستقرقر الحب الدالب والولوج العرشي إلى عالم النصوص الأدبية والشعرية المتناثرة كالغدد المنظوم في ثنايا هذا الكتاب ترتبه وتجلو محاذيله وتتركب كلماته العرفية، وتفضي عليه صلابة جميله ينظم هذه العناصر على ملامح منها دين العرفية، وعطره الوحي بإقامة الغنية تبقى تهلة في الطب للصديق العزيز والأخ الكريم، الدكتور صفى الدين حامد أساتذ عمارة البيئة وإعجاز الجمال وأقباس الروحانية على إزاح من الدراسة الرائدة، وفتح الطريق أمام من يجتوبون بعده من الباحثين والدارسين.

فارقوشة



الحديقة الإسلامية مبدعاً لهذه الدراسة. واختيار عنوان الدراسة مستلماً من أية قرآنية، «جَنّات وعيون»، والكاء منهجه على أسس راسخة متكاملة تجمع بين عناصر مادية وأخرى روحية، وتتغلغل في أصقاع أسرار الحديقة الإسلامية في الأندلس ومن فارس، أصلها وشريانها، وأيضاً وإمبراطورية المغول في القارة الهندية، من خلال رؤية ذات فضاءات متكامل يتنظم التوزيعات المختلفة للنص الأساسي الواحد في الجزيرة والعرب وروني ومصر وتركيا وصقلية والعراق والجزيرة العربية والهندستان والقارة الهندية والصين وأوزبكستان. وأروع ما في هذه الصفحات نجاح المؤلف وإبداعه في الكشف عن العلاقة الوثيقة والتأثير الكبير للطبيعة والبيئة والثقافة في تصميم الحديقة الإسلامية. من خلال الوصف القرآني لجنتات اليوم الآخر، وتأثير السنة النبوية، وتجليات هذا الشاخص من خلال نماذج رائعة ومعمشة تتشكّل في دلائق العالم العربي المغشوة بدقائق قلعة الحمراء في غرناطة بإسبانيا وسناتش آثاراً بارغ في باكستان، ودقائق قلعة فارس في إيران، كما يتجلى في تصميم الحديقة أو البستان إلى أربع رياض يفصل بينها عنصر مائي يرمز لأفلاك الجنة، على غرار التساع الرياض الأربع في الجنة لتزكّيها التي نصت عليها الآية القرآنية: «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين الذين هم الله عليهم من الصالحين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» (النساء: ٦٩).

ومؤلفنا يتجذر دراسته الجديدة والمفتحة وعينه علمياً نحن أبناء هذا الزمان المتراجح في افطارات العربية الإسلامية، بهدف فتح عيوننا على المآلوف التي اعتدنا دون تأمله أو نقده أو الرغبة في تغييره، بعد أن عاد الخيال وتراجع الجمال، وسادت العشوائية، وتراجعت الهوية والتخيلية، والتسع

جَنّات وعيون
دراسات في العمارة الحديقة الإسلامية

صفى الدين حامد
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩،
١٢٨ صفحة

هذه دراسة بديعة شائقة، لا تصدّر إلا من عالم رائد، على درجة عالية من التخصص في العمارة والتخطيط البيئي. امتدّ وجدانه بعشق الجمال وأقباس الروحانية. من هنا كان التساعها لا تهمشته من أبعاد حضارية وبيئية وروحية، وامتدّوا بكيمياء الشعر وحرارته في نماذج رقيقة في الإبداع التصويري والتصويري، والمؤلف يأخذ بأبديتها والباقي إلى تجليات الحديقة الإسلامية في تصميمها الذي جمع بين المعرفة العلمية والتذوق الفنية والامتلاء الروحي.

ولقد أتيح لي في مستهل حياتي العلمية، وأنا بعد معلم لغة العربية في مدرسة القرائن التمهيدية، في دلائق الفنية والقدرة، أن أتعرف على مؤلف هذا الكتاب الدكتور صفى الدين حامد، وهو طالب بالسنّة الثالثة الإعدادية، وأن اكتشف استعداده المبكر وميله للهندسة والتأمل العميق وسيطرة التذوق العقلي على أسلوبه في التفكير، وكانت عيناها النافذتان من خلف نظائره الطبيعية تكشّان عما تتكّن به جوانحه ومداركه من رعي وفوق سنوات عمره، يؤكّد تمايزه وتضجيه المبكر، وتفوقه المعرفي على أقرانه، ومتمما ضررت بد السنن بيننا. تركت أنا العمل في التعليم إلى المجال الإعلامي واجهه هو إلى دراسة الهندسة المعمارية في جامعة القاهرة، منتظلاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على الماجستير والدكتوراه، كنت سعيداً بأن أتلقى من بعد سنوات طول من البعد والأفطار، ومطابقة تحية، لأؤكد لي ما توستمه في وراعتي عندنا كان في الثالثة عشرة من العمر، لقد أصبح العمى الطموح أساتذاً في الجامعات الأمريكية، وأصبح الدكتور صفى رائداً في حقول العمارة والتخطيط والبيئة. مشاركاً في هيئات ومنظمات دولية عديدة، وراسماً برامج علمية لشهدها الجامعات العربية لأمم مرة، وأصبح مقدر له أن يعود إلى بلدته مصر بين الحين والحين، خبيراً ومستشاراً وأساتذاً رائداً في مجال تخصصه، وهو أمر ليس بالقليل.

لكن اللات في التكوين الإنساني المعرفي للتذكور صفى الدين حامد أنه يمثل أصق تميّز العالم الملم الحاضر، في معادلة مبدعته المزعج فيها العلم بالإيمان والنفس المأزج وأحسن الفن الرفه، الأمر الذي يفسر اختياره عمارة

من الدين الإسلامي ديناً يرمز إلى الأصولية والإرهاب والهجمات الانتحارية.

في هذا الكتاب مقارنة جديدة لاستكشاف الإسلام، من خلال الوحي القرآني من جهة، وعقله الإسلام من جهة أخرى. وهذه المخرطة نابغة من تفسيرات خفية اكتسبها المؤلف من دراسته الأكاديمية للقرآن والدين الإسلامي قارة، ومن خبرته العلمية وسط الناس يدعون الإسلام قارة أخرى.

قهوة المصريين

تأليف: محمد كمال حسن
تأليف: مصطفى المصطفى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ١٥٧
صفحة



هذا الكتاب يضم مدونة مشتركة للمؤلفين يحكيان فيها مفامراتهما في عالم الشؤون المثير، ويصدر ضمن سلسلة «مدونات الشروق»، ويؤكّلان في تعريفهما لهذا الكتاب «الموضوع من شوية كراسي وكام لراوية» الذين اصحاب القالب اكتسبوا شوية ومشوا، ولا تأس عدت بالصفحة لعدت وإقامت... أنا كنت فاكركم كده، لحد ما فكرت العهد القوي واسع وسير، وإعرف يعني إيه هوة ويعني إيه حكايات...

الجماعة وتحولاتها

التجربة السياسية العربية الإسلامية في فكر رضوان السيد

شمس الدين الكيلاني
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر،
٢٠٠٩، ٣٢٥ صفحة



غلب على دراسات رضوان السيد وأبحاثه الانشغال بموضوع السياسة، في المجال الإسلامي، وكان قد

اعد نفسه بحثياً ومنهجياً لهذه المهمة الصعبة، من خلال اطلاعه بصورة مبكرة على موضوعات التراث والتاريخ الحديث والنظريات والسياسي العربي الإسلامي، ومن خلال امتلاك الأدوات العرفية اللازمة التي أهلتها لمهمة الدراسات من الإسلام مستخدماً المنهج الحديث في مجال التاريخ النقاشي، أو في مجالات اجتماعيات المعرفة التي كانت تدخل الرئيسى لأبحاثه في ميدان الإسلام، فضلاً عن ذلك، فقد عمل على تفحص المواقف المتضاربة من الإسلام من قبل العديد من الاتجاهات والقوى تنافست على تفسيره وامتلاكه.

من هنا تولعت اهتماماته حول ثلاثة محاور أساسية: موضوعية الرئيسى سياسات الإسلام، حيث انصرف في المحور الأول إلى تفحص التجربة السياسية الإسلامية في العصر الوسيط، وانصرف في المحور الثاني إلى تحليل ونقد تجربة الإسلام المعاصر في وصيحيه العسكري والنظري، أما المحور الثالث يتعلق بتطوارة من المستقبل الممكن والاستحيل الذي يشوب بين التصالح مع العالم، والتنازع أو الخصام مع الذات والعلم، فالإسلام والسياسات الإسلامية، هي المواضيع المحورية لأبحاث السيد برتمنا، ويحاول هذا الكتاب تتبع أفكاره من خلالها.

الفلسفة الأساس

نيل أوبرولون
بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر،
٢٠٠٩، ٢٧١ صفحة



شهد العالم العديد من المفلسات العظام، الذين روت مساهماتهم في معظم الكتب الفلسفية وفقاً لتسلسل تاريخي، وكتاب ذيفيل وأورولون، هو واحد من هذه الكتب، إلا أنه يستعمل مقارنة فرتكز على المسائل الفلسفية التي يعيشها البشر بامتيازها، مسلمات لا يمكن مناقشتها، وهي المسائل التي تندرج تحت عنوان معنى الحياة، ومنها، الدين، الصواب والخبط، السياسة، طبيعة العالم الخارجي، العقل والعلوم والفنون. فلسفة، برأي المؤلف، هي الفلسفة، هي شأنا يحفز التفكير في البراهين الأساسية التي يستعملها المفلسات، وإيجاد براهين أخرى مناقضة لها. فهذا الكتاب هو موجز لأهم المقاربات الفلسفية لكل موضوع مع عدد من المناقشات لها، ما يمكن أن يكون مصدراً

تستقى منه مقالات إضافية في هذا المجال.

كلام في الحب

تأليف: محمد عبد القدوس
القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٩، ١٢١ صفحة



يقول المؤلف في كتابه: «أخترت كلمة من وجهة نظري تواجبه بلادي اسمها يتكون من كلمتين: اختفاء الأخلاق، والسبب أن الحب مفقود بيننا وفي حياتنا برغم كثرة الكلام عنه وكتابات الذي يبين يدك يحاول إصلاح هذا الخلل، وقد بذلت جهدي في الحديث من الواقع، والأتمتد عن إلقاء دوس في الأخلاق» وحرصت على تناول تلك العاطفة الجميلة من مختلف جوانبها، ولم أركز على العلاقة بين الرجل والمرأة أو روميو وجوئييت فقط، وأخيراً أقول لك إن هذا الحب الشامل لا يعرفه إلا الإنسان صاحب القلب الذهبي، وأرجو أن تكون حاضرك منهم،»

دولة الدم والإرهاب

وثائق الاستيطان الصهيوني
جرائم المستوطنين في إسرائيل
أسامة عبد الحق
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩، ٢١٨ صفحة



تميز إنشاء دولة إسرائيل على كل المشروعات الاحتلالية والاستعمارية من كل أنها قامت على أساس إرهاب شعب مكان شعب آخر، فكانت الهجرة اليهودية واستيطان فلسطينيين، الأساس الاستراتيجي لمشروع دولة إسرائيل، واستوطنات اليهودية هي تطبيق عملي للفكر اليهودي، انطلاقاً من مقولة: «أرض بلا شعب»، فالإجماع الصهيوني الذي يشكل الإطار الإدراكي والأيدولوجي لكل الصهيونية يستند إليها، ومن ثم فإن اليهود، كل اليهود، لهم حقوق محقة فيها، والحقائق المطلقة لا تقبل الأخر، كما

هذا الإجماع يتفق عليه كل الصهاينة، بحيث يستبعد من وعدان الصهاينة، فلسطين وشعبها وتاريخها، بل وجغرافيتها، وهو ما غير عنه عضو الكنيست الإسرائيلي السابق «يتشايوا بن فورت»، بقوله: «إن الحقيقة، هي أن صهيونية بدون استيطان، ولا دولة يهودية، بدون إخلاء العربر ومصادرة أراض وتسييجها،»

إن مبيدا المسطو ضللى أرض الفلسطينيين، وطردهم وتوطين قاعين جدد فيها، فكرة تقوم على أساس أيديولوجي، ذات بعد استراتيجي، يفسده مفهوم الاستيطان، ولتسانده فتاوى الحاخامات، الذين لا يدعون فقط إلى تطبيق حكم التوراة، التي نزل في يوم «علاق»، على الفلسطينيين، الذي ينص على قتل الرجال والأطفال، وحتى الرضع والنساء والعجائز منهم، وسحق الهائم، إنها دولة «الدم والإرهاب»، التي قامت، ولا تزال، على حساب الدم الفلسطيني والعربي، من خلال المجازر الوحشية بحق الرضع والنساء والعجائز منهم، وسحق الهائم، لذا حاولنا في القسم الأول من هذا الكتاب أن نقدم توثيقاً للاستيطان الصهيوني في أرض فلسطين وفلسطين، وبرامج المستوطنين، منذ تدعيم لهذه الأرض، كما حرصنا على تقديم تاريخ فلسطين القديم، والدولة «الإسرائيلية»، الأولى، لتكشف كيف هذا الأعداء الصهيوني، بأنهم يهودون إلى دولتهم الأولى في يهودا والصامرة، حيث كان ويهودهم عابراً في هذه الأرض، وقد جاء عبر القتل والتدمير والاحتشاد لأرض كنعان أيضاً.

أما القسم الثاني، فقد خصصناه لجموعة من الوثائق المهمة في هذا السياق.

فصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون

اختارها وقدم لها وعليها تعليق: د. محمد البعيدة
القاهرة: مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، ٢٠٠٩



يقول الباحث في مقدمة الكتاب: «إن صلتاً بالمقدمة ليست حديثة العهد: إذ كت أريج إليها بين الحين والآخر، أعيد قراتها فأجد فيها ما يساعد القارئ على تفسير بعض أحداث التاريخ، كما

يساعده على التحليل والمقارنة، ثم إن اطلعت على كثير من الدراسات التي كتبت حول المقدمة، وإذا جلّ هؤلاء الدارسين أصحاب اتجاهات بعيدة عن الاتجاه الإسرائيلي الأصيل، وكل صنف منهم يحاول جر المقدمة إلى جانبه أو إيجاد شفرة خلفها منها لتعظيم أثره وتشييعها على كتبه غيرهم لا يقاس إلى غزارة إتناجه.

وإذا كانت المقدمة نتاج الثقافة الإسلامية فيجب أن نعيدنا إلى موقعها الحقيقي، وأصحاب الفكر الإسلامي الأصيل أولى بدراسة المقدمة للاستفادة منها، فالأقرون أولى بالمعروف، وكان مما شجعت على اختيار فصوص من المقدمة والتعليق عليها ما رأيت من إصرار بعض من ينتسبون للدعوة الإسلامية في هذا العصر من دراسة التاريخ وشئون الاجتماع الإنساني، الحقيقي، وأصحاب الفكر الإسلامي التحليل والمقارنة ومعرفة الواقع، والذي لا يعرف الماضي لا يعرف الحاضر.

إن قراءة المقدمة مدخل لفهم ما يجري حولنا، ومعرفة أسباب التقدم والتهور، والتعود على التفكير السليم، ومعرفة العمل والأسباب.

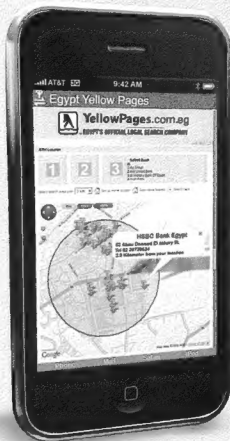
أمريكا في عالم يتغير

عاطف الغمري
القاهرة: المجلس المصري للشئون الخارجية بالتعاون مع مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٩، ١٢٢ صفحة



هذا الكتاب يقدم رؤية لأمريكا بعد انتهاء حكم جورج بوش، ويتعرض للتحليل الجارى في الفكر السياسي للشعبة، والرأى العام، في الولايات المتحدة، وللتحول المهمة في العالم، اللتين تشكلان معاً، ملامح واتجاهات التغيير المتوقع في سياسة أمريكا الخارجية، وديها في العالم في القرن الحادى والعشرين الذي يخلف ما كان يعرف بالقرن الأمريكى. ويتناول المعنى الذى رغه أوباما وهو التعبير شعاراً للعهده، والذي يعبر عن حركة أوسع سيقت أوباما ذاته، ويبدأ ملامحها تظهر في السنوات الثلاث الأخيرة، وظهرت في دعوة أكبر خبراء وسائل السياسة الخارجية للاعتراف بأن التغيير يحتاج فترة خلافة في الخيال السياسى الأمريكى، عسرة تنوعب الواقع الجديد لعالم يتغير.

عايز تعرف أماكن الـ ATM الموجودة حواليك؟



ادخل على YellowPages.com.eg من الكمبيوتر أو الموبايل واستخدم
خدمة تحديد مواقع الـ ATM وهتلاقي كل اللي أنت عايزه.



دليلك للأعمال في مصر
YellowPages.com.eg
Print • Online • Mobile

أحدث إصدارات

دار الشروق



مدينة نصر، سيتي ستارز مول ت، ٢٥٤-٢٥٤، ١٦٥٥٤٧٩٧-٢٥٤٧٩٧٩٧
 الجيزة، فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة ت، ٣٥٦٨١١٧-٣٥٦٨١١٧
 الإلانة، ٨ شارع سيدي بويه المصري - مدينة نصر ت، ٢٤-٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

وسط البلد، ١ ميدان طلعت حرب ت، ٢٣٣٩٧٩٧-٢٣٣٩٧٩٧
 مصر الجديدة، ١٥ شارع بغداد - الكتوية ت، ٢٤١٧٩٧٩٧-٢٤١٧٩٧٩٧
 الإسكندرية، سان ستيفانو مول ت، ٣٧٠-٣٧٠/٤٦٩-٣٧٠

email: dar@shorouk.com